جامعـــة آل البيـــت

كليـة الآداب والعلـوم

أشكال التعبير النثري في كتاب "الحَيَوان" للجاحظ

Forms of Prose Expression in AL-Jàhiz' Book: "AL-Hayawan"

إعداد:

لطفي يوسف أسعد حمد

إشراف:

أ.د. داود سلوم كاظم

	أعضاء لجنة المناقشة		التوقيع
١.	أ.د. داود سلوم	رئيساً	
٢.	أ.د. يحيى الجبوري	عضواً	
٣.	أ. د. عدنان العلي	عضواً	
٤.	أ.د. عبدالقادر الرباعي	عضوا	

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية / في النقد والأدب الوسيط في كليـة الآداب والعلـوم فـي جامعة آل البيت.

نوقشت وأوصي بإجازتها بتاريخ: ٤ محرم ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩/٤/١٩م

الإهداء

إلى التي سهرت معي الليالي الطوال

وتحملت الآلام لتتحقق الآمال

زوجتي المخلصة

شكر وتقدير

أتقدم بخالص الشكر وعظيم التقدير إلى كل من أسهم في إخراج هذه الرسالة إلى حيز الوجود، وفي طليعتهم أعضاء هيئة التدريس في قسم اللغة العربية في جامعة آل البيت، والجامعة الأردنية، الذين لم يترددوا في إسداء المشورة العلمية، وتقديم المادة المعرفية.

وشكري الخالص إلى الدكتور عفيف عبد الرحمن الذي كنت أمضي معه الساعات الطوال فلم يبخل علي بوقته وعلمه وآثاره.

والشكر كل الشكر والإكبار والامتنان لأستاذي الدكتور داود سلوم الذي أشرف على هذا البحث منذ أن كان نبئاً حتى نضج واستوى على سوقه. فقد أثراه بغزارة علمه وحسن توجيهاته. وفوق هذا كله فتح لي قلبه، وبيته، ومكتبته، فكان نعم الأستاذ ونعم الأب فجزاه الله عني كل خير.

وأخص بالشكر الأستاذ الدكتور يحيى الجبوري، والأستاذ الدكتور عدنان العلي، والأستاذ الدكتور عبد القادر الرباعي، الذين تشرفت بقبولهم مناقشة هذه الرسالة لتصويبها.

وشكري وعرفاني بجميل زملائي محمود فؤاد، وسالم الخوالدة، ومحمد الزامل، الذين لم يتوانوا في تقديم المساعدة لي.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أتقدم بالشكر لكل العاملين في المكتبة الهاشمية في جامعة آل البيت، ومكتبة الجامعة الأردنية.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
العنوان	أ
الإهداء	ب
الشكر	ج
فهرس المحتويات	د
ملخص الرسالة باللغة العربية	ح
المقدمة	ي
التمهيد	
كتاب الحيوان دراسة عامة	١
الفصل الأول: الأشكال التعبيرية النثرية في كتاب الحيوان	
- دراسة موضوعية	٩
أولا - الحكاية:	١٠
تعريفها	١٠
موضوعاتها	١١
١- الموضوعات التاريخية	١١
٢- الموضوعات الفكرية	١٢
٣- الموضوعات العلمية	١٦
٤-الموضوعات الاجتماعية	٢٢
٥- موضوعات الحب والجنس	٢٧
أنواعها	٣٢
١- الحكاية التعليمية	٣٢
٢- الحكاية الفكاهية	٣٣
مصادرها	٣٦

١- ذاتية ٣٦

٢- غيرية ٣٧

وظائفها ٤١

ثانيا :المثل ٥٢

مدخل ٥٢

موضوعاته ٥٩

٢- الموضوعات النفسية والأخلاقية ٥٩

٣- الموضوعات الاجتماعية ٦٠

٣- الموضوعات الخلقية ٦١

٤- الموضوعات الاقتصادية ٦٢

أنواعه ٦٤

١- المثل الموجز ٦٤

٢- المثل القياسي ٦٥

٣- المثل الحكمي ٦٥

٤- المثل المبني على الحديث أو القصة ٦٦

٥- المثل الخرافي ٦٦

٦- المثل المولد ٦٧

٧- الأمثال الشعبية ٦٧

مصادره ٦٨

١- مصادر جاهلية ٦٨

٢- مصادر اسلامية ٦٨

وظائفه ٧١

ثالثا : المناظرة ٧٦

توطئة ٧٦

موضوعاتها ٧٨

أنواعها ٩٨

مصادرها ٩٩

١- مصادر عربية ٩٩

٢- العجم ١٠٥

وظائفها ١٠٧

الفصل الثاني : الأشكال التعبيرية النثرية في كتاب الحيوان – دراسة فنية ١١٠

أولاً : الحكاية ١١١

أ- بناؤها ١١١

عناصر البنية الحكائية ١١٢

١- الاستهلال ١١٢

٢- الحدث ١١٧

٣- الزمن ١٢١

٤- المكان ١٢٣

٥- الشخصية ١٢٧

٦- النهاية ١٣٣

ب- أسلوبها ١٣٧

١- التقنيات السردية ١٣٧

٢- الصورة ١٤٣

٣- اللغة ١٤٧

الخصائص العامة لأسلوبها ١٥٢

ثانياً : المثل ١٥٣

أ- بناؤه ١٥٣

الشخصية ١٥٤

ب- أسلوبه ١٦٢

١- الصورة ١٦٢

٢- اللغة	١٦٣
الخصائص العامة لأسلوبه	١٦٩
ثالثا – المناظرة	١٧٤
أ- بناؤها	١٧٤
مكوناته	١٧٥
ب- أسلوبها	١٨٠
١- الحوار	١٨٠
٢- الاستدلال والتنقيب	١٨٢
٣- اللغة	١٨٣
الخصائص العامة لأسلوبها	١٨٩
الخاتمة	١٩٢
ثبت المصادر والمراجع	١٩٤
ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية	A

ملخص الرسالة

لقد جاءت هذه الرسالة الموسومة بعنوان (أشكال التعبير النثري في كتاب الحيوان للجاحظ)، لتعالج الأشكال التعبيرية النثرية في هذا الكتاب، الذي يشكل ظاهرة متميزة عن مؤلفات الجاحظ الأخرى، فهو كتاب موسوعي تنوعت موضوعاته، وتعددت أشكال التعبير فيه، الأمر الذي أثار في نفسي سؤالا رئيسا، يعد بمثابة القضية الرئيسية في هذا البحث وهو:

ما أنواع الأشكال التعبيرية النثرية، وخصائصها، ومعالمها، في كتاب الحيوان؟

وتفرع عن هذا السؤال أسئلة منها:

لماذا لجأ الجاحظ في كتاب الحيوان إلى تنويع الأشكال التعبيرية؟

وما الموضوعات التي تناولتها تلك الأشكال؟

وما أنواعها؟

وما مصادرها؟

وكيف تعامل الجاحظ مع هذه المصادر؟

وما الدور الفكري والفني الذي يلعبه كل واحد منها؟

وما معالم البناء الفني لكل منها؟

وما هو الأسلوب الذي تمت من خلاله هندستها وتشييدها؟

ويطمح البحث للإجابة عن التساؤلات السابقة محاولا تفسير لجوء الجاحظ إلى هذا الشكل التعبيري أو ذاك.

ويهدف البحث إلى رصد أهم أشكال التعبير التي ضمنها الجاحظ في كتاب الحيوان، والتعرف عليها بالقراءة النقدية الفاحصة لها.

ويهدف البحث إلى التعرف على محتوياتها، ودراسة كل ما يتصل بذلك، وتلمس أهم السمات الخاصة والعامة لهذه الأشكال من التعبير، وتبين أبنيتها.

ويحاول البحث بيان دور كل منها على الصعيد الفكري والفني.

ويأمل الباحث أن يضيف جديدا ويستدرك بعض ما فات الدارسين في هذا الموضوع بالدراسة المفصلة العميقة والشاملة لأسلوب الأشكال التعبيرية وبنائها الفني، وموضوعاتها، وكل ما يتصل بها في هذا الكتاب وفق المنهج الوصفي التسجيلي التحليلي الذي يتكئ على روح الدراسات السردية والأسلوبية الحديثة.

واقتضى ذلك تقسيم البحث إلى تمهيد وفصلين اثنين وخاتمة.

فالتمهيد يرسم صورة عامة لكتاب الحيوان.

وأما الفصل الأول فقد اختص بالدراسة المرضوعية لأهم الأشكال التعبيرية في هذا الكتاب، فتناول الحكاية، والمثل، والمناظرة، من خلال التعرض لمحتوياتها وكل ما يتصل بها من مصادر وأنواع ووظائف.

وجاء الفصل الثاني ليدرس بناء هذه الأشكال وأسلوبها متخذا من مكوناته، وأعمدة البناء الفني لكل شكل منها، معرضا فسيحا للتوصل إلى ذلك.

وقد ألحق البحث بخاتمة تمت فيها بلورة النتائج التي توصل إليها الباحث من خلال هذه الرسالة والتي من أبرزها:

١-تميز كتاب الحيوان عن أدبيات الجاحظ الأخرى في المضمون والأسلوب.

٢-يعد كتاب الحيوان كتابا تعليميا في الدرجة الأولى، فقد أفرغ الجاحظ فيه خلاصة تجاربه وعصارة أفكاره.

٣-إن الهدف من تأليف كتاب الحيوان فكري ديني بحت، وهو الاستدلال بالخلق على الخالق، وقد توسل الجاحظ بالأشكال التعبيرية والمتن المعرفي لتحقيق هذه الغاية.

٤- لقد تباين تأثير الجاحظ في الأشكال التعبيرية في كتاب الحيوان، فكانت المناظرات الفن الوحيد الذي أعمل فيه فكره، ومزاجه الفني بشكل كامل، لكونها من نتاجه الخالص.

أما الحكايات، فقد تدخل في معالجتها شكلا ومضمونا لكن هذا التدخل كان محدودا جدا، ومحصورا في بعضها.

وأما الأمثال، فلم يجر عليها أي تعديل بطبيعة الحال، غير أنه أبدع في توظيفها.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

جاءت هذه الرسالة لتعالج الأشكال التعبيرية النثرية في كتاب الحيوان الذي يشكل ظاهرة متميزة عن مؤلفات الجاحظ الأخرى، فهو كتاب موسوعي تنوعت موضوعاته، وتعددت أشكال التعبير فيه، الأمر الذي أثار في نفسي سؤالا رئيسا يعد بمثابة القضية الرئيسية في هذا البحث وهو:

ما أنواع الأشكال التعبيرية النثرية وخصائصها ومعالمها في كتاب الحيوان؟

وتفرع عن هذا السؤال أسئلة منها:

لماذا لجأ الجاحظ في كتاب الحيوان إلى تنويع الأشكال التعبيرية؟

وما الموضوعات التي تناولتها تلك الأشكال؟

وما أنواعها؟

وما مصادرها؟

وكيف تعامل الجاحظ مع هذه المصادر؟

وما الدور الفكري والفني الذي يلعبه كل واحد منها؟

وما معالم البناء الفني لكل منها؟

وما هو الأسلوب الذي تمت من خلاله هندستها وتشييدها؟

والجاحظ علم من أعلام الثقافة العربية كتب عنه الكثير، وعالجته دراسات ورسائل جامعية من زوايا عديدة، فهو كاتب موسوعي ضمن مؤلفاته معارف مختلفة وموضوعات متنوعة، ويعد كتاب الحيوان أصدق مثال على ذلك، فقد اشتمل على معلومات مفيدة وشاملة لمعظم العلوم عرضها الكاتب من خلال تنويعه في بنية التعبير، مما جعل كتاب الحيوان جديرا بهذه الدراسة التي سبقتها دراسات عديدة، وسأقتصر هنا على ذكر تلك التي لها علاقة جزئية بموضوعها (أشكال التعبير النثري في كتاب الحيوان للجاحظ).

١- **النقد المنهجي عند الجاحظ**، داود سلوم.

لقد أفرد المؤلف في كتابه هذا فصلا تحدث فيه عن رؤية الجاحظ النقدية للمثل والنادرة بشكل عام (ص١٣٥ - ١٥٠)، فبين أصول الأمثال التي أشار إليها الجاحظ في كتبه المختلفة، بينما ستتناول هذه الدراسة المثل من زاوية مختلفة فستعنى بموضوعاته ومصادره وأنماطه ووظائفه وأبنيته وأساليبه .

٢- **القصة في أدب الجاحظ**، عبد الله باقازي.

تحدث المؤلف عن القصة عند الجاحظ بشكل عام ولم يتناول حكايات كتاب الحيوان إلا لماما، فقد أفرد بابين للحديث عن الحكاية، تناول فيهما مفهوم القصة القصيرة وبين عناصرها، وتحدث عن طابع القصة في أدب الجاحظ، وعرج على الملامح العامة لها. فقد يبدو ذلك الكتاب على علاقة مع هذه الرسالة إلا أنها ضعيفة جدا، فالكاتب لم يتناول جزئيات الحكاية في كتاب الحيوان، التي ستعالجها هذه الرسالة.

٣- **الحكاية في أدب الجاحظ** (رسالة جامعية) توفيق أبو الرب.

تناول الكاتب في هذه الرسالة الحكاية في موروث الجاحظ الأدبي، وركز على حكايات البخلاء لكنه أورد مجموعة من حكايات الحيوان إلا أنه لم يفها حقها من الدراسة. فعلى الرغم من تعرضه لموضوعات الحكاية عند الجاحظ وبعض من ملامحها الأسلوبية، ومعالمها البنائية، إلا أنه ترك مجالا واسعا للبحث فيها من حيث الموضوعات التي تناولتها، والمصادر التي استمدت منها، والوظائف التي أدتها، بالإضافة إلى أسلوبها وبنائها.

٤- **بنية النص الحكائي في كتاب الحيوان للجاحظ** (رسالة جامعية) خولة حسين خليل شخاترة.

وقعت هذه الرسالة في ثلاثة فصول، فقد أفردت الكاتبة الفصل الأول للحديث عن تنظيم كتاب الحيوان وترتيبه. وأما الفصلان الأخيران فعنيت فيهما بشكل الحكاية في كتاب الحيوان بمنأى عن أسلوبها مما فسح المجال للبحث فيه.

تشكل الدراسات السابقة رافدا رئيسا عمل على إثراء هذه الرسالة إلا أنه يلاحظ عليها تناول بعض الأشكال التعبيرية النثرية عند الجاحظ بشكل عام ولم يتناول أي منها الأشكال التعبيرية في كتاب الحيوان بشكل خاص، إذا ما استثنينا رسالة خولة التي عنيت بدراسة البناء الفني للحكاية في كتاب الحيوان، الأمر الذي ترك المجال فسيحا للبحث في هذا الموضوع – أشكال التعبير النثري في كتاب الحيوان للجاحظ– وجزئياته. فضلا عن أن تلك الدراسات لا تتصل اتصالا مباشرا بالسؤال الرئيسي لهذه الرسالة والكثير من أسئلتها الفرعية. فهذه الرسالة ستقف عند التفاصيل والجزئيات في هذا الموضوع من خلال البحث في السمات الأسلوبية والمعالم البنائية والنواحي الموضوعية لكل شكل تعبيري في كتاب الحيوان.

ويطمح البحث للإجابة عن التساؤلات السابقة محاولا تفسير لجوء الجاحظ إلى هذا الشكل التعبيري أو ذاك.

ويهدف البحث إلى رصد أهم أشكال التعبير التي ضمنها الجاحظ في كتاب الحيوان والتعرف عليها بالقراءة النقدية الفاحصة لها.

ويهدف البحث إلى التعرف على محتوياتها، ودراسة كل ما يتصل بذلك، وتلمس أهم الخصائص والسمات الخاصة والعامة لهذه الأشكال من التعبير. وتبين أبنيتها.

ويحاول البحث بيان دور كل منها على الصعيد الفكري والفني.

ويأمل الباحث أن يضيف جديدا ويستدرك بعض ما فات الدارسين في هذا الموضوع كدراسة المناظرة والمثل في كتاب الحيوان، والدراسة العميقة والشاملة لأسلوب الأشكال التعبيرية وبنائها الفني وموضوعاتها وكل ما يتصل بها فيه وفق المنهج الوصفي التسجيلي التحليلي الذي يتكئ على روح الدراسات السردية والأسلوبية الحديثة.

وافترض ذلك تقسيم البحث إلى تمهيد وفصلين اثنين وخاتمة.

فأما التمهيد، فهو يرسم صورة عامة لكتاب الحيوان.

وأما الفصل الأول، فقد اختص بالدراسة الموضوعية لأهم الأشكال التعبيرية في هذا الكتاب فتناول الحكاية والمثل والمناظرة فعرض لمحتوياتها وكل ما يتصل بها من مصادر وأنواع ووظائف.

وجاء الفصل الثاني ليدرس بناء هذه الأشكال وأسلوبها متخذا من المكونات الأسلوبية وأعمدة البناء الفنية لكل شكل منها معرضا فسيحا للتوصل إلى ذلك.

ولم نتناول هذه الأساليب وتلك الأبنية تحت عنوان واحد هو الأسلوب، لأنه ألصق بالنسيج اللغوي من البناء، وأخص منه، وأما البناء فيحتوي على تقنيات أخرى، كما في الحكاية من بناء للأحداث واستهلال وخاتمة وشخصيات.

وقد ألحق البحث بخاتمة ضمت أهم النتائج التي توصل إليها الباحث من خلال هذه الرسالة.

وآمل أن يسهم هذا البحث المتواضع في إفادة الدارسين، وأن ينال إعجاب العارفين، وأن يكون في ميزان حسناتنا يوم الدين، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وهو المعين.

لطفي

التمهيد

كتاب الحيوان : دراسة عامة

يعد كتاب الحيوان من المؤلفات المشهورة التي تناولها الدارسون في مؤلفاتهم، فتعرضوا لموضوعاته، ومصادره، وقيمته، ومنهجه.(١)

كما يمكن معرفة المزيد عنه، وعن أسلوبه من خلال الدراسات الكثيرة التي تناولت الجاحظ.(٢) مما يبرر لنا الاكتفاء بتقديم صورة عامة عنه في هذا المقام.

لم نعثر على تاريخ صريح لتأليف الجاحظ لكتاب الحيوان، لكنه من المعروف أنه ألفه في المرحلة الثالثة والأخيرة من حياته العلمية.(٣) حيث كان مريضا(٤)،

وأما **غايته**: فثمة أهداف عديدة دفعت الجاحظ، إلى تأليفه، وفي مقدمتها الهدف الديني الفكري وهو هدف رئيسي ومباشر، فقد أراد الجاحظ من كتاب الحيوان بيان قدرة الله عز وجل وعظيم خلقه، وإحكام صنعه من خلال الحديث عن عجائب الحيوانات وغرائبها، وبيان ما اودعها الله من صفات وطباع تلفت الأنظار وتدعو إلى التدبر والتبصر.

وقد أعلن عن ذلك الهدف بصراحة فقال: "ولولا ما أرجو من عون الله على اتمامه، إذ كنت لم ألتمس به إلا إفهامك مواقع الحجج لله، وتصاريف تدبيره، والذي أودع أصناف خلقه من أصناف حكمته، لما تعرضت لهذا المكروه".(٥)

ويضاف إلى ذلك أهداف أخرى ، فربما جاء كتاب الحيوان للرد على كتاب الحيوان لأرسطو، أو لعل شعور الجاحظ، بأن الكتب التي ألفت في الحيوان قاصرة ومحدودة دفعه لتأليف هذه الموسوعة الضخمة ليستدرك من خلالها الكثير مما فاتهم في هذا المضمار.

---

(١) منهم: مصطفى الدقاق، **ملامح من النثر العباسي**، دار الشروق العربي، بيروت، ص ١٨٤-١٩٠. أحمد حماد الحسيني، مقال (كتاب الحيوان للجاحظ)، **مجلة تراث الإنسانية**، ج٢، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٢١٥-٢٢٧. ومصطفى ناصف، **محاورات مع النثر العربي**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٧، ص ٦٣-٩٧.

(٢) شوقي ضيف، **العصر العباسي الثاني**، ط٢، دار المعارف بمصر، (د. ت)، وجميل جبر، **الجاحظ حياته وآدابه وفكره**، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، ١٩٥٩. وفيكتور شلحت، **النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ**، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤. وحسن السندوبي ، **أدب الجاحظ**، ط١، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٣١، ومحمد عبدالمنعم خفاجي، **أبو عثمان الجاحظ**، دار الطباعة المحمدية، القاهرة.

(٣) طه الحاجري، **الجاحظ حياته وآثاره**، ط٣، دار المعارف بمصر، ص ٣٩٧.

(٤) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، (ت: ٢٥٥هـ/٨٦٩م)، **الحيوان**، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت،(د.ت.)، ج٤، ص ٢٠٨.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٩.

أو لربما جاء به ليقترب من القارئ ويبني علاقة جديدة معه مغايرة عن التي كانت في مؤلفاته الأخرى فهو كتاب للعامة والخاصة على السواء.

يعد كتاب الحيوان من المؤلفات الكبيرة في !لحجم، الغنية بالمعرفة والعلم، فقد وقع في سبعة أجزاء كما أشار صاحبه.(١)

فأما الجزء الأول: فقد صدره بمقدمة كانت ردا على كل من انتقد كتاب الحيوان والكتب السابقة عليه التي زادت عن الأربعين كتابا. وجاءت بيانا لفائدة الكتابة والكتاب. ثم أورد بابا لحالة الإنسان قبل الخصاء وبعده، وذكر ما جاء في خصاء الدواب، ثم شرع في الحديث عن الكلب والديك حتى نهاية الجزء.

وأما الجزء الثاني: فكان تتمة للحديث عن الكلب والديك.

وأما الجزء الثالث: فقد دار حول الحمام، والهدهد، والرخم، والغراب، والذباب، والجعلان .....، بالإضافة إلى أبواب أخرى تناولت خصال الحرم، وصدق الفطن وجودة الفراسة، والمدح في الجمال وغيره.

وأما الجزء الرابع: فتناول فيه الذرة والنمل، والأفاعي، والقرد، والخنزير، والظليم، ثم تحدث عن النيران.

وأما الجزء الخامس: فتحدث عن النيران، وعرض لنظرية الكمون، وجاء بباب في السر وآخر في المنى، وتناول فيه أيضا عددا من الحيوانات كالعقرب والنحل والجراد والسنور والفأر والعنكبوت والحبارى والقراد والضفدع والضأن والماعز.

وأما الجزء السادس: ففيه تفسير لقصيدة البهراني وقصيدتين لبشر بن المعتمر في الحيوان، بالإضافة إلى أحاديث عن الضب والقنفذ والأرنب والضبع، وأبوابا أخرى في الجبن، والجان.

وأما الجزء السابع: فقد دار حول إحساس أجناس من الحيوان، وتضمن شروحا عن الفيل وحيوانات أخرى، وتلخيصا لما استدل به على قدرة الله عز وجل.

يتبين مما تقدم أن كتاب الحيوان يشكل موسوعة علمية كبيرة شملت مادة غزيرة تركزت حول الحيوانات بشكل خاص، فتناولتها من زوايا عديدة فعرضت لأحوالها، وصفاتها، وطباعها، وأعمالها.

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٧، ص٩.

واحتوى كذلك على موضوعات تتصل بالإنسان، لكنها أقل بكثير من سابقاتها، غير أن وجودها مرتبط بتلك الموضوعات في أغلب الأحيان، فحين تحدث عن الصرع عند الحيوان، تطرق إليه عند الإنسان.[١]

وتضمن كذلك موضوعات دينية ومسائل كلامية وفلسفية، نحو: الطيرة،[٢] والقول في تحريم الخنزير،[٣] وعذاب الحيوان والأطفال،[٤] والاستطاعة،[٥] والمعرفة والاستدلال،[٦] ونقد النظام لبعض مذاهب الفلاسفة.[٧]

وثمة مادة لغوية واسعة ظهرت فيه من خلال الاستطراد من حين لآخر، بالإضافة إلى موضوعات أخرى كضرورة حذق اللغة للعالم والمتعلم،[٨] ووجوه تصغير الكلام.[٩]

وفيه قضايا بلاغية ونقدية تمثل أغلبها رأي الجاحظ، مثل: السماع والكتابة،[١٠] والترجمة والمترجم،[١١] والبيان ووسائله،[١٢] والاطناب والإيجاز،[١٣] واختيار الألفاظ وصوغ الكلام،[١٤] والقول في اللفظ والمعنى.[١٥]

ويضاف إلى ذلك مسائل طبية وجغرافية وطبيعية..... وأخرى كثيرة، يضيق المقام لذكرها هنا، غير أنه من الهام جدا الإشارة إلى أن معظم موضوعات كتاب الحيوان عبارة عن خواطر وشذرات وأفكار جزئية، فقلما نعثر فيه على قضايا طرحت بعمق.

ومع ذلك فكتاب الحيوان على قيمة علمية عالية، وفكرية رفيعة، استمدها من الكم الهائل من المعلومات التي قدمها للقراء، والمرونة الأدبية الرفيعة التي بدت في أسلوبه بخلاف مؤلفات الجاحظ الأخرى، فلفت أنظار الدارسين قديما وحديثا، فنهلوا منه على شتى مستوياتهم ومختلف مجالاتهم، وتأثروا به في كتاباتهم. فأفاد منه العالم، والمفكر، والفيلسوف، والأديب، والناقد،

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٢، ص ٢٢٤-٢٢٦.
(٢) المصدر السابق، ج٣، ص ٤٤٠.
(٣) المصدر السابق، ج٤، ص ٧٤.
(٤) المصدر السابق، ج٣، ص ٣٩٣.
(٥) المصدر السابق، ج٢، ص ١٤٥، ١٩٠.
(٦) المصدر نفسه، ص ١١٥.
(٧) المصدر السابق، ج٥، ص ٤٧.
(٨) المصدر السابق، ج١، ص ١٥٣.
(٩) المصدر نفسه، ص ٣٣٦.
(١٠) المصر نفسه، ص ٥٥.
(١١) المصدر نفسه، ص ٧٥.
(١٢) المصدر نفسه، ص ٣٣.
(١٣) المصدر السابق، ج٦، ص٧.
(١٤) المصدر السابق، ج٣، ص ٣٦٧.
(١٥) المصدر نفسه، ص ١٣١.

وعالم الأحياء، والبيطري.

لم يختلف كتاب الحيوان عن مؤلفات الجاحظ الأخرى كثيرا في الاسلوب الذي سنعرض لأهم خصائصه:

١- النزعة الاعتزالية:

كلنا يعرف أن الجاحظ كان اعتزاليا وأثر ذلك في كتبه المختلفة بطبيعة الحال، وخاصة كتاب الحيوان، وتجلى ذلك بمظاهر عديدة:

أ – الوسطية:

لقد مزج الجاحظ بين الموضوعات الجادة والموضوعات الهزلية في كتبه، حتى لا تكون مادته على سمت واحد، فيصعب على القارئ هضمها.

وإلى جانب ذلك توسط في أسلوبه، وطرحه، فقد أودع كتابه مادة معرفية متنوعة، راعى فيها مستويات الناس وأذواقهم، ونسجه بأسلوب توخى فيه الألفاظ السهلة، والعبارة القريبة منهم، حتى ينشره بينهم، فقد أراده لجميع الناس بمختلف ثقافاتهم، وأعراقهم، يقول: "وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربيا أعرابيا، وإسلاميا جماعيا، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وجدان الحاسة، وإحساس الغريزة. ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب كما يشتهيه المجد ذو الحزم، ويشتهيه الغفل كما يشتهيه الأريب، ويشتهيه الغبي كما يشتهيه الفطن."[١]

ب – المنهج الجدلي:

الذي تجلى في عرض العديد من الموضوعات بأسلوب المحاججة، والحوار، والاستدلال على الافكار وافتراض الخصم. فكثرت فيه الموضوعات التي جاءت على منوال المناظرة.[٢]

ج – القول في الشيء وضده:

لقد تفنن الجاحظ في كتاب الحيوان في الحديث عن الأشياء بمختلف جوانبها بأسلوب موحد لم يتطرق إليه الضعف أو التدني، فقد تناول العديد من الحيوانات من زوايا عديدة، وأبان

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص ١١.
(٢) مثال ذلك: نظرية الكمون، ورد النظام على الدهرية ...المصدر السابق، ج٥، ص٦-٨٧.

عن محاسنها، ومساوئها، وكأنها كل لا يتجزأ.

٢- الجذب والتشويق:

حرص الجاحظ على القارئ في كتاب الحيوان أكثر من مؤلفاته الأخرى، فعمل على جذبه وشد انتباهه، وترغيبه بأساليب متنوعة منها:

أ- التنويع في محتويات الكتاب، وأشكاله التعبيرية:

وهو يشكل حاجة ملحة للمتلقي، فهو يسهم في استيعابه، ودفع الملل والسأم عنه، ورفع همته، وأدرك الجاحظ ذلك، فعمل به ونبه إليه، فقال: وعلى أني قد عزمت - والله الموفق- أني أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه، بنوادر من ضروب الشعر، وضروب الأحاديث، ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب، ومن شكل إلى شكل؛ فإني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة، والأغاني الحسنة، والأوتار الفصيحة، إذا طال ذلك عليها. وما ذلك إلا في طريق الراحة، التي إذا طالت أورثت الغفلة.(١)

ويخاطب قارئ الحيوان قائلا: "وما عندي لك من الحيلة إلا أن أصوره لك في أحسن صورة، وأقلبك منه في الفنون المختلفة، فأجعلك لا تخرج من الاحتجاج بالقرآن الحكيم إلا إلى الحديث المأثور، ولا تخرج من الحديث إلا إلى الشعر الصحيح، ولا تخرج من الشعر الصحيح الظريف إلا إلى المثل السائر الواقع، ولا تخرج من المثل السائر الواقع إلا إلى القول في طرف الفلسفة، والغرائب التي صححتها التجربة، وأبرزها الامتحان، وكشف قناعها البرهان، والأعاجيب التي للنفوس بها كلف شديد، وللعقول الصحيحة إليها النزاع القوي.(٢)

ب - الاستطراد

حفل كتاب الحيوان باستطرادات لغوية وموضوعية كثيرة جدا عملت على تفكيك الكتاب وتشتيت معناه في أغلب الأحيان، لكن بعضها كان صحيا فزاد في توضيح المعلومة وتفسيرها. (وقد عمد إليه الجاحظ واتخذه مذهبا في كتاباته لعدم الإطالة على القارئ حتى يظل نشيطا ومقبلا على كتاباته.) (٣)

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٣، ص٧.
(٢) المصدر السابق، ج٥، ص ١٥٦.
(٣) شوقي ضيف، **العصر العباسي الثاني**، مرجع سابق، ص ٥٩٤.

٣- الخلط التأليفي :

يخلو كتاب الحيوان من أي مظهر تنظيمي قائم على حسن الترتيب والتبويب والتقسيم، فقد خلط الكاتب بين مواده، حتى أن بعض الموضوعات، جاءت متفرقة الإجزاء فتداخلت في بعضها، واضطربت فيما بينها.(١)

والتمس الجاحظ العذر من القارئ لوجود ذلك وغيره من الهنات مبينا الموانع التي حللت بينه وبين بلوغ الغاية في هذا الكتاب، بقوله: "وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرداة فيه، أول ذلك العلة الشديدة، والثانية قلة الأعوان، والثالثة طول الكتاب، والرابعة أني لو تكلفت كتابا في طوله، وعدد ألفاظه ومعانيه، ثم كان من كتب العرض والجوهر، والطفرة، والتولد، والمداخلة، والغرائز والتماس، - لكان أسهل وأقصر أياما، وأسرع فراغا، لأني كنت لا أفزع فيه إلى تلقط الأشعار، وتتبع الأمثال، واستخراج الآي من القرآن، والحجج من الرواية، مع تفرق هذه الأمور في الكتب، وتباعد بين الأشكال. فإن وجدت فيه خللا من اضطراب لفظ، ومن سوء تأليف، أو من تقطيع نظام، ومن وقوع الشيء في غير موضعه - فلا تنكر، بعد أن صورت عندك حالي التي ابتدأت عليها كتابي.(٢)

٤- التكرار:

لقد شاع التكرار في الحيوان، لكونه أملي إملاء، ورغبة من الجاحظ في تأكيد المعنى. وشمل ذلك الموضوعات(٣) والأفكار الجزئية،(٤) فقد تناول بعض الحيوانات من خلال جزئية معينة في غير موضع من الكتاب، والأشكال التعبيرية، وخاصة الأمثال(٥) والأشعار.(٦)

وأما مصادره:

فهي متنوعة ومتعددة، من الصعوبة بمكان ذكرها هنا جميعا، فضلا عن أن الجاحظ، لم يصرح بتلك المصادر في بعض الأحيان، لكنا سنأتي على أهمها وأبرزها في هذا المقام:

---

(١) مثال ذلك القول في استراق السمع، الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٦، ص٢١١-٢١٧، ٢٣٠-٢٣١، ٢٦٤-٢٨١، ٤٩٦-٥٠١.

(٢) المصدر السابق، ج٤، ص ٢٠٨-٢٠٩.

(٣) فمثلا تناول حيوانا بعينه في غير موضع من الكتاب بشيء من التكرار.

(٤) مثال ذلك، قول زرادشت في خلق السنور والفأر، المصدر السابق، ج٤، ص ٢٩٨. ج٥، ص ٣١٩.

(٥) يراجع فهرس الأمثال، المصدر السابق، ج٨، ص٦.

(٦) يراجع فهرس الأشعار، المصدر نفسه، ص١٦.

١- القرآن والسنة:

لقد حرص الجاحظ على الأخذ من الكتاب[١] والسنة[٢] في تأليف الحيوان من خلال الاستشهاد بهما والتأويل والشرح لهما في مواضع عديدة من الكتاب.

٢- التراث العربي:

اعتمد الجاحظ على هذا المصدر بشكل رئيسي في كتاب الحيوان، فضمنه مجموعة من الأخبار والآثار والأمثال والحكايات والأرجاز والأشعار التي تناقلها العرب، فشكل السواد الأعظم من الكتاب.

وعلل الجاحظ حرصه على النقل عن معلومات الأعراب في الحيوانات وثقته بذلك قائلا:" وقل معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة، وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين- إلا ونحن وجدناه أو قريبا منه في أشعار العرب والأعراب، وفي معرفة أهل لغتنا وملتنا. ولولا أن يطول الكتاب لذكرت ذلك أجمع. وعلى أني قد تركت تفسير أشعار كثيرة، وشواهد عديدة مما لا يعرفه إلا الراوية والنحرير؛ من خوف التطويل.[٣]

وبرر اعتماده على معرفتهم في الوحش، بمعرفتهم له، وقربهم منه، فهو ينزل الأودية والصحاري والبراري والقفار.[٤]

وإلى جانب ذلك أفاد من الكتب العربية التي سبقت كتابه،

٣- المعتزلة والمتكلمون:

أفاد الجاحظ في كتابه من هذه الفئة التي كان ينتمي لها ومن مذهبها، فأورد جانبا من منازعاتهم وعددا من أقوالهم، وروى لمشاهيرهم كالنظام والعلاف وبشر بن المعتمر، الذي فسر له قصيدتين حول الحيوان.[٥]

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص٢٠٨. ج٢، ص١١٠. ج٤، ص٥٦، ٢٨٧، ٤٦٣.
(٢) المصدر السابق، ج٤، ص ٣٠٥. ج٥، ص ٢٦٩، ج٦، ص ٢٢٣.
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦٨.
(٤) المصدر السابق، ج٦، ص٢٩.
(٥) المصدر ذاته، ص ٢٨٤وما بعدها.

٤- التراث الأعجمي:

لم يقتصر الجاحظ في نقله مواد الحيوان على الثقافة العربية بل تعداها إلى الثقافات الأخرى، فأخذ عن كتاب الحيوان لأرسطو،(١) وعن الفلاسفة اليونان،(٢) وعن أفليمون صاحب الفراسة،(٣) وأورد آراء وأقوالا للفرس،(٤) وأخذ من الهند.(٥)

ومما يجدر ذكره أن معظم المنقولات عن العجم في هذا الكتاب عبارة عن أقوال وآراء أوردها الكاتب لمناقشتها والرد عليها.

٥- مصادر ذاتية

يمتلك الجاحظ عقلية متميزة وشخصية شعبية، ودائرة معلومات أسهمت في إثراء مادة الحيوان، فقد نقل لنا فيه بعضا من خبراته الشخصية وتجاربه، فقد روى تجربته في الخنفساء،(٦) وحدثنا عن تجربته في الأفاعي بقوله: "والأفاعي تكره ريح السذاب والشيح وتستريح إلى نبات الحرمل على حد زعم بعضهم، وأما أنا فإني ألقيت على رأسها وأنفها من السذاب ما غمرها فلم أر على ما قالوا دليلا".(٧) وأخبرنا عن تجربته مع الذباب حين ألح عليه.(٨)

وساق لنا عددا من مشاهداته الذاتية، فقال: "وأنا رأيت طائرا له صوت غير حسن، فقال لي صاحب الطير، إنه من نتاج ما بين القمري والفاختة".(٩) وروى لنا ما شاهده في بيت ابن أبي كريمة.(١٠)

يتبين مما تقدم أن الجاحظ أخذ من المصادر الشفاهية والكتابية على حد سواء، فكما كان ينقل من المؤلفات كان يتصل بالناس على مختلف مستوياتهم، للإفادة منهم، دون تحرج أو تردد.

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٥، ص ٢٢٠. ج٣، ص ١٣٧. ج٧، ص ١٢٤، ٢٢٦.
(٢) المصدر السابق، ج١، ص ٩٨.
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص ١٤٦، ٢٦٩، ٢٨٤.
(٤) المصدر السابق، ج١، ص١٥٢. ج٧، ص ١٨١.
(٥) المصدر نفسه، ص٢٢٦، وانظر كذلك باب ما يدخل في ذكر الفيل، المصدر نفسه، ص ٧٩-٢٣٩.
(٦) المصدر السابق، ج٣، ص٣٤٩.
(٧) المصدر السابق، ج٦، ص ٣٩٩.
(٨) المصدر السابق، ج٣، ص ٣٤٦.
(٩) المصدر السابق، ج١، ص ١٤٤.
(١٠) المصدر السابق، ج٣، ص ٣٤٩-٣٥٠.

الفصل الأول

الأشكال التعبيرية النثرية في كتاب الحيوان

دراسة موضوعية

أولا- الحكاية.

ثانيا- المثل.

ثالثا- المناظرة.

أولا – الحكاية

تعريفها:

يفيد المدلول اللغوي لكلمة الحكاية التشبيه والتقليد. حكيت فلانا وحاكيته : فعلت مثل فعله، أو قلت مثل قوله. والحكاية: المشابهة. تقول: فلان يحكي الشمس حسنا، أي يشبهها.(١)

وأما في الاصطلاح : فهي "استعمال الكلمة بنقلها من المكان الأول إلى المكان الآخر، مع استبقاء حالها الأولى وصورها".(٢) وقيل: هي: "إيراد اللفظ على استيفاء صورته الأولى، وقيل: الإتيان بمثل الشيء".(٣)

"والحكاية استرجاع الواقع، أو ما يتصور أنه الواقع بواسطة الكلمة".(٤)

ولم يكن للحكاية في ذهن الجاحظ معنى محدد، فقد جاءت في كتاب الحيوان بمعنى الملحة،(٥) وجاءت بمعنى النادرة،(٦) وجاءت بمعنى الحديث.(٧)

ونستخلص مما سبق من التعريفات أن الحكاية: وحدة سردية مكثفة تسترجع الأحداث المتعلقة بالشخصيات في الحقيقة والخيال، بأسلوب أدبي رفيع، سهل يبتعد عن التعقيد.

---

(١) جمال الدين محمد بن منظور، (ت:٧١١هـ/١٣١١م)، **لسان العرب**، ط٢، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٩٣، مادة حكى.

(٢)علي بن محمد الشريف الجرجاني(ت: ٨١٦هـ، ١٤١٣م)، **التعريفات**، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥، ص ٩٦.

(٣)أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، (ت:١٠٩٤هـ/١٦٨٣م) **الكليات**، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢، ص ٤٠٩.

(٤)عبد الحميد يونس، **الحكاية الشعبية**، دار الكتاب العربي، ١٩٦٨، ص ٥.

(٥)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٢،ص٢٠١. ج٥، ص ٢٤١، و ج ٦، ص ٢٥٩.

(٦)المصدر السابق، ج ١، ص ١٨٩.

(٧)المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٨، وجاء ببعضها تحت عنوان "أحاديث من أعاجيب المماليك"، ج ٦، ص ٤٨٤.

موضوعاتها :

سلطت الحكايات في كتاب الحيوان الضوء على موضوعات عديدة، حظيت باهتمام متفاوت، بناء على أهمية كل منها وارتباطها بمضمون الكتاب ومادته، ومن أهمها:

١- الموضوعات التاريخية:

لم تحظ الموضوعات التاريخية باهتمام الحكايات في هذا الكتاب، إلا أنها تناولت ملامح من التأريخ السياسي للأحداث والشخصيات في عصور مختلفة، غير أنها لا تقوى على تقديم صورة ولو عامة عن أي من تلك العصور، ولا عن أي حدث أو شخصية تناولتها، ولعل السبب في ذلك عائد لقلتها، وسرعة تناولها للأحداث والشخصيات.

فأشارت إلى حروب ومنازعات في الأمم المختلفة. فقد تحدثت إحداها عن ملكين طلب أحدهما ملك صاحبه، وكان المطلوب أكثر مالا، وأقل رجالا، وأخصب أرضا، وكانت المسافة بينهما بعيدة، إلا أن المطلوب بحكمته استطاع التغلب عليه، وغزوه في عقر داره، فأظهر له الود والمحبة وأرسل إليه الهدايا، ودس من ثقاته بين رجاله، وأمرهم بتوطين الحمام كما فعل هو كذلك. وأمرهم بمكاتبته بخبر كل يوم، وتعليق الكتاب في أصول أجنحة الحمام. ولما كانت الفرصة مواتية للغزو، أرسل له أصحابه، فجهز جيشه على الفور، وأخذ ذلك الملك على حين غرة، واستولى على أرضه وتخلص منه.(١)

وبينت أخرى عداء الروم للعرب، وطمعهم في بلادهم، وقد قوي هذا الشعور في نفوسهم يوم أن اشتعلت الفتنة بين عبد الملك بن مروان وبين مصعب بن الزبير، فقد اجتمع وجوه الروم إلى ملكهم فأشاروا عليه بضرب العرب واحتلال أرضهم، فقد وقع بأسهم بينهم وتفرقوا، فلا تدع الفرصة تفوتك حتى تنقضي الحرب بينهم، فيجتمعوا عليك، إلا أنه خالف رأيهم، ولم يغز إذ ذاك لعلمه باتحادهم الفوري إذا ما داهمهم.(٢)

وقد أشارت أخرى إلى اضطراب العلاقة بين الأمويين وبين بني باهلة، فكما بدا منها، لم يكن معاوية راضيا عنهم، فقد لمس ذلك من قوله لأبي هوذة بن شماس الباهلي: "لقد هممت أن أحمل جمعا من باهلة في سفينة، ثم أغرقهم". فارتفعت وتيرة الحوار بينهما، فقام معاوية، فقتل الرجل.(٣)

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٨٤-٢٨٦.
(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٧٢-١٧٣.
(٣) المصدر ذاته، ج ٣، ص ٤٢٧-٤٢٨.

وقد تحدثت الحكايات عن الصراع الذي دار بين الأمين وبين المأمون على السلطة، وانتهى بخلع الأول وانتصار الآخر.(١)

وتعرضت لوقائع تختص بالشخصيات المهمة، فنوهت بوفاة الحجاج، وشعوره بدنو أجله.(٢)

وعن مقتل المهندس سنمار. "قال بعض العرب في قتل بعض الملوك لسنمار الرومي، فإنه لما علا الخورنق ورأى بنيانا لم ير مثله، ورأى في ذلك المستشرف خاف إن هو استبقاه أن يموت فيبني مثل ذلك البنيان لرجل آخر من الملوك، فرمى به من فوق القصر".(٣)

ويمكن إدراج الحكايات التي بينت الأحداث والمناسبات التي نسجت حولها الأمثال في سياق الحكايات التاريخية، فقد روي "أن نشيطا كان غلاما لزياد بن أبي سفيان وكان بناء، هرب قبل أن يشرف دار زياد، و كان لا يرضى إلا عمله، فقيل له : لم لا تشرف دارك ؟، قال: "حتى يجيء نشيط من مرو"، فصار مثلا لكل ما لا يتم".(٤)

وقال ابن الكلبي مبينا مناسبة قولهم "شنشنة أعرفها من أخزم" : "إنه لأبي أخزم الطائي، وهو جد أبي حاتم أو جد جد، وكان له ابن يقال له أخزم، وقيل : كان عاقا، فمات وترك بنين فوثبوا يوما على جدهم أبي أخزم فأدموه، فقال :

إن بني ضرجوني بالدم شنشنة أعرفها من أخزم ".(٥)

٢ – الموضوعات الفكرية :

هناك حكايات في كتاب الحيوان يطفو على مضامينها الطابع الفكري والذهني، وجاءت على نمطين:

أ– فمنها ما تناول الأذكياء والعقلاء، فعنيت بأخبارهم وبينت مظاهر تفكيرهم ومنطقهم وألمعيتهم، وأورد الجاحظ أربع حكايات لهذا الغرض في موضع واحد تحت "باب من الفطن وفهم الرطانات والكنايات والفهم والإفهام".(٦)

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٥، ص ٣٨١–٣٨٢.
(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٤.
(٣) المصدر ذاته، ص ٢٣.
(٤) ورد المثل في **الحيوان**، ج ٢، ص ٣١٨. وأبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني، (ت ٥١٨هـ/١١٢٤م)، **(مجمع الأمثال)**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار النصر، دمشق، ج ١، ص ٢١٦.
(٥) المصدر نفسه، ص٣٦١، و**الحيوان**، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٣٥.
(٦) المصدر السابق، ص ج٣، ص ١٢٢–١٢٥.

وهي تمثل صورة الفكر الراقي والمستنير، ومنها حكاية الأسير النـــحرير مـــن بنـــي العنبر، فحين كان أسيرا استطاع إنقاذ قومه بذكائه وألمعيته الشديدة بذلك الخطاب الملغـــز الـــذي أرسله إليهم على مرأى ومسمع من بني شيبان، بوساطة رسول منهم، فلـــم يســـتطع فهمـــه إلا صديقه حارث، الذي نصح قومه بالابتعاد عن المضارب، لأن بني شيبان يتجـــهزون لغزوهـــم، وبالفعل جاءوا يطلبونهم فوجدوهم قد رحلوا.(١)

وثمة حكاية تحدثت عن ذكاء تلك المرأة وحسن تفكيرها حيث نجت بحيلتها الذكية مـــن اللصوص، هي وأمـــتـــها، على الرغم من وحدتها وضعفها. قـــال الأصمعـــي: "كـــانت امـــرأة [تنزل] متنحية من الحي، وتحب العزلة، وكان لها غنم، فطرقها اللصـــوص، فقـــالت لأمتـــها : اخرجي من ها هنا .[قالت: ها هنا] حيان، والحمارس، وعامر والحارث، ورأس عـــنز وشـــادن. راعيا بهمنا، [فنحن ما أولئك. أي : فنحن أولئك] فلما سمعوا ذلك ظنوا أن عندها بنيـــها. وقـــال الأصمعي مرة : فلما سمعت حسهم قالت [لأمتها] : أخرجي سلح بني من هـــا هنـــا. قـــال : ... وحيان والحمارس: أسماء تيوس لها".(٢)

ب- ومنها ما تناول مظاهر الإسفاف الفكري في المجتمع، ولدى بعـــض الشـــخصيات، حيث تحدثت عن بعض المتعالمين وغرابة تفكيرهم وتعصبـــهم الأعمـــى، دون الارتكـــاز إلـــى أرضية صلبة، أو الاستناد إلى دليل، وأفضل مثال على ذلك حكاية الشيخ الإباضي الـــذي كـــره الشيعة لحجة واهية سخيفة، وهي أن أول كلمة الشيعة حرف الشين، فلم يوجد في أول كلمـــة إلا وهي مسخوطة، مثل شؤم، وشر، وشراسة، وشوكة!(٣) وكذلك أبو عبد الله الكرخي الذي ادعـــى الفقه.

يقول الجاحظ: "فمن الاحتجاجات الطيبة، ومن العلل الملهية، ما حدثني به ابن المدينـــي، قال: تحول أبو عبد الله الكرخي اللحياني إلى الحربية، فادعى أنه فقيه، وظن أن ذلك يجـــوز لـــه لمكان لحيته وسمته. قال: فألقى على باب داره البواري، وجلس [وجلس] إليه [بعض] الجـــيران، فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله ! رجل أدخل إصبعه في أنفه فخرج عليها دم، أي شيء يصنـــع ؟! قال : يحتجم، قال: قعدت طبيبا أو قعدت فقيها ؟".(٤)

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٣، ص ١٢٤-١٢٥.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٢-١٢٣.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٢.
(٤) المصدر نفسه، ص ٧-٨.

وتعرضت الحكايات لأخبار المجانين والمعاتيه والحمقى، وتحدثت عن طرافة تفكيرهم وغرابة أفعالهم، حيث تطرقت إلى عقولهم أمور تومئ بالجهل تارة، وبالطرافة والاستهجان تارة أخرى.

وقد تجلى ذلك في سؤال الممرور لأبي يوسف " .... [قال]: أتأذن لي في أخرى ؟ قال: أخبرني عنك إذا أتيت صحراء فهجمت على بول وخراء، كيف تعرف أبول امرأة هو أم بول رجل ؟ قال : والله ما أدري ...، قال: أفتعرف أنت ذلك ؟ قال: نعم، إذا رأيت البول قد سال على الخراء وبين يديه فهو بول امرأة وخراء امرأة، وإذا رأيت البول بعيدا من الخراء فهو بول رجل وخراء رجل. قال: صدقت !"[١]

وجاء أبو سيف الممرور إلى المسجد، وأقسم بالله أمام الناس أن الخرء حلو ثلاثا، فقيل له: كيف عرفت ذلك ؟ فقال : رأيت الذباب يسقط على النبيذ الحلو، ولا يسقط على الحامض، ويقع على العسل، ولا يقع على الخل، وأراه على الخرء أكثر منه على التمر، أفتريدون حجة أبين من هذا ؟![٢]

وقد تناولت الحكايات نماذج من أفعالهم الغريبة، "فقد كان رجل ممرور يقوم كل يوم فيأتي دالية القوم، ولا يزال يمشي مع رجال الدالية على ذلك الجذع، ذاهبا وجائيا، في شدة الحر والبرد، حتى إذا أمسى نزل إليهم وتوضأ وصلى. وقال : اللهم اجعل لنا من هذا فرجا ومخرجا! ثم انصرف إلى بيته، فكان كذلك حتى مات".[٣]

ومن عجيب صنيعهم ما حدث به سعيد بن مسلم قال: "كنا بخراسان في منزل بعض الدهاقين ونحن شباب، وفينا شيخ. قال: فأتانا رب المنزل بدهن طيب، فدهن بعضنا رأسه، وبعضنا لحيته، وبعضنا مسح شاربه، وبعضنا مسح يديه، وأمرهما على وجهه، وبعضنا أخذ بطرف إصبعه فأدخل في أنفه ومسح به شاربه، فعمد الشيخ إلى بقية الدهن فصبها في أذنه، فقلنا

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٣، ص ١١-١٢.
(٢) المصدر ذاته، ص ٣٦٠.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠.

له : ويحك، خالفت أصحابك كلهم ! هل رأيت أحدا إذا أتوه بدهن طيب صبه في أذنه ؟ قال : فإنه مع هذا يضرني ؟"[١]

ومن نوادر الحمقى التي جاءت بها الحكايات ما حدث به زيد عن مولاة عيسى بن علي، قال: "وكانت لعيسى بن علي عجوز خراسانية، تصرخ بالليل من ضربان ضرس لها، فكانت قد أرقت الأمير إسحاق، فقلت له : إنها مع ذلك لا تدع أكل التمر ! قال : فبعث إليها بالغداة، فقال لها: أتأكلين التمر بالنهار وتصيحين بالليل ؟ فقالت : إذا اشتهيت أكلت وإذا أوجعني صحت!"[٢]

"ويصور الجاحظ بعض الحكايات تصويرا ساخرا بسذاجة الفكر الشعبي الغالب في مجتمعه، وإيمان كثير من الناس بالخرافات، مما يتيح الفرصة للمشعوذين لخداعهم وابتزازهم كالإيمان بالرقية مثلا".[٣] وقد تجلى ذلك بعدد من الحكايات.

"قال أبو الحسن : كان واحد يسخر بالناس، ويدعي أنه يرقى من الضرس إذا ضرب على صاحبه. فكان إذا أتاه من يشتكي ضرسه قال له إذا رقاه : إياك أن تذكر إذا صرت إلى فراشك القرد، فإنك إن ذكرته بطلت الرقية !، فكان -إذا أوى إلى فراشه- أول شيء يخطر على باله ذكر القرد، ويبيت على حاله من ذلك الوجع، فيغدو إلى الذي رقاه، فيقول له : كيف كنت البارحة ؟ فيقول : بت وجعا ! فيقول : لعلك ذكرت القرد ! فيقول : نعم ! فيقول : من ثم لم تنتفع بالرقية !"[٤]

وقد اصطادت شباك المشعوذين سكرا الشطرنجي، الذي كان يتصف بالجهل، فقد وقف "على الحواء وقد أخرج من جونته أعظم حيات في الأرض، وادعى نفوذ الرقية وجودة الترياق، فقال له سكر: خذ مني هذا الدرهم وارقني رقية لا تضرني معها حية أبدا "قال : فإني أفعل. قال : فأرسل قبل ذلك حية، حتى ترقيني بعد أن تعضني، فإن أفقت علمت أن رقيتك صحيحة. قال : فإني أفعل، فاختر أيتهن شئت. فأشار إلى واحدة مما تعض للأكل دون السم، فقال : دع هذه، فإن هذه إن قبضت على لحمك لم تفارقك حتى تقطعك. قال : فإني لا أريد غيرها. وظن أنه إنما زواها عنه لفضيلة فيها. قال: أما إذ أبيت إلا هذه فاختر موضعا من جسدك حتى أرسلها عليه. فاختار أنفه، فناشده وخوفه، فأبى إلا ذلك الموضع أو يرد عليه درهمه. فأخذها الحواء وطواها على يده، كي لا يدعها تتكز فتقطع

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٣، ص ٣٢-٣٣.
(٢) المصدر ذاته، ص ٣١.
(٣) توفيق عبدالكريم أبو الرب، **الحكاية في أدب الجاحظ**، رسالة جامعية غير منشورة، كلية الآداب، جامعة اليرموك، ١٩٨٤، ص ٨٣.
(٤) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٤، ص ٦٥.

أنفه من أصله، ثم أرسلها عليه، فلما أنشبت أحد نابيها في أنفه صرخ عليه صرخة جمعت عليه أهل تلك البلدة، ثم غشي عليه، فأخذ الحواء فوضع في السجن، وقتلوا تلك الحيات، وتركوه حتى أفاق كأنه أجن الخلق، فتطوعوا بحمله فحملوه مع المكاري، وردوه إلى البصرة، وبقي أثرها في أنفه إلى أن مات."[١]

ونموذج آخر للمشعوذين الذين يجدون فريستهم بين الأغبياء والسذج من الناس، إنه أبو حكيم الذي غرر بابن سافرى، وأوهمه بقدرته على طرد البعوض من بيته بوساطة العمار، مقابل خمسين دينارا يدفعها له، إلا أنه أخذ الدنانير ولم يفعل شيئا. وغدا ابن سافرى أضحوكة بين الناس، وضحية ذلك المشعوذ.[٢]

وروت الحكايات كيف استخف مسيلمة الكذاب بعقول قومه، وأضلهم فآمنوا به من خلال حيله الخبيثة، التي تمكنت منهم، ومن ذلك خديعة البيض، فقد صب على بيضة خلا شديد الحموضة، أطال إنقاعها فيه، حتى لانت قشرتها العليا، فتمددت واستطالت واستدقت، فلما تم له فيها ما حاول طواها، ثم أدخلها قارورة ضيقة الرأس، وتركها حتى جفت ويبست، فلما جفت انضمت، وكلما انضمت استدارت، حتى عادت كهيئتها الأولى، فأخرجها إلى مجاعة، وأهل بيته، وهم أعراب، فادعى بها أعجوبة، وجعلت له آية، فآمن به في ذلك المجلس مجاعة.[٣] وإمعانا في تضليلهم واستخفافا بعقولهم استدرجهم بخدع عديدة كخديعة الحمام، ونزول الملائكة.[٤]

٣ - الموضوعات العلمية :

ثمة حكايات في كتاب الحيوان تحمل في طياتها مجموعة من القضايا العلمية المتعلقة في العديد من الحيوانات، إلا أنه كان للذباب والبعوض والفيل والكلب والأفعى نصيب الأسد في هذه الحكايات بين بني جنسها.

فبينت ملامح من مفرداتها الخلقية، فأشارت إلى جسامة الفيل وكبر أذنيه،[٥]

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٤، ص ١٤٨-١٤٩.
(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٨٥-٣٨٨.
(٣) المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٧٠-٣٧١.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣٧١-٣٧٤.
(٥) المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٠١.

وقدرته على حمل الأثقال،[١] وعلوه.[٢]

وذكرت أن الأفعى من الحيوانات التي تضيء أعينها في الليل.[٣] وأن من الفئران ذا لون أبيض،[٤] ومن الذباب ذا لون أزرق.[٥]

وفي المقابل، بينت الحكايات بعض معالم الإنسان الجسدية، فاهتمت مجموعة منها بتصوير جمال الجواري وحسنهن،[٦] ولفتت إحداها الأنظار إلى ظاهرة فسيولوجية غريبة لدى بعض النساء. فقد ذكرت أنه كان لابنة من بنات محمد بن راشد الخناق لحية وافرة.[٧] وأشارت الحكايات إلى قبح منظر قاسم التمار،[٨] وقبح أنف عيسى بن مروان.[٩]

وعنيت الحكاية ذات الطابع العلمي بعلم النفس الحيواني أيما عناية، "فحملت بعض الدلالات النفسية للحيوان، وكشفت عنها بوضوح وجلاء، وهي أهم نوع من القصص الحيواني في أدب الجاحظ، وأكثرها شيوعا في كتاب الحيوان، وتكاد تكون هذه الحكايات أبرز نوع قصده الجاحظ أصلا، وعول عليه كثيرا في ذكر خصائص الحيوان النفسية".[١٠]

فبينت الحكايات عمق التلاحم والوئام بين أبناء الجنس الواحد من الحيوان وحنوها على بعضها. فثمة حكاية تكشف متانة الصلة وعمق الرابطة والمحبة بين الحمام، وكيف تساعدت على العيش في ظروف عصيبة. حيث كان لبابويه زوج حمام مقصوص وزوج حمام طيار، وفرخان من فراخ الزوج الطيار، فجعل في أعلى سقف الغرفة نقبا ليكون منفذا للحمام، وغاب عنها شهرا، إذ حبسه السلطان، وقد ظن أن الحمام المقصوص هلك، إذ يصعب عليه الطعم والأكل، إلا أنه فوجئ بأن جميع الحمام على ما يرام، ثبتت ولم تتباعد عن بعضها، يقول: "... فخلي سبيلي بعد شهر، فلم يكن لي هم إلا النظر إلى ما خلفت خلفي من الحمام، وإذا الفرخان قد ثبتا، وإذا الزوجان قد ثبتا، والزوجان الطياران ثبتا على حالهما، إلا أنني رأيتهما زاقين، إذ

---

(١) الجاحظ ، **الحيوان** ،مصدر سابق،ج٧، ص ١٩٤.
(٢) المصدر نفسه، ص ٨٠.
(٣)المصدر السابق، ج ٤، ص ١١٦-١١٧.
(٤) المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٣٦.
(٥) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٩٩-٤٠٠.
(٦) المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٥٩-٢٦٤.
(٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٥.
(٨) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٦٢-٢٦٣.
(٩) المصدر نفسه، ص ٢٦٣-٢٦٤.
(١٠) عبد الله أحمد باقازي، **القصة في أدب الجاحظ**، تهامة، المملكة العربية السعودية، ص ١٠٩.

علامة ذلك في موضع الغبب، وفي القرطمتين[١]، وفي أصول المناقر، وفي عيونها فقلت: "فكيف يكونان زاقين مع استغناء فرخيهما عنها ؟! ولا أشك في موت المقصوصين. ثم دخلت الغرفة فإذا هي على أفضل حال، فاشتد تعجبي من ذلك، فلم ألبث أن دنوا إلى أفواه الزوج الكبار يصنعان كما يصنع الفرخ في طلب الزق، ورأيتهما حين زقاهما، فإذا هما لما اشتد جوعهما، وكانا يريانهما يزقان الفرخين ويريان الفرخين كيف يستطعمان ويستزقان، حملهما الجوع وحب العيش، وتلهب العطش وما في طبعهما من الهداية على أن طلبا ما يطلب الفرخ فزقاهما، ثم صار الزق عادة في الطيار، والاستطعام عادة في المقصوص".[٢]

وتحدثت حكاية مماثلة عن عاطفة الأبوة بين عصفور وفرخه، فقد وضع الغلمان فرخ عصفور في قفص، وكان أبوه يعوده باستمرار وحاول عبثا الدخول إليه من الفتحة التي في أعلى القفص، فلما قوي فرخه أرسلوه معه فطارا جميعا.[٣]

وتناولت بعض الحكايات العلاقة الإيجابية بين الإنسان والحيوان وإلفته له. فثمة حكاية تحدثت عن ملازمة الكلب لصاحبه ومدى ارتباطه به، يتبعه أينما يذهب ويدفع عنه الأخطار. "فقد قيل إن رجلا خرج إلى الجبان ينتظر أعداء له يطلبونه بطائلة لهم عنده، وكان معه جاره وأخوه، فأسلماه وهربا عنه، فجرح بجراحات، ورمي في بئر غير بعيدة القعر، ثم حثوا عليه التراب حتى غطى رأسه. وكان كلبه الذي طرده حينما لحق به مريضا في مكان قريب، ينبح ويهمر، فلما انصرفوا أتى رأس البئر، فما زال يزيح التراب عنه بيده حتى ظهر رأسه، فتنفس وردت إليه الروح وقد كاد يموت، فبينما هو كذلك إذ مر أناس فأنكروا مكان الكلب، ورأوه كأنه يحفر عن قبر، فنظروا، فإذا هو بالرجل في تلك الحال، فرفعوه وأخرجوه حيا".[٤]

وتحدثت حكاية أخرى عن العاطفة الجياشة والحنان المتدفق، الذي بدا من الكلبة تجاه ذلك الرضيع، الذي نجا من الطاعون. تقول : "إن طاعونا جارفا جاء على أهل دار، فلم يشك أهل تلك المحلة أنه لم يبق فيها صغير ولا كبير، وقد كان فيها صبي يرتضع ويحبو ولا يقوم على رجليه، فعمد من بقي من المطعونين، من أهل تلك المحلة إلى باب تلك الدار فسده، فلما كان بعد ذلك بأشهر تحول فيها بعض ورثة القوم، ففتح الباب، فلما أفضى إلى عرصة الدار إذا هو بصبي يلعب مع أجراء كلبة، وقد كانت لأهل الدار، فراعه ذلك، فلم يلبث أن أقبلت كلبة

---

(١) قرطمتا الحمام : نفطتان على أصلى منقاره، أي أعلى منقاره.
(٢) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٥٦-١٥٨.
(٣) المصدر ذاته، ص ٣٣١.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٢٢-١٢٣.

كانت لأهل الدار، فلما رآها الصبي حبا إليها، فأمكنته من أطبائها، فمصها، فظنـــوا أن الصغـــير لما بقي في الدار وصار منسيا واشتد جوعه، ورأى أجراءها تستقي مـــن أطبائـــها، حبـــا إليـــها فعطفت عليه، فلما سقته مرة أدامت ذلك له، وأدام هو الطلب."[١]

وعرضت الحكايات لصورة من العلاقة السلبية بين الحيوانات، فأشارت إلى خوفها مـــن بعضها وانقيادها للأقوى. فثمة حكاية عن خنوع الكلاب وانصياعها لكبارها، فقد فشل الجـــاحظ في ردها عنه وإسكاتها عن النباح، بينما تحقق له ذلك حين رأت كلبا دوسرا[٢]غزير الشعر.[٣]

وتناولت الحكايات اضطراب نفسية الحيوان عند هيجه وشدة شهوته عليه، فالجمل وهـــو في الحالة تلك يرغي ويزبد ويهدر ولا يأكل[٤]، والذئب لا يدري ماذا يدور حوله، حتـــى أنـــه لا يبالي بالخطر المحدق به، لشدة هيجه وقوة اشتياقه للسفاد.[٥] والفيل لا يردعه عند اغتلامه ســـوى حديدة تضرب بها جبهتـــه.[٦]

واستعرضت الحكايات أمورا اعتاد عليها الحيوان تدل على قابليته للتعلم، واكتسابه قسطا من الذكاء الفطري، وقدرته على القيام ببعض أفعال الإنسان، فقد استطاع الفرس تعليـــم الفيـــل السجود للملك،[٧] فضلا على فهمه كلام الفيالين الهنود،[٨] وعود الكلب على عدد من الفعال التـــي تدخل السرور على قلب الإنسان، فكان ينبح على كل راكب يدخل الدرب إلى عراقيب برذونـــه، إلا أنه كان إذا رأى محمد بن عبد الملك داخلا إلى باب الدرب أو خارجا منه، لم ينبح البتـــة، لا عليه ولا على دابته، بل كان لا يقف له على باب، ولا على الطريـــق، ولكنـــه يدخـــل الدهلـــيز سريعا، فكان إذا أقبل صاح به الخادم، وأهوى له بالضرب فيدخل الدهليز، وإنه ما فعل ذلك بـــه إلا ثلاث مرار، حتى اعتاد على ذلك.

قال: ".....وكنـــا إذا تغدينا دنا من الخوان فزجرناه مرة أو مرتين ، فكان لا يقربنا،

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٢، ص ١٥٥-١٥٦.
(٢) دوسرا : شديدا ضخما.
(٣) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٥، ص ٤٢١-٤٢٢.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣١٣.
(٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢١٧-٢١٨.
(٦) المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٧٩.
(٧) المصدر نفسه، ص ٢٠٥.
(٨) المصدر نفسه، ص ٢٢٥.

لمكان الزجر، ولا يبتعد عن الخوان لعلـــــة الطعم."[١]

وامتازت بعض الكلاب بقوة الذاكرة والقدرة على تحديد الأشخاص والإحساس بهم عـــن بعد، فقد روي أنه كان جرو كلب وكان له خادم يحسن إليه فغاب عنه أشهرا، فبقيـــت صورتـــه متعلقة في ذهن الكلب، فلما عاد عرفه وبدا عليه السرور.

يقول صديق الجاحظ : "فبينما أنا جالس في الدار، إذ سمعت من قبل باب الدار نباحـــه، فلم أر شـــكل نباحه من التأنب والتعثيث،[٢] والتوعـــد، ورأيت فيه بصبصة السرور وحنيـــن الإلف. ثم لم ألبث أن رأيت الخادم طالعا علينا، وأن الكلب ليلتف على ساقيه، ويرتفع إلى فخذيه، وينظر في وجهه، ويصيح صياحا يستبين فيه الفرح. ... ثم كان بعـــد ذلـــك يغيـــب الشـــهرين والثلاثة، أو يمضي إلى بغداد ثم يرجع إلى العسكر بعد أيـــام، فـــأعرف بذلـــك الضـــرب مـــن البصبصة، وبذلك النوع من النباح أن الخادم قدم، حتى قلت لبعض من عندي: ينبغي أن يكـــون فلان قد قدم، وهو داخل عليكم مع الكلب".[٣]

ونقلت الحكايات تجارب أجريت على الحيوانات، سباعها وبهمها، طيرهـــا وحشـــراتها، وبينت لنا محاولات الاطلاع والتعرف على حقائق الحيوان وأســـراره. (فثمـــة حكايـــة تصـــور شخصا يقصد إلى إجراء بعض التجارب قصدا عليها، لاختبار مـــدى ذكائـــها، وقدرتـــها علـــى التعلـــم عن طريق ما يسمى بالاقتران الشرطي).[٤]

فقد أجرى صديق للجاحظ تجربة على كلب حبسه "في بيت، وأغلق دونـــه البـــاب، فـــي الوقت الذي كان طباخه يرجع فيه من السوق ومعه اللحم، ثم أحد سكينا بســـكين، فنبـــح الكلـــب [وقلق] ورام فتح الباب لتوهمه أن الطباخ قد رجع من السوق بالوظيفة.[٥] وهـــو يحـــد الســـكين ليقطع اللحم. قال: "فلما كان العشي صنعنا به مثل ذلك، لتعرف حاله في معرفـــة الوقـــت فلـــم يتحرك ؟؟ " وبدافع الاستطلاع والتوصل إلى النتائج الصحيحة والمرضية لهذه التجربة، أجراهـــا على كلب آخر، فلم يقلق إلا قلقا يسيرا، فلم يلبث أن رجع الطبـــاخ، فصنعـــت بالســـكين مثـــل صنيعي، فقلق ورام فتح الباب ؟؟، ثم تساءل: "والله لئن كان عرف الوقت بالرصد، فتحرك لـــه، فلما لم يشم ريح اللحم عرف أنه ليس بشيء، ثم لما سمع صوت السكين والوقت بعد لم يذهب،

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٢٩-١٣٠.
(٢) التعثيث : الترجيع بالصوت.
(٣) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٢٨-١٢٩.
(٤) توفيق أبو الرب، **الحكاية في أدب الجاحظ**، مرجع سابق، ص ١٢٦.
(٥) الوظيفة : ما يقدر من طعام أو رزق في اليوم.

وقد جيء باللحم [فشم ريح اللحم] من الطبخ وهو في البيت، أو عرف فصل ما بين إحدادي للسكين وإحداد الطباخ، إن هذا أيضا لعجب".(١)

وبينت حكاية أخرى كيف استطاع محمد بن الجهم بتجربة عفوية اكتشاف فائدة الذباب وهي إفناء البعوض بأكله، وتجنيب الإنسان أذاه، وقد تحقق له ذلك حين جمع بين البعوض والذباب في بيت واحد.(٢)

استطاع الجاحظ من خلال الحكاية نسف المزاعم العلمية المغلوطة التي تفشت في ذلك الزمن، فقد كشف زيف ادعاء أبي حكيم الكيميائي بقدرته على طرد البعوض من البيوت بوساطة عمار المكان.(٣)

وقد بينت الحكايات خطأ بعض من التصورات الخرافية التي تناقلها الكثير من الناس في مجال الطب الشعبي في عصره، فنقلت لنا تجارب أجريت على السذج من المرضى، وظهرت نتائجها مغايرة لمرادها، ومنيت بالفشل في كل الأحوال.

فثمة حكاية كشفت عن فشل طريقة علاج ذلك الملدوغ من الأفعى بالإكثار من اللبن، فقد اعتقد الكثيرون بأنه يخلص الجسم من السم، "وسقوه في تلك الليلة لبن أربعين عنزا، كلما استقر في جوفه قعب من ذلك اللبن قاء، فيخرج منه كأمثال طلع الفحال الأبيض، فيه طرائق من دسم تعلوه خضرة، حتى استوفى ذلك اللبن كله. فعندها قال شيخ من أهل القرية : إن كنتم أخرجتم ذلك السم فقد أخرجتم نفسه معه!" فمكث أياما بأسوإ حال "ثم مات".(٤)

وتحدثت حكايتان عن طريقتين لشفاء لسعة العقرب، كل واحدة أغرب من الأخرى، ففي الأولى: ذهب الناس إلى نصح ذلك الملسوع من العقرب بغسل خصية زنجي عرق، وشرب ذلك الماء، وبالطبع لم يتعاف، لأنه ليس هناك صلة علمية بين ما ذهبوا إليه وما هو فيه.(٥)

وفي الأخرى: عولجت لسعة العقرب بطريقة أشد غرابة، دلت على ضيق أفقهم وتمكن الخرافة منهم، فلما لسعت ظئر سليمان بن رياش عقرب أشار بجلب تلك العقرب وإرسالها عليها لتلسعها في المكان الذي لسعتها فيه مرة أخرى. ... "فأتوه بعقرب لا والله أن يدرى أهي تلك أم غيرها ؟ فأمر بها، فأمسكت، فقالت : أنشدك بالله واللبن، فأبى وأرسلها عليها، فلسعتها

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٢٠-١٢١.
(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٢٠-٣٢١.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٨٥-٣٨٨.
(٤) المصدر السابق، ج ٤، ص ١٢٧.
(٥) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٦٧.

فغشي عليها ومرضت [زمانا] وتساقط شعر رأسها، فقيل لسليمان في ذلك، فقال : يا مجانين! لا والله إن رد علي روحها إلا تلك اللسعة الثانية. ولولا هي لقد كانت ماتت".(١)

٤ – الموضوعات الاجتماعية :

سلطت الحكايات في كتاب الحيوان الضوء على عدد من القضايا الاجتماعية المتصلة بمختلف شرائح المجتمع عموما، وغير السوية والمقهورة خصوصا.

فتحدثت عن الجواري وبينت مدى الظلم الذي وقع عليهن، فالجارية مسلوبة الإرادة والرغبة، تباع وتشترى، إما عن طريق النخاسين، أو عن طريق أسيادها بالثمن الذي يريدون، دون استشارتها أو أخذ رأيها.

فقد أعجب قاسم التمار بجارية رآها في بيت الخوارزمي النخاس، فاشتراها دون علمها، فدفعها النخاس مع غلامه إلى بيت قاسم الذي راودها حتى تمكنه من نفسها، فقالت له: "والله، لن تصل إلي إلا بعد أن أموت"، فأقبل عليها يكلمها بأسلوب المتكلمين، إلا أنها لم تقبل به، وهربت إلى بيت الخوارزمي النخاس، وأغشي عليها بين يديه. "فكر قاسم إليه راجعا، وقال: ادفعها إلي أشف نفسي منها، فطلبوا إليه فصفح عنها. واشتراها في ذلك المجلس غلام أملح منها فقامت إليه فقبلت فاه، وقاسم ينظر، والقوم يتعجبون مما تهيأ له وتهيأ لها".(٢)

ولم تعن الجارية عند الكثير من السادة إلا المتعة الجنسية، فقلما نجد بينها وبين سيدها حب الرجل لزوجه، فقد بينت الحكايات أن معظم النساء اللواتي يتبعهن المجان من الجواري، وأن أكثر السادة يشتروهن لإشباع غرائزهم في الدرجة الأولى، ثم الخدمة في الدرجة الثانية.

"زعم أبو الحسن المدائني أن رجلا تبع جارية لقوم، فراوغته فلم ينقطع عنها، فحثت في المشي فلم ينقطع عنها، فلما جازت بمجلس قوم، قالت: يا هؤلاء، لي طريق ولهذا طريق، ومولاي [يطأني] فسلوا هذا ماذا يريد مني".(٣)

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق،ج٥، ص ٣٦٧-٣٦٨.
(٢) المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٦٢-٢٦٣.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦١.

وقد تغلغل هذا الشعور في نفسية الجارية لدرجة أنها تغضب عند توجه سيدها عنها إلى غيرها، كما حدث مع معاوية وجاريته الخراسانية. "خلا معاوية بجارية له خراسانية، فلما هم بها نظر إلى وصيفة في الدار، فترك الخراسانية وخلا بالوصيفة، ثم خرج فقال للخراسانية: "ما اسم الأسد بالفارسية؟ قالت: كفتار. فخرج وهو يقول: ما الكفتار؟ فقيل له: الكفتار الضبع. فقال: قاتلها الله أدركت بثأرها ! والفرس إذا استقبحت وجه الإنسان، قالت: روي كفتار، أي وجه الضبع."(١)

وأما الحكايات التي تدور حول الغلمان والمماليك فتصور فضلا عن قضايا بيعهم وشرائهم طبيعة أعمالهم في بيوت مواليهم، ومعاناتهم أثناء ذلك، ومحاولة بعضهم التمرد، وألوانا مختلفة من سلوكهم، وطريقة تفكيرهم.(٢) فأسيادهم كانوا يشترونهم في الغالب للقيام بأعمال البيوت وفي مقدمتها الطبخ على خلاف الجواري.

فجاءت الحكايات بنموذجين من العبيد:

أ- فمنهم من ضرب المثل الأعلى في الطاعة وإتقان العمل مما أكسبه احترام السادة وتقديرهم وثقتهم، كروح بن الطائية الذي فوضته مولاته في كل أمورها، لدرجة أنه كان هو الذي يشتري لها العبيد والغلمان.(٣) وقد امتاز غلام المثنى بطيب الطبخ وحسن الخبز.(٤)

ومع أن العبيد طبقة مغلوبة على أمرها، ويفتقر أغلب أبنائها للتثقيف والتعليم، إلا أننا نجد عند بعضهم حضور البديهة، وذكاء خارقا، وجرأة متناهية، ولا تزال عناصر العزة كامنة في نفوسهم.

فثمة حكايات تورد على ألسنتهم أجوبة منطقية ومفحمة تثير عجب السامع. يقول الجاحظ: "أتيت باب السعداني فإذا غلام له مليح بالباب كان يتبع دابته، فقلت له: قل لمولاك إن شئت بكرت إلي، وإن شئت بكرت إليك. قال: أنا ليس أكلم مولاي -ومعي أبو القنافذ-، فقال أبو القنافذ : ما نحتاج مع هذا الخبر إلى معاينة".(٥)

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق،ج٦، ص ٤٥٢.
(٢) أبو الرب، **الحكاية في أدب الجاحظ**، مرجع سابق، ص ٩٤.
(٣) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٦، ص ٤٩٠-٤٩٣.
(٤) المصدر نفسه، ص ٤٨٩-٤٩٠.
(٥) المصدر نفسه، ص ٤٨٨.

وقد عزم المثنى بن بشر على شراء عبد سندي على أنه طباخ، فألح عليه بالسؤال : " يا غلام كم تحسن من لون ؟" مرتين، فلم يرد عليه. "فقال المثنى في الثالثة : ماله لا يتكلم ؟ يا غلام كم تحسن من لون ؟ فقال السندي : كم تحسن من لون ؟ كم تحسن من لون ؟ وأنت لا تحسن ما يكفيك أنت. فقال: حسبك الآن، ثم قال المثنى للدلال : امض بهذا، عليه لعنة الله".(١)

وسجلت الحكايات مواقف طريفة حدثت بين العبيد والسادة، برزت من خلالها نباهتهم وحسن تصرفهم مما دفع أربابهم لعتقهم. فثمة حكاية تكشف عن نباهة ذلك الغلام وبداهته، حين أرسله أحد الملوك بمهمة استخبارية عن ابنه الذي انحرف. فقد "سار رجلا من الملوك بعض السعاة بابن له ذكر أنه بموضع كذا، وكان يشرب الخمر مع أصحاب له، فبعث غلاما له يتعرف حاله في الشراب، فلما رجع وجد عنده ناسا، فكره التفسير، فقال له: مهيم.(٢) قال: كان نقله جبنا. قال: أنت حر. لأن معاقري الخمر يتنقلون بالجبن لأسباب كثيرة".(٣)

وقد دفع ذكاء فرج الحجام وصدقه سيده جعفر بن سليمان إلى الإعجاب به وعتقه، وتزويجه وإعطائه المال.(٤)

ب – ومنهم من دفع سيده بشقاوته وسوء أمانته وطباعه إلى عدم احتماله والحيرة بين عقابه وبيعه.

وقد تجلى ذلك في تصرفات الغلام الذي أرسله روح بن الطائية بالمال غير مرة إلا أنه كان يصرفها على نفسه، ولا يعود إلى البيت إلا بيد الناشد، فلم يقو روح على تحمله على الرغم من إتقانه الطهي وأداء الأعمال.(٥)

واستعرضت الحكايات أحوال الشواذ وغير الأسوياء في المجتمع فتناولت أخبار المجانين والحمقى، الذين اقترن ذكرهم في الغالب مع العلماء، وفي مجالس العلم. فأبو سيف الممرور ظهر في المسجد، وتحدث مع المسجديين، وتناقش معهم حول مسألة علمية طريفة.(٦)

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٦ ، ص ٤٨٩.
(٢) مهيم : كلمة يمانية معناها "ما أمرك وما شأنك".
(٣) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٧، ص ٢٦١.
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٦١-٢٦٢.
(٥) المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٩٠-٤٩٣.
(٦) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٦٠.

وسأل ممرور أبا يوسف القاضي عددا من المسائل.[١]

وتناولت كذلك أخبار الحمقى وغرابة تصرفاتهم، فكشفت عن حماقة لقمان بن عاد حيث فقتل ابنته لكونها امرأة، فقد روي أنه تزوج عددا من النساء فخنه جميعا، فلما قتل آخرهن، ونزل من الجبل، كانت أول من تلقاه ابنته صحر، فوثب عليها فقتلها، وقال: "أنت أيضا امرأة".[٢] وقد روى يزيد إحدى الحكايات بين فيها حماقة أحد أصدقائه. "كنا في منزل صاحب لنا، إذ خرج واحد من جماعتنا ليقيل في البيت الآخر. فلم يلبث ساعة حتى سمعناه يصيح : أوه أوه! قال : فنهضنا بأجمعنا إليه فزعين، فقلنا له : مالك ؟ وإذا هو نائم على شقه الأيسر، وهو قابض على خصيته بيده، فقلت له : لم صحت ؟ قال : إذا غمزت خصيتي اشتكيتها، وإذا اشتكيتها صحت. قال: فقلنا له: لا تغمزها بعد حتى لا تشتكي ! قال : نعم إن شاء الله تعالى".[٣] وذكرت الحكايات كذلك نوادر لديسيموس اليوناني الذي كان أحمق.[٤]

وساقت الحكايات فعالا غريبة، ورغائب عجيبة، انبثقت من العقد والأمراض النفسية، فخالفت طبع الإنسان السوي وميوله، فأشارت لعدد من الشواذ جنسيا والمنحرفين أخلاقيا،[٥] وأبانت عن مظاهر للمبتلين بأمراض نفسية. فقد تعشق المكي جارية ثم تزوجها وكانت ذات صنان، وكان معجبا بذلك منها، إلا أنها كانت تعالجه بالمرتك[٦]، فنهاها عن ذلك مرارا حتى غضب عليها. فاتخذت من نقطة ضعفه الغريبة هذه سبيلا لها لتلبية حاجاتها.[٧]

وثمة رجل آخر يشتهي ريح الكرياس[٨]، يذهب إلى الكرياس الذي يكون في الأزقة قليلة المارة فيخرقه، ثم يضع منخره عليه حتى يقضي وطره.[٩]

وتناولت حكايات قليلة صفات مرذولة في المجتمع، تمجها النفس السليمة. فتحدثت إحداها عن أحد البخلاء، ويدعى سهل بن هارون الذي اشتهر بالبخل، فقد روى دعبل أنه أقام عنده مع صحب له، فلم يقدم لهم شيئا، وأشرفوا على الهلاك من الجوع، فلما اضطروه إلى صنع

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٣، ص ١١-١٢.
(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١.
(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣١.
(٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨٩-٢٩١.
(٥) تراجع موضوعات الحب والجنس في الرسالة، حيث تحدثت عن هذه الفئة بعمق، ص٢٨.
(٦) المرتك وهو معرب، يكون من سائر المعادن المطبوخة، إلا الحديد، بالإحراق، وأكثر ما يعمل من الرصاص، نقلا عن حاشية **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٥، ص ٣٥٠.
(٧) المصدر ذاته، ص ٤٦٧-٤٦٨.
(٨) الكرياس أشبه ما يكون بالمنهل في أيامنا هذه، وسمي كرياسا لما يعلق به من الأقذار فيركب بعضه بعضا ويتكرس مثل كرس الدهن، وهو من الألفاظ المشتركة بين العربية والفارسية.
(٩) الجاحظ، **الحيوان** ، مصدر سابق ،ج٥، ص ٤٦٧-٤٦٨.

طعام لهم جاء بديك هرم، لا تحزه السكين، ولا تؤثر فيه الأضراس، والعجب العجاب أنه لام غلامه بشدة على رميه رأس ذلك الديك.(١)

وثمة حكاية تتحدث عن الاحتيال والمحتالين، فقد بينت كيف استطاع ذلك الغارم أن يتخلص من دينه بحيلة خبيثة حين أخذ ينبح موهما الناس بأنه ابتلي. فانصرف غرماؤه عنه.(٢)

وكشفت الحكايات عن صورة إجرامية بشعة للخناقين، فتعرضت إلى الطريقة التي يعمدون إليها في قتل الناس، الذي يكون غالبا بدافع مادي، لأن ضحاياهم من الميسورين كما يبدو، ففي إحداها أخذوا أهل درب بأكمله، "... وذلك أن بعضهم رغب في ثوب كان على حمال، وفيه دريهمات معه، فألقى الوهق(٣) في عنقه، فغشي عليه ولم يمت، وتحرك بطنه فأتى المتوضأ وتحرك الحمال والساجور(٤) في عنقه، فرجعت نفس الحمال، فلما لم يحس بأحد عنده، قصد نحو باب الدار، وخرج وزياره(٥) في عنقه، وتلقته جماعته فأخبرهم الخبر، وتصايح الناس فأخذوا عن آخرهم".(٦)

وتتبع أناس منهم رجلا كان على وسطه كيس فيه دراهم، وحين وجدوا الفرصة مواتية للانقضاض عليه، لم يشعر إلا والحبل في عنقه، وطرح على الأرض، وجلس أحدهم على صدره، ومد الآخر رجليه، وغطاه بثوب، وأذن في أذنه، وحملوه حتى ابتعدوا عن الناس، فأخذوا منه ما أحبوا، ورموه في بعض الأودية.(٧)

يتبين مما سبق مدى الاهتمام الكبير الذي أولته الحكايات للفئات المنبوذة والمقهورة والمعتلة نفسيا وعقليا، ولعلها تنشد بذلك نقدا اجتماعيا حولها من خلال عرض أخبارها وأحوالها والكشف عن مظاهر حياة أفرادها المليئة بالمفارقات والتناقضات.

ومن الملاحظ كذلك أن هذه الحكايات لم تعن بالفئات والشرائح الاجتماعية التي عقد حولها الجاحظ كتبا كالقيان، واللصوص، والبخلاء.

وأما العلماء والمفكرون والأمراء والخلفاء فيمكن تتبع أخبارهم وتلمس حياتهم من خلال الحكايات ذات الطابع التاريخي والفكري والعلمي، فمن نافلة القول التحدث عنهم هنا، لأن تلك

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٧٤-٣٧٥.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٧١-١٧٣.
(٣) الوهق : حبل مفتول يرمى فيه أنشوطة، فتؤخذ به الدابة، والأنشوطة: عقدة تمد بأحد طرفيها فتنحل.
(٤) الساجور : أصله القلادة أو الخشبة توضع في عنق الكلب.
(٥) الزيار : شناق يشد به البيطار جحفلة الدابة.
(٦) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٦٥.
(٧) المصدر ذاته، ص ٢٧٠ - ٢٧١.

الحكايات تناولتهم في سياق موضوعاتها فهي ألصق بهم، إلا أنه يمكن القول إن الحكايات في كتاب الحيوان بغض النظر عن موضوعاتها تناولت كافة طبقات المجتمع الصالح والطالح، والتقي والزنديق، والعالم والجاهل، والوزير والأجير.

٥- موضوعات الحب والجنس:

عنيت بعض الحكايات بالجنس وما يتصل به من عواطف وممارسات، سواء أكانت مرفوضة أم مقبولة، ونظرت له من زوايا عدة.

فتناولت الزواج، وما يختص به من علاقات جنسية وأمور عاطفية بين الزوجين، ففي حكاية يصور لنا حالة القلق الاستباقي الوراثية من الجنس التي عاشتها تلك الجارية قبيل زواجها، مما دفعها لمساءلة أمها في حديث مكشوف وصريح تبددت فيه مخاوفها.(١)

وفي حكاية أخرى اتسم الحوار الذي جرى بين الزوجين فيها بالوضوح والصراحة غير المتناهية، بعيدا عن الخجل والحياء، حول متعة الوطء واللذة الجنسية "ففي الحكاية الجنسية بين الزوجين خطوة أجرأ وأكثر إيغالا في موضوع الجنس، فهي تصور بلفظ صريح، وبالأسلوب العاري ما يمكن أن يخوض فيها الزوجان، من حديث حول المعاشرة الجنسية، وما يتخلل ذلك من تصرفات بهيمية، فينحو بنا الجاحظ إلى حكاية يدخل بها مخدع الزوجين،(٢) نجدهما يتناظران دون أدنى حياء حول موضوع اللذة، وكيف تتم، وما مدى علاقتها بالعضو التناسلي عند الرجل، من حيث الطول والقصر، وعند الأنثى من حيث الضيق والاتساع، ويرافق الحوار بين الزوجين حركات غريبة، وتنتهي المناظرة بتغلب الزوجة على الزوج، إذ يورد الجاحظ من يعقب على الحكاية بقوله "قال اليقطري: أمكنها والله من القول ما لم يمكنه"(٣).

والحق أن هذه الحكاية تعالج موضوع اللذة في المعاشرة الجنسية بمنتهى الجراءة العلمية من خلال الحجاج المنطقي بين المتناظرين".(٤)

وتعرضت الحكايات لعشق المرأة للرجل، وبينت أن هذا العشق يهتم بمظهر الرجل دون مخبره، وهو حب مادي خال من التواصل الروحي، وقد بدا ذلك في حكاية عيسى بن مروان ومليحته التي نفرت منه لقبح منظره ، فلما خلا معها وأرادها على ما يريد الرجل من المرأة

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٧، ص ٢٣٧-٢٣٩.
(٢)المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٥١-٤٥٢.
(٣) المصدر ذاته، ص ٤٥٢.
(٤) أبو الرب، **الحكاية في أدب الجاحظ**، مرجع سابق، ص ٦٩-٧٠.

امتنعت، فوهب لها، ومناها، وأظهر تعشقها، وأراغها بكل حيلة، فلما لم تجب، قال لها: خبريني، ما الذي يمنعك؟ قالت: قبح أنفك، وهو يستقبل عيني وقت الحاجة، فلو كان أنفك في قفاك لكان أهون علي! قال لها : جعلت فداك! الذي بأنفي ليس خلقة، إنما هو ضربة ضربتها في سبيل الله تعالى. فقالت واستغربت ضحكا: أنا ما أبالي، في سبيل الله كانت أو في سبيل الشيطان! إنما بي قبحه، فخذ ثوابك على هذه الضربة من الله، أما أنا فلا".(١)

وتميل المرأة دائما إلى الرجل الوسيم، وتتوق إلى معاشرته، وقد تجلى ذلك في حكاية الجارية والفتى المليح، الذي "قال لجارية له أو لصديقة له: ليس في الأرض أحسن مني ولا أملح مني، فصار عندها كذلك، فبينما هو عندها على هذه الصفة، إذ قرع عليها الباب إنسان غيره، فاطلعت عليه الجارية من خرق الباب، فرأت فتى أحسن الناس وأملحهم وأنبلهم وأتمهم.

فلما عاد صاحبها إلى المنزل قالت له: أوما أخبرتني أنك أملح الخلق وأحسنهم ؟ قال: بلى ! وكذلك أنا !، فقالت: فقد أرادك فلان، ورأيته من خرق الباب، فرأيته أحسن منك وأملح. قال: لعمري إنه لحسن مليح، ولكن له جنية تصرعه في كل شهر مرتين ! وهو يريد بذلك أن يسقطه من عينها، قالت: أوما تصرعه في الشهر إلا مرتين؟! أما والله لو أني جنية لصرعته في اليوم ألفين".(٢)

وأوردت الحكايات نماذج من الانحراف الأخلاقي في مجتمعه.

فمنهم من يتتبع الجواري والنساء ليشبع رغباته دون خوف من الله واستحياء من الناس، ومن هؤلاء داود بن المعتمر الذي كان يلاحق الجواري طمعا بهن، فقد روى الجاحظ عنه حكايتين بهذا الشأن، قال :"تتبع داود بن المعتمر امرأة فلم يزل يطريها حتى أجابت، ودلها على المنزل الذي يمكنها فيه ما يريد، فتقدمت الفاجرة وعرض له رجل فشغله، وجاء إلى المنزل، وقد قضى القوم حوائجهم وأخذت حاجتها، فلم تنتظره".(٣)

وعرض نموذجا آخر للمنحرفين، تمثل في حكاية إسماعيل بن غزوان، الذي تعشق

---

(١) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج ٦، ص ٢٦٣-٢٦٤.
(٢) المصدر ذاته، ص ٢٥٩-٢٦٠.
(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٦-٣٧، وحكايته الأخرى مع جارية أعجبته فتبعها، ولم ينل منها شيئا، المصدر نفسه، ص ٣٥-٣٦.

جارية مويس بن عمران، وكان يواقعها سرا، فإذا فرغ ذهبت إلى بيت مولاها.[١]

وتحدثت الحكايات عن الخيانة الزوجية فتناولت إحداها خيانة زوجات لقمان.[٢] وفي أخرى واعدت أعرابية أعرابيا بأن يأتيها ليلا، فكمن لها تحت شجرة قرب بيتها، فلمحه زوجها، فأوهمته بأنه شيخ من الجان، فصدقها ونام. فذهبت إلى الأعرابي، فأعطاها، فمكنته من نفسها.[٣]

وقد بينت الحكايات صورة من العقاب الرباني لهؤلاء المنحرفين، علها تكون همسة في ضمير من تحدثه نفسه باتباعهم، فأورد حكاية تلك المرأة التي زنت وأنجبت ثلاثة أطفال، وكلما وضعت واحدا ألقته في التنور لتخفي فعلتها، فسلط الله عليها الأفاعي فنهشتها وقضت عليها.[٤]

وتناولت حكايات قليلة الشذوذ الجنسي، فقدمت لنا نماذج حية استمدتها من واقع مجتمعه، فكشفت عن حالات ينقاد فيها الإنسان لرغباته وشهواته، فيقترب من البهائم، فمن الشواذ الذكور من يميل إلى إشباع رغباته مع أبناء جنسه، كعبد العزيز بن بشكست الذي كان ثريا وهذا الرجل عجيب، فقد دفعه انحرافه إلى جعل زكاة المال التي يتقرب بها العبد من ربه وسيلة يستميل بها الغلمان، ويتقرب بها منهم، فأنفقها ثلاثين سنة عليهم وعلى قريباتهم.[٥]

ومنهم من سيطر عليه سلطان الشهوة والغريزة، فنزل به إلى تلبية حاجاته الجنسية مع إناث الحيوان، وغالبا ما يشكل الحراس جل هذه الفئة لفراغ الوقت والوحدة وانعدام الزوجة عند أكثرهم.[٦]

وهناك نموذج آخر من اللاطة، ولكنه عجيب ومستهجن، إنه فارس الحمامي، كان قيما على حمام، زعم أنه كام الكلاب خمسين سنة، وكان حلقيا يلوط به الرجال، فلما كبر وهزل لم يعد للرجال حاجة به، فلم يطرق بابه أحد، فاحتال على كلب له حتى أخذ منه حاجته من الذكور.[٧]

وكذلك الحارس الذي كان يكوم إناث الكلاب، وقادته بهيميته إلى تفضيلها على

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٢، ص ٥٨-٥٩.
(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١.
(٣) المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٦٨.
(٤) المصدر سابق، ج ٤، ص ٢٥١.
(٥) المصدر ذاته، ج ٣، ص ٢٦.
(٦) مصدر ذاته، ج ١، ص ٣٧١.
(٧) المصدر نفسه، ص ٣٧٢.

النساء، وزعم أنها أطيب شيء أفواهـــــا، وأعذب ريقـــا، وقال: إنه كام عموم إناث الحيـــوان، فوجدها كلـــــها أشد متعة له من النساء.(١)

وقد كشفت الحكايات مدى رغبة الإنسان الجنسية وقوة شهوته، التـــــي لا يقـــوى علـــى تنظيمها أو كبح جماحها عند كثير من الناس الوازع الديني، والـــــرادع الأخلاقـــي، أو الوســيلة العلمية، فقاسم التمـــــار الذي كان معتزليا، كان شهوانيا يلاحق الجواري والنساء، ولـــم يمنعـــه مبدؤه من ذلك.(٢) وكان السادة والشرفاء يخصون العبيد خوفا منهم على محارمهم، إلا أن ذلـــك لم يجد نفعـــا عند كثير منهم، فقد أورد الجاحظ حكاية تحدث فيها عن ميول ذلك الخصـــي مـــن العبيد الذي اقتاد شاة وكامها غـــــفلا من مولاه.(٣)

وقد لجأ أبو المبارك الصابي إلى خصي نفسه والجوع والرياضة ليقـــتـــــــل شـــهوته إلا أنه لم يفلح في ذلك.(٤)

وأشارت الحكايات إلى الاتصال الجنسي بين الإنسان والجان، كما حدث مع سعيد بن خالد بن عبد الله بن أسد الذي تلبسته جنية، تدعى "رقية بنت ملحان"، وقد تحدثت علـــى لسانه، وهددت القوم إن عالجوه أن تقتـــله، "قال أبو الحسن وغيره : كان سعيد بن خالد بن عبـــد الله بن أسد تصيبه موتة(٥) نصف سنة، ونصف سنة يصح، فيحبو ويعطـــى، ويكســـو ويحمـــل، فأراد أهله أن يعالجوه، فتكـــــلـــــمت امرأة على لسانه [فقالت] : أنا رقيـــة بنت ملحـــان ســـيد الجن، والله أن لو علمت مكان رجل أشرف منه لعلـــقـــتـــــه ! والله لئن عـــــالجتموه لأقتلنـــه!، فتركوا علاجه".(٦)

وكما تحدث عن الجنس عند الإنسان تناوله عند الحيوان أيضا، فصور الشهوة الجامحـــة فيه من خلال لوحات حكائية متعددة، فبينت الحكايات قوة الشهوة عند الحيـــوان التـــي لا يكبـــح جماحها شيء ولو كان الخطر المحدق بحياته، وقد بدا ذلك في حديث أحمد بن المثنى عن الذئـــب الذي تعرض له في الصحراء، فأوشك أن يأكله، فإذا بذئبة عرضت له، ومن رحمة الله كان ذلـــك زمن هيجها وتسافدها، فلما عاينها تركه وقصد نحوها، فما تلعثم أن ركبها، قال : "وكنت قرأت

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص ٣٧١-٣٧٢.
(٢) ذكر الجاحظ مجموعة من الحكايات تدل على مجونه وغلاميته في **البيان والتبيين**، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ج ٤، ص ١٢-١٣.
(٣) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ١، ص ١٧٢-١٧٣.
(٤) المصدر السابق، ص ١٢٦-١٢٨.
(٥) موتة: جنس من الجنون والفزع يعتري الإنسان، فإذا أفاق عاد إليه عقله.
(٦)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٦، ص ١٧٠-١٧١.

في بعض الكتب أنها تلتحم ففوقت سهمي وهما ينظران إلي، فلما لم أر عندهما نكيرا، حقق ذلك عندي ما كان في الكتاب من تلاحمهما، فمشيت إليهما بسيفي حتى قتلتهما".[١]

وثمة حكاية تتحدث لنا عن اغتلام فيل لكسرى، فقد أقبل نحو الحضور وشق الصفوف، حتى دنا من مجلس كسرى، فأقشع عنه جنده، و لم يبق معه إلا رجل من فرسانه، فلما رأى قربه من الملك ضربه بطبرزين[٢] ضربة قوية في جبهته، غابت فيها جميع الحديدة، فصد عنه وارتدع.[٣]

وبينت لنا الحكايات قوة الشهوة عند إناث الكلاب، وكيف تعقد على من يكومها.[٤]

طرق الجاحظ المعتزلي موضوع الجنس من خلال الحكاية دون تحرج، ومن غير مواربة، بل طرحه بأسلوب علمي واقعي مكشوف. وقد أتى على كثير من جوانبه، "إلا أننا افتقدنا إلى الحكاية التي تصور الحب العذري وعشق الأعراب".[٥] ولم تتناول الحكايات كذلك نماذج للسحاقيات.

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢١٧-٢١٨.
(٢) فأس يعلقها الفارس في سرج جواده.
(٣) الجاحظ، **الحيوان** ، مصدر سابق، ج ٧، ص ١٧٩.
(٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٧٠.
(٥) أبو الرب، **الحكاية في أدب الجاحظ**، مرجع سابق، ص ٧٠.

أنواعها:

تنقسم الحكاية في كتاب الحيوان إلى:

١- الحكاية التعليمية:

وهي الحكاية التي تتصل اتصالا مباشرا بالمتن المعرفي للكتاب، مما يجعل منها نصا وظيفيا بالدرجة الأولى، يهدف إلى التوضيح أو التعليل.(١) فقد نقل الجاحظ معاناته من عضة البعوض من خلال حكاية ليبين مدى أذاها، يقول : "وأما البعوض فأشهد أن بعوضة عضت ظهر قدمي، وأنا بقرب كاذة والعوجاء، وذلك بعد أن صلى الناس المغرب، فلم أزل منها في اكال وحرقة، وأنا أسير في السفينة، إلى أن سمعت أذان العشاء."(٢)

فهي في الغالب تأتي لتوضيح المقولة التي سبقتها، أو لتفسيرها. وهي في المحصلة النهائية تخدم المتن المعرفي الذي وردت فيه أولا.(٣)

وتنتمي الحكاية الخرافية إلى الحكاية التعليمية لكونها نصا وظيفيا على الأغلب، وهي أحداث مزيفة لا أصل لها في الواقع أو التاريخ، ولا يقبلها العقل والنقل. وسيطر على الحكايات الخرافية في كتابنا حكايات الحيوان، وهي: "عبارة عن حكايات قصيرة تقوم بأحداثها حيوانات تتحدث وتتصرف كالإنسان وتحتفظ مع ذلك بسماتها الحيوانية، وتقصد إلى مغزى أخلاقي".(٤) ومنها خرافة "حمار سفينة نوح وإبليس"، يقول الجاحظ : "ومن لا علم عنده يروي أيضا أن إبليس قد دخل جوف الحمار مرة، ذلك أن نوحا لما دخل السفينة تمنع الحمار بعسره ونكده، وكان إبليس قد أخذ بذنبه، وقال آخرون : بل كان في جوفه، فلما قال نوح للحمار : ادخل يا ملعون ؟ ودخل الحمار، دخل إبليس معه، إذ كان في جوفه. قال : فلما رآه نوح في السفينة، قال: يا ملعون، من أدخلك السفينة ؟ قال : أنت أمرتني. قال : ومتى أمرتك ؟ قال : حين قلت: ادخل يا ملعون، ولم يكن ثم ملعون غيري".(٥)

ومنها أيضا خرافة "تقليد الغراب للعصفور"، "يقولون : ذهب الغراب يتعلم مشية

---

(١) خولة حسين خليل شخاترة، **بنية النص الحكائي في كتاب الحيوان للجاحظ**، رسالة جامعية كلية الآداب، جامعة اليرموك، منشورة عن دار الينابيع، ، ١٩٩٦، ص ٨٠.
(٢) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٥، ص ٣٩٧.
(٣) شخاترة، **بنية النص الحكائي في كتاب الحيوان للجاحظ**، مرجع سابق، ص ٤٣.
(٤) عبد الحميد يونس، **الحكاية الشعبية**، مرجع سابق، ص ٣٣.
(٥) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٢٢.

العصفور، فلم يتعلمها، ونسي مشيتـــه، ولذلك صار يحجل ولا يقفــز قفــزان العصفور".[١]

٢- الحكاية الفكاهية:

وهي الحكاية التي جاءت على صورة المـلـــــح والنوادر، التي يمكن عدها من أنـــواع الحكاية على الرغم من وضع بعض المحدثين فوارق بينها، إلا أنه يمكن تجاوزها هنا، ودراســة المـــــلح والنوادر في سياق الحكاية لاعتبارات عديدة.

أ- بعد تتبع التطور الدلالي لكلمة حكاية تبيـــــن إمكانيـــة احتوائـــها للنـــادرة، فقـد استعملت كلمة حكاية في القرنين الثاني والثالث الهجريين بمعنى روي أو قص.[٢] وظلت تعنـــي كلمة حكاية التقليد والمشابهة والرواية في القرون الأربعة الأولى من الهجرة، واستمرت زمنـــا أطول في اصطلاح رجال الدين،[٣] وتعددت الأسماء التي تـطلـــــق على الأنـــواع المختلفـة من الحكايات التي منها النوادر، وهي حكايات متفرقة،[٤] ويبدو أنه منذ القرن الثـــامن الـــهجري فصاعدا كانت كلمة حكاية التي يعد معناها الأول مهجورا في الوقت الحالي قد اكتســب المعنـــى العام لكلمة نادرة، وقصة، ورواية، وأسطورة.[٥]

وذهب بعض المحدثين إلى أن النادرة من أنواع الحكاية، فهي تعني عند إبراهيم شـــعلان "حكاية قصيرة تتركز حول حدث معين، يبعث على الفكاهة".[٦]

وعد يوسف الشاروني النادرة من أنواع القصة القصيرة التي عرفها العرب.[٧] ويقـــول عبد العزيز شرف: "وإذا كان أكثر الدارسين يرى أن (الحكاية) أو النادرة مرادفة للقصة بوجـــه عام، فإنها في الأدب الفكاهي تصبح الأساس الذي بنيت عليه القصة الفكاهية يؤيدنا في ذلك مـــا يذهب إليه الكاتب الفكاهي الأمريكي (مارك توين) في تعريف القصة الفكاهية، حيث يراها نكتـــة صغيرة ناجحة، وكأنه بذلك يشير إلى صفة الإيجاز التي تتصف بها النادرة والقصـــة القصـــيرة

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٢٥.
(٢) م.ت. هوتسما وآخرون، **موجز دائرة المعارف الإسلامية**، مركز الشارقة للإبداع الفكـــري، الإمـــارات، ١٩٩٥، ج ١٢، ص ٣٦٥٠.
(٣) المرجع السابق، ص ٣٦٤٠.
(٤)المرجع نفسه، ص ٣٦٤٣.
(٥) المرجع نفسه، ص ٣٦٥٥
(٦) **النوادر في الأدب الشعبي**، ص ٢٠. نقلا عن يوسف الشاروني، مقال "النادرة العربية"، مجلة آفاق عربيـة، العدد العاشر، بغداد، السنة الثانية، ١٩٧٧، ص٣٥.
(٧) المرجع نفسه، ص ٣٤.

معا".[١]

ب- ساق الجاحظ مجموعة من الحكايات في الحيوان على أنها نوادر وملح مما يدل على أنه كان مدركا للتقارب بينها وبين تلك الفنون.

جـ - تشبه النادرة الحكاية في الشكل، فكل منهما عبارة عن وحدة سردية تدور حول حدث أو شخص ما. فقد عرفها مجدي وهبة بأنها: "سرد قصير لحادثة طريفة تتعلق بشخص من الأشخاص المعروفين".[٢] وتشكل في نظر خولة خليل وحدة سردية مستقلة.[٣]

والحكاية بطبيعة الحال فن سردي.

إلا أن النادرة تختلف عن الحكاية بالإضحاك، والقصر الذي تراه نبيلة إبراهيم فارقا رئيسيا يخيل للقارئ وجود تعارض مع الدمج بينهما فالنادرة عندها : "أقصوصة لا تطول إلى درجة الحكاية الهزلية، ولا تقصر إلى النكتة".[٤] إلا أن الحيز الزماني ليس هاما، فطبيعة الموقف هي التي تتحكم بحجم كل منهما، بل إن النادرة غالبا ما تميل إلى الحكاية من حيث الطول.

د- تلتقي النادرة في الوظيفة مع الحكاية، وخاصة الاجتماعية، فهي مرآة تعكس واقع المجتمع وتعبر عن هموم الناس في كافة المجالات، بقصد الدعابة أو التندر والسخرية، بهدف النقد اللاذع أو الإصلاح.

هـ- تتطرق الحكاية إلى الموضوعات التي تطرقها النادرة.

ومن الحكايات الفكاهية التي وردت في الحيوان نادرة لعجوز أعرابية، "حدثنا ربعي الأنصاري: أن عجوزا من الأعراب جلست في طريق مكة إلى فتيان يشربون نبيذا [لهم]، فسقوها قدحا فطابت نفسها، وتبسمت، ثم سقوها قدحا آخر فاحمر وجهها وضحكت، فسقوها قدحا ثالثا فقالت: خبروني عن نسائكم بالعراق، أيشربن من هذا الشراب ؟ فقالوا: نعم. فقالت: زنين ورب الكعبة!"[٥]

وحكاية أبي كعب القاص يقول : "وتعشى أبو كعب القاص بطفشيل[٦] كثير

---

(١) عبدالعزيز شرف، **الأدب الفكاهي**، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٢، ص ١٠٣.
(٢) مجدي وهبة، **معجم مصطلحات الأدب**، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٤، ص ١٧.
(٣) شخاترة، **بنية النص الحكائي** في كتاب الحيوان للجاحظ، مرجع سابق، ص ٨٠.
(٤) نبيلة إبراهيم، **أشكال التعبير في الأدب الشعبي**، دار النهضة، مصر، ص ٢٢٧.
(٥) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٣، ٢٩٢-٢٩٣.
(٦) نوع من المرق، وقيل ضرب من الأطعمة التي تصنع من الحبوب كالعدس.

الـلـــــوبيا، وأكثر منه، وشرب نبيذ تمر، وغلـــــس إلى بعض المساجد ليقص على أهلـه، إذ انفتل الإمام من الصلاة فصادف زحامـــــا كثيرا، ومسجدا مستورا بـالبواري مـن الـبرد والريح والمطر، وإذا محراب غائر في الحائط، وإذا الإمام شيخ ضعيف، فلما استدبر المحـراب وجلس في زاوية منه يسبح، وقام أبو كعب فجعل ظهره إلى وجه الإمام ووجهه إلى وجوه القـوم، وطبـــق وجه المحراب بجسمه وفروته وعمامته وكسائه، ولم يكن بين فقحتـه وبيـن أنـف الإمام كبير شيء، وقص وتحرك بطنه، فأراد أن يتفرج بفسوة وخاف أن تصير ضراطـــــا، فقال في قصصه : قولوا جميعا : لا إله إلا الله ! وارفعوا بها أصواتـــــكم. وفسا فسوة فـي المحراب فدارت فيه وجثمت على أنف الشيخ واحتملها، ثم كده بطنـــــه فاحتاج إلى أخـوى، فقال: قولوا: لا إله إلا الله! وارفعوا بها أصواتكم. فأرسل فسوة أخرى فلـم تـــــخطئ أنـف الشيخ، واختنقت في المحراب. فخمر الشيخ أنـــفـــه، فصار لا يدري مـا يصنـع، إن هـو تنفـــس قتلته الرائحة، وإن هو لم يتنفـــس مات كربا. فما زال يداري ذلك، وأبـــو كعـب يقص، فلم يلبث أبو كعب أن احتاج إلى أخرى. وكلما طال لبثـه تولـــد في بطنه من النفـخ على حسب ذلك. فقال : قولوا جميعا : لا إله إلا الله ! وارفعوا بها أصواتكم. فقال الشـيخ مـن المحراب -[وأطلع رأسه وقال] - : لا تقولوا ! لا تقولوا ! قد قتلني ! إنما يريد أن يفسـو ! ثـم جذت إليه ثوب أبي كعب وقال : جئت إلى ها هنا لتفسو أو تقص ؟ فقال: جئنا لنقص، فإذا نزلـت بليـــة فلا بد لنا ولكم من الصبر! فضحك الناس، واختـــلط المجلس.[١]

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٤-٢٥.

مصادرها:

قلما جاءت الحكاية في كتاب الحيوان دون سندها، فقد تركزت مصادرها في العصر العباسي، والفرس الذي كان له اتصال مع مثقفيهم، واطلاع واسع على ثقافاتهم، فنادرا ما يطالعنا بحكاية من الجاهلية أو صدر الإسلام، أو عصر بني أمية، ولعل ذلك معزو إلى كبر سنه، ولعل في قرب زمانها منه تكون أكثر إقناعا للقارئ.

وتنقسم مصادر الحكايات إلى :

١- ذاتية :

وهي الحكايات التي ترجع إلى الجاحظ نفسه، وتتفرع من حيث نسبتها له، إلى نوعين:

النوع الأول: حكايات جعل نفسه طرفا فيها، وهي إما أن تصور مواقف طريفة حدثت بينه وبين الآخرين، كتلك التي نقلت لنا ذلك الحوار الذي جرى بينه وبين النجار الذي ركب له بابا حول دقة التركيب.(١)

وفي حكاية أخرى يروي لنا كيف بعث غلامه ليتتبع داود بن المعتمر عندما كان جالسا معه إذ مرت جارية فأعجبته، فلحق بها.(٢)

وإما أن تنقل لنا أحد تجاربه الذاتية أو مشاهداته الشخصية، ففي إحداها ينقل لنا تجربة مريرة عاشها مع الذباب، الذي لم يستطع إبعاده عنه على الرغم من استخدامه وسائل متنوعة لذلك.(٣) وفي حكاية أخرى يسرد لنا إحدى مشاهداته حيث جسامة الفيل وكبر أذنيه بالنسبة لجسده.(٤)

وثمة حكاية يقص فيها ما رأى عند عبيد بن الشونزي(٥) يقول: "ودخلت مرة أنا وحمدان [بن] الصباح على عبيد [بن] الشونزي، فإذا عنده برنية(٦) من زجاج فيها عشرون عقربا وعشرون فأرا، فإذا هي تقتتل، فخيل لي أن تلك الفئران قد اعتراها

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٧٦-٢٧٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٥-٣٦.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٤٦-٣٤٧.
(٤) المصدر ذاته، ج ٧، ص ٢٠١.
(٥) الشونزي : نسبة إلى الشونزية موضع ببغداد بالجانب الشرقي.
(٦) البرنية: شبه فخارة ضخمة خضراء، وما كانت من القوارير الثخان الواسعة الأفواه.

ورم من شدة وقع اللسع، ورأيت العقارب قد كلـــــــت منها وتاركتها.[١]

وأما النوع الآخر: فهي الحكايات التي أنشأها من لدنه، ولم ينقلـــها عـــن غـــيره، وقـــد استمدها من الواقع الاجتماعي، ويلاحظ أن معظم هذه الحكايات تناولت الموضوعات الجنســـية، وخاصة الواقع السلبي للجواري والغلمان، فقلما تجد حكاية في كتاب الحيوان من قص الجـــاحظ الذاتي تتعرض لموضوعات أخرى. فمن خلالها بين لنا ميول أحد الخصيان وشذوذه.[٢] وأخبرنـــا عن عدد من المجان المولعين بالنساء كقاسم التمار وجاريته التي فرت منه لقبح منظره، وعيســـى ابن مروان وظريفته.[٣]

٢- غيرية :

استمد الجاحظ أكثر حكاياته في الحيوان من الآخريـــــن بمختلـــف أجناســـهم وثقافاتـــهم ومذاهبهم الفكرية وطبقاتهم الاجتماعية، فقد أخذ عن:

أ - العرب:

فنقل عن الرواة والإخباريين في العصر العباسي، فأسند مجموعة من الحكايـــــات لعـــدد منهم في تلك الفترة، فروى للأصمعي قصة المرأة الممهورة الشياه والخمر، والعنبري الأســير.[٤] ونسب حديث المرأة وزوجها لابن الأعرابي[٥] ولأبي عبيدة قصة الكلب الذي أنقذ صاحبـــه مـــن الموت.[٦] وحكاية الأعرابي الذي لسعته عقرب.[٧]

وأتى الجاحظ بمجموعة من الحكايات نقلها عن خاصته والمقربين إليه الذين قلمـــا ذكـــر أسماءهم، كما في حديث شيخ أهل الخريبة عن تخاتّ الذباب. "وحدثني بعض أصحابنا عن شـــيخ من أهل الخريبة، قال: ...".[٨] وقصة ذلك الرجل الذي لدغته أفعى فشرب اللبن ليتخلـــص مـــن السم إلا أنه مات.[٩]

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٥، ص ٢٤٨.
(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٢-١٧٣.
(٣) المصدر ذاته، ج ٦، ص ٢٦٢-٢٦٤.
(٤) المصدر ذاته، ج ٣، ص ١٢٣-١٢٥.
(٥) المصدر ذاته، ج ٦، ص ٢٥٠.
(٦) المصدر ذاته، ج ٢، ص ١٢٢-١٢٣.
(٧) المصدر ذاته، ج ٥، ص ٣٣٧.
(٨) المصدر ذاته، ج ٣، ص ٣٥٦-٣٥٧.
(٩) المصدر ذاته، ج ٤، ص ١٢٧.

ولم يجد الجاحظ حرجا بالنقل عن غلمانه، فقد روى عنهم قصة ذلك الكلب الذي اعتاد على مجموعة من الفعال الحسنة.[١] والأخذ من العبيد فقد روى عن روح بن الطائية الذي كان عبدا لأخت أنس بن أبي شيخ حكاية الغلام ذي الطباع القبيحة.[٢]

وأسند عددا منها لمعاصريه، حيث روى لمشاهيرهم من الأدباء والقصاص، فقد نقل حكاية هجرة الظباء إلى الناس،[٣] وحكاية شيخ اليمانية والبعوض،[٤] اللتين حدثه بهما إبراهيم ابن السندي بن شاهك،[٥] ولمسعدة بن طارق حكايته مع الزبادي،[٦] ولمحمد بن عباد حكاية أبي المبارك الصابي،[٧] ولإبان بن عثمان حكاية رجل من وجوه الشام،[٨] ولمحمد بن القاسم حكاية الأعمش وجليسه.[٩]

ولم يشكل التعدد المذهبي والتباين الفكري عند الآخرين حاجزا يمنع الجاحظ من النقل عنهم، فقد روى لمن اختلف معه في الرأي والمذهب. فأورد ما ذكر محمد بن الجهم البرمكي[١٠] حكايته مع الذباب، الذي خلصه من البعوض في بيته.[١١] وروى للشيعي أبي الحسن المدائني (ت:٢٢٥هـ) بعض الحكايات كحكاية الجارية التي أمطرت أمها بوابل من الأسئلة ليلة زفافها،[١٢] وحكاية الغارم الذي تخلص من دينه بحيلة النباح.[١٣]

وروى للشاعر دعبل الخزاعي الذي كان شيعيا أيضا حكاية سهل بن هارون

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٢٩-١٣١.
(٢) المصدر ذاته، ج ٦، ص ٤٩٠-٤٩٣.
(٣) المصدر السابق، ج ٤، ص ١٢٣-١٢٤.
(٤) المصدر ذاته، ج ٥، ص ٣٩٣-٣٩٦.
(٥) هو إبرهيم بن السندي بن شاهك يروي عنه الجاحظ كثيرا، وأبوه كان يلي الجسرين ببغداد للرشيد. وقد نعت الجاحظ إبراهيم بأنه مولى أمير المؤمنين، المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٢٣، وهو من فلاسفة المتكلمين، المصدر نفسه ج ٢، ص ١٤٠.
(٦) المصدر ذاته، ج ٣، ص ٢٨-٣٠.
(٧) المصدر ذاته، ج ١، ص ١٢٦.
(٨) المصدر ذاته، ج ٣، ص ١٧.
(٩) المصدر ذاته، نفسه، ص ١٨.
(١٠) هو عالم من سراة العلماء في القرنين الثاني والثالث، نشأ -فيما يبدو- مولى من موالي البرامكة، وتربى في ظلهم، فاتجه في الثقافة اتجاههم، وبذلك كانت ثقافته مزيجا من الفارسية واليونانية، وكان أحد ولاة المأمون على إقليم الأهواز. من ناحية الخلق النفسي كان شديد الصلف والاعتداد النفسي، كبير التيه أناني المذهب، فكان لهذا مبغوضا من المعتزلة وأهل السنة، انظر **مجموعة رسائل الجاحظ**، تحقيق محمد طه الحاجري، دار النهضة العربية، دمشق، ١٩٨٣، ص٣١-٣٢.
(١١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٢٠-٣٢٢.
(١٢) المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٣٧-٢٣٩.
(١٣) المصدر السابق، ج ٤، ص ١٧٢-١٧٣.

وديكه،[١] ولأبي شعيب القلال وهو صفري[٢] حكاية راهبين من الزنادقة.[٣]

وفي المقابل ذكر مجموعة من الحكايات لأعلام من المعتزلة والمتكلمين فأثبت لأبي إسحاق بن إبراهيم بن سيار النظام حكايته مع إبراهيم بن عبد العزيز كما أخبره بها.[٤] وحكاية محمد بن عبد الله.[٥]

وأورد لثمامة بن أشرس وهو أحد المعتزلة حديثا عن تشاجر الفئران،[٦] وروى كذلك عن مويس بن عمران[٧] حكاية اشتهاء ريح الكرياس.[٨]

ب- العجم:

وروى مجموعة حكايات عن الفرس، عنيت بالإخبار عن فيلة ملوكهم وكبرائهم، حيث جاء بثلاث منها في سياق حديثه عنها.[٩] كحكاية اغتلام فيل كسرى.[١٠] وسجود الفيل للملك،[١١] وأورد كذلك حكاية زيوشت المغني الذي هم كسرى بتسجيته تحت أرجل الفيلة.[١٢]

ونقل عن أفليمون اليوناني، صاحب كتاب "الفراسة" حكايتين في نفع الحمام.[١٣]

ج- الخرافات والأساطير

وقد استمد بعض الحكايات من الأساطير والخرافات التي ظهرت في تراث الأمم الغابرة.

فاستقى عددا منها من التراث العربي القديم، فاستلهم أسطورة تنادم الديك والغراب، وأسطورة طوق الحمامة من أحاديث العرب وأشعارهم، فعن الأولى، يقول : "ففي كثير من الروايات من أحاديث العرب أن ديكا كان نديما للغراب، وأنهما شربا الخمر عند خمار ولم يعطياه شيئا وذهب الغراب ليأتيه بالثمن حين شرب ورهن الديك، فخاس به[١٤] فبقي محبوسا"[١٥] وأما الأخرى: "فإن نوحا -صلى الله عليه وسلم- حين بقي في اللجة أياما بعث الغراب، فوقع على جيفة ولم يرجع، ثم بعث الحمامة لتنظر هل ترى في الأرض موضعا يكون

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٧٤.
(٢) الصفرية: فرقة من الخوارج، نسبوا على الأرجح إلى زياد بن الأصفر.
(٣) الجاحظ ، **الحيوان** ،مصدر سابق، ج ٤، ص ٤٥٧-٤٦٠.
(٤) المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٥١-٤٥٣.
(٥) المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٢٠-٣٢١.
(٦) المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٥٠-٢٥١.
(٧) كان من بخلاء الناس، وهو من معاصري الجاحظ، وكان من المتكلمين، حاشية **الحيوان**، المصدر ذاته، ج٢، ص ٥٨.
(٨) المصدر ذاته، ج ٥، ص ٤٦٨.
(٩) وردت تحت باب ما يدخل في ذكر الفيل، المصدر السابق، ج ٧، ص ٧٩-٢٣٨.
(١٠) المصدر نفسه، ص ١٧٩.
(١١) المصدر نفسه، ص ٢٠٥-٢٠٦.
(١٢) المصدر نفسه، ص ١١٣.
(١٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٨٤-٢٩٠.
(١٤) فخاس به: غدر به.
(١٥) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٣٢٠.

للسفينة مرفأ، واستجعلت على نوح الطوق الذي في عنقها[١] فوشاها بذلك، أي جعل ذلك جعـــلا لها.

وفي جميع ذلك كله يقول أمية بن أبي الصلت:

بآيـــة قام ينطـــــق كـــــل شيء وخان أمانة الديك الغـــــراب
وأرسلت الحمامـــــة بعـــــد سبـع تدل على المهالك لا تـــهـــــاب
تلمس هل ترى في الأرض عينـــــا وغايته من الماء العـــبـــاب
فجاءت بعدما ركضـــــت بقـطـف عليه الثأط والطيـن الكبـــاب[٢]
فلمـــا فرســـــوا الآيـات صـاغوا لها طوقا كما عـقـد السخـــاب[٣]

وعلى حد زعم أهل الشام والبحرين وإنطاكية روى أسطورة تنين إنطاكية، الذي خـــرج من البحر ومر فوق مدينتهم فحذف الجزء الأعلى من منارة مسجد تلك المدينة.[٤]

ومن معتقدات المجوس استلهم خرافة العظاءة التي كانت آخر من حضر مجلس إبليـــس يوم أن قسم الشر والسموم، فحزنت حزنا شديدا لما فاتها من نصيبها.[٥]

وقد ندر وجود الحكايات الذاتية بنوعيها في كتاب الحيـــوان بالمقارنـــة مـــع الحكايـات الغيرية، وربما عاد ذلك إلى أن الجاحظ لم يكن قاصا في هذا الكتاب بل كان راويا عن غيره فـي الدرجة الأولى.

---

(١) استجعل: طلب الجعالة.
(٢) الثأط : الطين الأسود ، الكباب: الطين اللازب.
(٣) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٢، ص ٣٢١.
(٤) المصدر ذاته، ج ٤، ص ١٥٤.
(٥) المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٥٩-٤٦٠.

وظائفها:

١- التعليم :

تشكل الحكاية في كتاب الحيوان دائرة من المعارف المتنوعة التي تتصل بالإنسان والحيوان، فكانت ظهيرا للمتن المعرفي في إيصال المعلومة للقارئ وترسيخها في ذهنه. فقد لجأ الجاحظ إلى استخدام الحكايات في كتابه كوسيلة تعليمية "لمعرفته بأنها من الأشياء التي يميل إليها الإنسان، وإن دورها في التربية كبير، إذ تعمل على جذب الانتباه والتشويق، مما يهيئ للإنسان استقبال المادة المروية عن طريق القصة. إضافة لما لها من أثر عظيم في نفوس المتعلمين وخاصة إذا وضعت في أسلوب عاطفي مؤثر".(١)

ويمكن أن نلمس ذلك في غير موضع من الكتاب، فقد أردف حديثه عن العديد من الحيوانات بحكاية تفسر عبارته وتحكم فكرته، فتبدو أكثر عمقا ونضجا في نظر القارئ.

فاتبع حديثه عن طبيعة التشاجر بين الجرذان في حال تقابل جحريهما بحكاية تفسر ذلك، يقول: "وإذا تقابلت جحرة الفأر، وخلا لها الموضع، فبينها شر طويل، ولكنه لا يعدو الوعيد والصخب، ولا يلتقي منهما اثنان أبدا. وحدثني ثمامة بن أشرس قال كان بقي في الحبس جحر فأر، وتلقاءه جحر آخر، فيرى لكل واحد منهما وعيدا وصياحا ووثوبا، حتى يظن أنهما سيلتقيان ثم لا يحتجزان حتى يقتل كل واحد منهما صاحبه. فبينا كل واحد منهما في غاية الوعيد، إذ مر هاربا حتى دخل جحره، فما زالا كذلك، حتى أتى الله تعالى بالفرج وخلي سبيلي".(٢)

واستعان بها في سياق شرحه عن الكلب، فحين تحدث عن جبن الكلب وخنوعه،(٣) ووفائه لصاحبه،(٤) وكشف عن مظاهر من ذكائه كمعرفته له،(٥) وتعلمه مجموعة من الأمور،(٦) جاء بحكايات تبين ذلك وتوضحه.

وقد ساهمت الحكايات في بيان نفع بعض الحيوانات وضرها، من خلال ما سردت من تجارب وأحداث تتعلق بها، فكشفت عن فائدة الحمام في المراسلات، وفي استمالة قلوب النساء

---

(١) محمد سعيد القزاز،**الفكر التربوي في كتابات الجاحظ**، ط١، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٩٥، ص ٢٠٤.
(٢) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٦٤-١٦٥.
(٣) المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٢١-٤٢٢.
(٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢٢-١٢٣.
(٥) المصدر السابق، ص ١٢٨-١٢٩.
(٦) المصدر السابق، ١٢٩-١٣٠.

المستعصية وترقيقها.[١] وبينت أن الذباب يأكل البعوض ويخلص الإنسان منه.[٢]

وفي المقابل، كانت الحكايات عونا للمتن المعرفي فيما عرض من ضرها وأذاها، فذكر عددا منها ليبين مدى تأذي الناس من الذباب وتضايقهم، فقد عانى من ذلك الجاحظ نفسه،[٣] والقاضي عبد الله الذي اضطر إلى كسر جموده، والخروج عن طباعه،[٤] وشيخ الخريبة الذي لم يستطع تناول الطعام والشراب أثناء سفره في سفينة محملة بالباقلاء لكثرة الذباب فيها.[٥]

وساق بعضها ليكشف مدى الأذى الذي يوقعه البعوض في الإنسان، فابن سافرى دفع خمسين دينارا لأبي حكيم الكيميائي مقابل تخليصه منه،[٦] وتركت عضة البعوض أثرا منفرا في جبهة شيخ اليمانية الذي كان ينزل عمامته إلى حاجبيه ليواري ذلك.[٧] وقد أودى البعوض بحياة أحد سكان زقاق الهفة، حيث انتشرت سمومه في جسده.[٨]

لقد جعل الجاحظ الحكاية ركنا أساسيا في العملية التعليمية لأن الإنسان يميل بطبعه إلى التعليم غير المباشر، فيحدث أثرا في نفسه أكبر من التعليم المباشر، فضلا عن أنها تحتوي على خبرات وتجارب وأخبار جمة، كانت رافدا رئيسا للمتن المعرفي في هذا الكتاب.[٩]

٢- التربية والتوجيه:

عنيت الحكاية في كتاب الحيوان بالجانب التربوي والإرشادي أيما عناية، فهي غنية بالعظات والدروس والعبر، مما أمكنها أن تلعب دورا كبيرا في تنظيم سلوك الإنسان وضبطه، فقد (استخدم الجاحظ القصة كلون من ألوان التربية، وترجع أهميتها في هذا المجال إلى كونها تمس الوجدان وتستثيره، وقد جاءت القصة في مواضع كثيرة في كتابات الجاحظ وكان لكل قصة من القصص التي ساقها هدف تربوي يمكن استخلاصه للاستفادة منه).[١٠]

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٨٤-٢٩٠.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٠-٣٢٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٤٦.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣٤٣-٣٤٦.
(٥) المصدر نفسه، ص ٣٥٦-٣٥٧.
(٦) المصدر نفسه، ص ٣٨٥-٣٨٨.
(٧) المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٩٣-٣٩٦.
(٨) المصدر نفسه، ص ٣٩٩-٤٠٠.
(٩) يمكن ملاحظة ذلك في موضوعات الحكاية بوضوح، الرسالة ص١١.
(١٠) محمد القزاز، **الفكر التربوي في كتابات الجاحظ**، مرجع سابق، ص ٢٩.

فقد نثر عددا لا بأس به منها في تضاعيف كتابه، لامس به فؤاد القارئ وخاطب لـبه.

وقد أبدع الجاحظ في توظيف الحكاية، وخاصة تلك التي تناولت أخبـارا غريبـة عـن الحيوان في الاستدلال بالخلق على الخالق. فوجه من خلالها الدعوة إلى التفكـر والتدبـر فـي مخلوقات الله تعالى وعظيم صنعه، والقوة الكامنة وراء تلك الفعال المثـيرة للمخلوقـات غـير العاقلة، فقدمت الدليل تلو الدليل على قدرته تعالى، بإلهامه لها وتسييره إياها.

فقد جعلت الكلبة سببا لبقاء ذلك الرضيع حيـا، حين نجا دون أهل بيته مـن الطـاعون، فحنـت عليه وأرضعته مع أجرائها عدة أشهر.(١) ويعقـب الجاحظ علـى الحكايـة موضحا فيقول: "والذي ألهم هذا المولود مص إبهامه ساعة يولد من بطن أمه ولم يعرف كيفيـة الارتضاع، هو الذي هداه إلى الارتضاع من أطباء الكلبة. [ولو] لم تكن الهداية شيئا مجهولا فـي طبيعته لما مص الإبهام وحلمة الثدي، فلما أفرط عليه الجوع واشتدت حاله، وطلبت نفسه وتلـك الطبيعة فيه، دعته تلك الطبيعة وتلك المعرفة إلى الطلب والدنو. فسبحان من دبر هـذا وألهمـه وسواه، ودل عليه !!".(٢)

وقد بينت إحداها كيف ألهم الله تلك الأفعى للاحتيال على العصـافير وصغـار الطـير لاصطيادها بأعجوبة تثير الانتباه وتشحذ العقل على التدبر والتفكر. "حدثنا أبو جعفـر المكفـوف النحوي العنبري، وأخوه روح الكاتب ورجال من بني العنبر، أن عندهم في رمال بلعنـبر حيـة تصيد العصافير وصغار الطير بأعجب صيد، زعموا أنها إذا انتصف النهار واشتد الحـر فـي رمال بلعنبر، وامتنعت الأرض على الحافي والمنتعل، ورمض الجندب، غمست هذه الحية ذنبـها في الرمل، ثم انتصبت كأنها رمح مركوز، أو عود ثابت، فيجيئ الطائر الصغـير أو الجـرادة، فإذا رأى عودا قائما وكره الوقوع على الرمل لشدة حره، وقع على رأس الحية، على أنها عـود. فإذا وقع على رأسها قبضت عليه. فإن كان جرادة أو جعلا أو بعض ما لا يشبعها مثله ابتلعتـه وبقيت على انتصابها. وإن كان الواقع على رأسها طائرا يشبعها مثله أكلته وانصرفت".(٣)

وقد تعجب الجاحظ من اهتداء الحية لتلك الحيلة واحتمالها حرارة الرمل العالية، وجـهل الطير في التفريق بينها وبين العود.(٤)

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٥٥-١٥٦.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٦.
(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٠٧-١٠٨.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٠٨.

وحملت لنا الحكايات عددا من التوجيهات والقيم لتساهم في تنظيم السلوك الإنساني وتقويمه، "فليس هدف القصة عند الجاحظ مجرد السرد القصصي، والمتعة الفنية، بل إن المغزى التربوي للقصة يكاد أن يكون هدفه الأسمى".(١)

ففي حكاية القاضي عبد الله وإلحاح الذباب دعوة للتواضع والبعد عن الكبر. فإن إلحاح الذباب عليه دفعه إلى تغيير هيئته أمام أمنائه وجلسائه، حيث كان دائم السكون لا يتحرك، ولا يتكئ، ولا يشير بيده، أو رأسه ... طوال مجلسه، إلا أنه يتكلم فيوجز، ويبلغ في الكلام اليسير المعاني الكثيرة. فحين نظر إليه الحاضرون، وقد خرج عن عادته، وكسر جموده بتحريك يده لطرد الذباب، أيقن أن الله ابتلاه بأضعف خلقه ليؤدبه ويهذبه. فقد قال : "أشهد أن الذباب ألح من الخنفساء، وأزهى من الغراب! وأستغفر الله! فما أكثر من أعجبته نفسه فأراد الله عز وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستورا ! وقد علمت أني عند الناس من أزمت الناس، فقد غلبني وفضحني بأضعف خلقه"،(٢) ثم تلا قوله تعالى: { وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب}(٣).

ودعت الحكايات إلى العفة والاستقامة والإقلاع عن المعصية وحذرت من سوء العاقبة والانحراف والتعدي على حدود الله، من خلال المصير المفزع والمروع الذي لقيه المنحرفون والمنحلون، فقد دفعت نساء لقمان أرواحها لقاء خيانتها.(٤)

وسلط الله على المرأة التي اعتادت الزنى وقتل وليدها كلما أنجبت، الأفاعي فنهشتها حتى ماتت.(٥) وقد رأى المحتسب الأحدب فارس الحمامي يكوم كلبة، فرماه بحجر على رأسه.(٦) فكلهم انتهى إلى الموت بصور مختلفة، كل واحدة منها أبشع من أختها.

٣- الاستدلال:

أورد الجاحظ مجموعة من الحكايات في الحيوان ليستدل بها على ما يطرح من موضوعات، وخاصة تلك التي تتعلق بالحيوانات. فقد أشار إلى أن كتاب الحيوان لم يأت لينتصر لمذهب دون آخر، أو يفضل عالما على آخر، "فإن لكل صنف من هذه الأصناف شيعة، ولكل رجل من هؤلاء [الرجال] جندا وعددا يخاصمون عنهم. وسفهاؤهم المتسرعون منهم كثير، وعلماؤهم قليل، وأنصاف علمائهم أقل".(٧) وقد ألحق كلامه هذا بحكاية استدل بها على صفاتهم التي ذكرها، يقول : "ولا تنكر هذا -حفظك الله- أني رأيت رجلين بالبصرة على باب

---

(١) القزاز، **الفكر التربوي في كتابات الجاحظ**، مرجع سابق، ص ٢٠٥.
(٢) الجاحظ، **الحيوان**، **مصدر سابق**، ج ٣، ص ٣٤٤-٣٤٥.
(٣) سورة الحج (آية ٧٣).
(٤) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ١، ص ٢١.
(٥) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٥١.
(٦) المصدر ذاته، ج ١، ص ٣٧٢.
(٧) المصدر السابق، ج ٧، ص ٧-٨.

مـــويس بن عمران، تنازعا في العنب النـــيروزي والرازقي، فجرى بينهما اللعيـــن حتـــى تواثبا، فقطع الكوفي إصبع البصري، وفقأ البصري عين الكوفي، ثم لم ألبـــث إلا يســـيرا حتـــى رأيتهما متصافيين متنادمين لم يقعا قط على مقدار ما يغضب من مقادر ما يرضي، فكيف يقعـــان على مقادير طبقات الغضب والرضا ؟! والله المستعان."[١]

وحين تناول الخصاء تحدث عنه عند الصابئة، وأبان عن هدفهم منه، وقـــد أشـــار إلـــى خصاء أبي المبارك الصابي وأنه واسع الفهم، غزير العلم، في هذا الموضوع، على الرغم مـــن تجاوزه المائة، وأتبع حديثه هذا بحكاية كدليل على ما ذكر عن ذلك الرجل.[٢]

وساق عددا منها حجـــجا وبراهين بين المتناظرين، فقد رد في سياق "منـــاظرة الكلـــب والديك" على من اعتقدوا بأن داء الكلب يلحق بالمصاب أعراضا غريبة، فينبح ويبول كـــالكلب، ... بحكاية روى من خلالها قصة ذلك الصبي الذي عضه كلب ولم يصب بشيء ممـــا ذكـــروا، يقول : "وأنا حفظك الله تعالى، رأيت كلبا مرة في الحي، ونحن في الكتاب، فعرض لـــه صبـــي يسمى مهديـــا من أولاد القصابين، وهو قائم يمحو لوحه فعض وجهه فنقع ثنيـــتـــه دون موضع الجفن من عينه اليسرى، فخرق اللحم الذي دون العظم إلى شطر خده، فرمى بـــه ملقيـــا على وجهه وجانب شدقه، وترك مقلته صحيحة، وخرج منه من الدم ما ظننت أنه لا يعيش معـــه، وبقي الغلام مبهوتا قائما لا ينبس، وأسكته الفزع، وبقي طائر القلب، ثم خيـــط ذلـــك الموضـــع، ورأيته بعد ذلك بشهر وقد عاد إلى الكتاب وليس في وجهه من الشـــتر،[٣] إلا موضـــع الخيـــط الذي خيط، فلم ينبح إلى أن برئ، ولا هر ولا دعا بماء، حتى إذا رآه صـــاح : ردوه ! ولا بـــال جروا ولا عـــلـــقـــا، ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير. ولم أجد أحدا من تلـــك المشـــايخ، يشك أنهم لم يروا كلبا قط أكلب ولا أفسد طبعا منه. فهذا الذي عاينت، وأما الـــذي بلغنـــي عـــن هؤلاء الثقات فهو الذي قد كتبته لك".[٤]

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٧، ص ٨.
(٢) المصدر ذاته، ج ١، ص ١٢٥-١٢٨.
(٣) الشـــتر : القطع.
(٤) المصدر ذاته، ج ٢، ص ١٤.

وجاء ببعضها شواهد نقدية، ففي باب "من أراد أن يمدح فهجا"، ساق عدداً من الحكايات والأخبار التي تدل على ذلك، ومنها الحكاية التالية: "رجع أبو العطاف من عند عمرو بن هداب في يومين كانا لعمرو، وأبو العطاف يضحك، فسُئلَ عن ذلك فقال : أما أحد اليومين فإنه جلس للشعراء، فكان أول من أنشده المديح فيه طريفُ بن سَوادةَ فما زال ينشده أرجوزة طويلة حتى انتهى إلى قوله:

أبرصُ فياضُ اليَدين أكلفُ والبُرصُ أندَى باللَّهى وأعرفُ

مُجلوّدٌ في الزَّحفات مِزحفُ"

المجلوذ: السريع.

وكان عمرو أبرصَ فصاح به الناسُ : مالك ؟ قطع الله لسانَك !] قال عمرو : مَه، البَرَصُ من مفاخر العرب. أما سمِعتُم ابن حبناء يقول:

إني امرؤٌ حنظليٌّ حين تنسُبُني لا مِل عتيك ولا أخواليَ العَوَقُ

لا تحسبنَّ بياضاً فيَّ مَنقصَة إن اللّهاميمَ في أقرابها بلَق

... وأما اليوم الآخر، فإن عمراً لما ذهب بصرُه، ودخل عليه الناس يعزُّونَه، دخل عليه إبراهيم بن جامع، وهو أبو عتّاب من آل [أبي] مَصاد، وكان كالجَمل المحجوم، فقام بين يدي عمرو فقال : يا أبا أسَيِّد لا تجزعنَّ مِن ذهابِ عينَيك وإن كانتا كريمتيك، إنك لو رأيتَ ثوابَهما في ميزانك تمنيتَ أن يكون الله عز وجل [قد] قطعَ يديكَ ورجليك، ودقَّ ظهرك، وأدمى ضِلعَك. قال : فصاح به القوم، وضحك بعضهم فقال عمرو : "مقاله صحيح ونيته حسنة، وإن كان قد أخطأ في اللفظ".[1]

٤- النقد والتهكم:

وجه الجاحظ من خلال الحكاية سهامه إلى خصومه، بأسلوب السخرية والتهكم على أسس فكرية وعلمية، لا على عداوات فردية وعصبيات مذهبية، فالتزم بمنهج المعتزلة، فالتهكم عندهم "نوع من الترقية لفن الهجاء في الأدب العربي، والتسامي به من أن يكون صدى لعداوات شخصية، ووسيلة إلى التشفي والانتقام، فهم حينما يتهكمون ينتقدون، ويضحكون، ولكنهم لا

---

(١) الجاحظ، **الحيوان، مصدر سابق**، ج ٥، ص ١٦٤-١٦٨.

يحقدون، ولا يكرهون".[١]

فنقد عددا من الشخصيات والفرق الإسلامية التي كانت مباينة لفكره ومناهضة للدولة العباسية التي كان مؤيدا لها. من خلال ما ساق من حكايات كشف فيها عقم مجموعة من أفكارها وزيف معتقداتها، وأبان عن انحرافاتها وشططها عن المسار السوي.

فقد عبر في إحداها عن تأييده للمأمون الذي كان نصيرا للمعتزلة في صراعه مع الأمين، وقد لمسنا ذلك من تسميته له بالمخلوع، وتحدث عن مجونه وانغماسه في الشهوات، فقد ذهب إلى الحانات والمقامرين في قطربل،[٢] فهو يشتهي أن يسمعهم ويرى مجلسهم في الوقت الذي كانت جيوش أخيه تحاصر بغداد و لم يأبه لذلك.[٣]

وكأن الجاحظ من خلال الحكاية السالفة يريد أن يسوغ للمأمون خلع الأمين لأنه الأتقى والأنقى.

وتندر بالإباضية وسفه عقولهم، من خلال حكايتين جاءتا في سياق مجموعة من الحكايات والنوادر، عرض فيها حجج عدد من الأغبياء، وقد أشار فيهما إلى قولين لختن أبي بكر بن بريرة أحد مشايخهم، استند فيهما إلى حجج واهية ضعيفة. وقد أدخل الجاحظ نفسه طرفا فيهما، فكان هو السائل والمحاور لذلك الشيخ في كلتيهما. مما أكسبهما دلالة أعمق في النقد والتهكم.

فقد ذهب في الحكاية الأولى إلى قول الإباضية بأن الاستطاعة مع الفعل خلافا لتصور المعتزلة الذين يرون أن الاستطاعة تسبق الفعل.

يقول الجاحظ: "دخلت على ختن [أبي بكر بن] بريرة، وكان شيخا ينتحل قول الإباضية، فسمعته يقول : العجب ممن يأخذه النوم وهو [لا] يزعم [أن] الاستطاعة مع الفعل، قلت: ما الدليل على ذلك ؟ قال: الأشعار الصحيحة. قلت: مثل ماذا ؟ قال: مثل قوله:

ما إن يقعن الأرض إلا وقفا

ومثل قوله :

يهوين شتى ويقعن وقفا

ومثل قولهم في المثل : "وقعا كعكمي عير"

---

(١) عبد الحكيم بلبلع، **أدب المعتزلة، إلى نهاية القرن الرابع الهجري**، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٩، ص٢٩٦.
(٢) قطربل : قرية بين بغداد وعكبرا.
(٣) الجاحظ، **الحيوان، مصدر سابق**، ج ٥، ص ٣٨١-٣٨٢.

وكقوله أيضا:

مكر مفـــــــر مقبل مدبر معـــا كجلمود صخر حطه السيل من عل

وكقوله: أكف يدي عن أن تمس أكفهم إذا نحـــن أهوينـــا وحاجتنا معا

ثم أقبل علي، فقال : أما في هذا مقنع ؟ قلت : بلى، وفي دون هذا !"[١]

وقد غضب في الحكاية الثانية لذكر الشيعة أمامه، وأبدى كراهته لهم وأنكر ذلك، فسـأله الجاحظ عن السبب، فأجاب : "أنكرت منه مكان الشين التي في أولها، لأني لم أجد الشـين فـي أول كلمة قط إلا وهي مسخوطة، مثل : شؤم وشر، وشيطان، وشح ..."، فقال له: مـا سـمعت متكلما قط يقول هذا ولا يبلغه، ولا يقوم لهؤلاء القوم قائمة بعد هذا.[٢]

وعرض بالشيعة الذين ناصبوا الدولة العباسية العداء، وكان على خلاف فكري معـهم، من خلال خشنام بن هند، شيخ من الغلاة، وأبي لقمان الذي بدا متشيعا.

فقد جاء بحكايتين عن خشنام بن هند كشف في الأولى عن سـفهه وانحـراف عقيدتـه وخبث نفسه، فقد دفعه حقده إلى الفحش بالقول على صحابة رسول الله-صلى الله عليه وسـلم-، "فكان شيخا من الغالية وكان ممن إذا أراد أن يسمي أبا بكر وعمر قال : الجبـت والطـاغوت، ومنكر ونكير... وكان لا يزال يدخل داره حمار كساح[٣] ويضربه مائة عصا على أن أبـا بكـر وعمر في جوفه."[٤]

فلا ندهش لما سمعنا عن هذا الرجل ولا نستبعد ما ذهب إليه، فقد قال عنـه الجـاحظ : "ولم أر قط أشد احترافا[٥] منه. وكان مع ذلك نبيذيا وصاحب حمـام ويشـبه فـي القـد والخرط شيوخ الحربيـة[٦]".

وأتبع الحكاية السالفة مباشرة بأخرى ليطمئن القارئ ويذهب عنه الحيرة والدهشة فـهي دليل على سوء خلقه وضيق أفقه وخيانته. فحين طلق زوجته راوغها ليواقعها قبل أن يرجعـها حتى تكون زانية يحل له قذفها.[٧]

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٣، ص ٩-١٠.
(٢) المصدر ذاته، ص ٢٢-٢٣.
(٣) كساح: كناس، المكسحة: المكنسة.
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٠.
(٥) الاحتراف: الفقر.
(٦) محلة كبيرة ببغداد تنسب إلى حرب بن عبد الله البلخي أحد قواد المنصور. نفسه، ص ٢٠.
(٧) المصدر نفسه، ص ٢٠-٢١.

وضرب أبو لقمان الممرور مثلا في الجهل والغباء حين أراح عقله من التفكير، وقاده تعصبه الأعمى لتشيعه، فأخذ يهرف فيما لا يعرف حين سئل عن الجزء الذي لا يتجزأ، فرد جوابا يحمل في طياته الحقد الدفين على بعض الصحابة والتابعين، فقال : الجزء الذي لا يتجزأ علي بن أبي طالب وحمزة، وجعفر، ومعاوية، والعباس. وهؤلاء جميعا يحبهم الشيعة ويؤيدونهم. ويعني بذلك أنهم على قدر من الفهم والعلم والفلسفة. وحين سئل عن أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- قال : يتجزآن. وأما عثمان -رضي الله عنه-: فيتجزأ مرة، والزبير مرتين.(١) وعنى بذلك أنهم ليسوا على مرتبة عالية من الفهم والعلم، والمنزلة المعتبرة بين الناس.

ويعقب الجاحظ على تلك الحكاية محاولا توضيح ما ذهب إليه فيقول : "فقد فكرنا في تأويل أبي لقمان حين جعل الإمام جزءا لا يتجزأ إلى أي شيء ذهب، فلم نقع عليه إلا أن يكون كان أبو لقمان سمع المتكلمين يذكرون الجزء الذي لا يتجزأ، هاله ذلك وتوهم أنه الباب الأكبر من علم الفلسفة، وأن الشيء إذا عظم خطره سموه بالجزء الذي لا يتجزأ".(٢)

لقد جاء نقد الجاحظ بأسلوب ذكي وغير مباشر حين أورد جميع الحكايات المتعلقة بنقد الشيعة والإباضية في سياق مجموعة من نوادر الأغبياء وحكاياتهم الذين لا يحسنون الفهم والقول والحوار. وعدها جميعا من السخافات، واعتذر من القارئ لمجيئها بقصد التسلية والترويح مخفيا بذلك الهدف المنشود منها ودافعا عن نفسه اللوم والحرج مع تلك الجماعات التي استطاع توجيه النقد اللاذع لها بروح تهكمية عالية.

٥- التشويق والترويح:

يشكل عدد كبير من الحكايات، وخاصة الفكاهية منها، في كتاب الحيوان مستراحا وجماما، يفيئ إليه القارئ من عناء الاطلاع ورتابة الموضوعات وجفافها، وقد نوه الجاحظ بذلك فقال : "وعلى أني قد عزمت -والله الموفق- أني أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه، بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل، فإني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة، إذا طال ذلك عليها. وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلة، وإذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح، وما

---

(١) الجاحظ، **الحيوان، مصدر سابق**، ج٣، ص ٣٧-٣٨.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٨.

غايتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيرا".[١] فجعل منها متنفسا يروح به المتلقي عن نفسه ويسترجع من خلاله نشاطه للمضي مع كتابه دون كلل أو ملل. فجاءت فواصل بين الموضوعات والأبواب والأجزاء. يقول : "وعلى أني ربما وشحت [هذا الكتاب] وفصلت فيه بين الجزء والجزء بنوادر كلام، وطرف أخبار، وغرر أشعار، مع طرف مضاحيك".[٢]

فقد ختم الجزء الثاني بحكاية سهل بن هارون وديكه، وافتتح الجزء الثالث بمجموعة من النوادر والحكايات.

وقد نبه إلى مجيء بعضها وبين الهدف منه. "وإن كنا قد أمللناك بالاحتجاجات الصحيحة والمروجة لتكثر الخواطر وتشحذ العقول فإنا سننشطك ببعض البطالات، وبذكر العلل الطريفة، والاحتجاجات الغريبة ....".[٣] وقال: "وأنا أستطرف أمرين استطرافا شديدا، أحدهما استماع حديث الأعراب والأمر الآخر احتجاج متنازعين في الكلام، وهما لا يحسنان منه شيئا. فإنهما يثيران من غريب الطيب ما يضحك كل ثكلان. وإن تشدد، وكل غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب ... وسنكثر من هذا الشكل عللا، ونورد عليك من احتجاجات الأغبياء حججا. فإن كنت ممن يستعمل الملالة وتعجل إليه السآمة، كان هذا الباب تنشيطا لقلبك وجماما لقوتك، ولنبتدئ النظر في باب الحمام وقد ذهب [عنك] الكلال وحدث النشاط".[٤] فلم يأت بالحكاية عبثا بل لها وظيفة تربوية في كتابه، فهي تساهم في تنزيه القارئ وتشويقه، وإعانته على مواصلة النظر فيه.

ثم أتبع قوله هذا بعدد من حكايات الحمقى والجهلاء ونوادرهم، التي افتتح بها المصحف الثالث من كتابه هذا قبل أن يبتدئ بباب الحمام.[٥]

وقبل مضيه في باب الجد من ذكر الجن جاء بثلاث حكايات إلى جانب عدد من النوادر ليشوق القارئ ويهيئ نفسيته لمتابعة هذا الباب الذي يحتاج كما يبدو إلى يقظة وانتباه شديدين.[٦]

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٣، ص ٧.
(٢) المصدر السابق، ج ٦، ص ١٥.
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص ٥.
(٤) المصدر نفسه، ص ٦.
(٥) المصدر نفسه، ص ٩-٣٨.
(٦) المصدر السابق، ١ ص ٢٥٩- ٢٦٤.

وجاء ببعضها كاستطرادات في تضاعيف الموضوعات. ففي سياق حديثه عن الضبع أورد حكاية حديث امرأة وزوجها وحكاية معاوية وجارتيه الخراسانية ثم استأنف الحديث عن الضبع.[١]

وفصل بين حديثه عن نتن التيوس ونتن العنز بحكاية المكي الذي تزوج جارية ذات صنان[٢]، وحكاية ذلك الرجل الذي كان مولعا بريح الكرياس.[٣]

وفي باب ما يشبه بالكلب وليس منه، جاء بحكاية تحدث بها عما طلب أبو دلامة من أبي العباس السفاح لمجرد أن كلبا يصيد له كان من بين ما طلب.[٤]

يتبين مما سبق أن الجاحظ سعى جاهدا لإراحة القارئ وتخفيف العبء عنه من خلال الحكايات التي نثرها في كتابه كلما سنحت الفرصة بذلك. والتي غالبا ما كانت بعيدة عن السياق، أو على علاقة واهية به.

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٦، ص ٤٥١-٤٥٢.
(٢) المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٦٧.
(٣) المصدر نفسه، ص ٤٦٨.
(٤) المصدر السابق، ج٢، ص ١٧٠-١٧١.

ثانيا- المثل

مدخل:

يحسن بنا عند الحديث عن المثل تناول الحكمة أيضا لبيان أقوال العلماء فيها ومحاورتها، إذ ذهبوا في ذلك إلى اتجاهين:

فمنهم من يرى أن كل مثل حكمة قام عليها ابتداء.

ومن هؤلاء أبو عبيد القاسم بن سلام (ت : ٢٢٤هـ/٨٣٩م)، إذ أشار إلى مثل ذلك في كتابه "الأمثال"، فقال : "هذا كتاب الأمثال، وهي حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها، فتبلغ ما حاولت من حاجاتها في المنطق، بكناية غير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه".(١)

ويقول الفارابي (ت: ٣٥٠هـ/٩٦١م) في كتابه "ديوان الأدب"، حسبما يروي عنه السيوطي في "المزهر" : "المثل : ما ترضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه، وابتذلوه فيما بينهم، وفاهوا به في السراء والضراء، واستدروا به الممتنع من الدر، ووصلوا به إلى المطالب القصية، وتفرجوا به عن الكرب والمكربة، وهو من أبلغ الحكمة، لأن الناس لا يجتمعون على ناقص، أو مقصر في الجودة، أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النفاسة".(٢)

ومن المعاصرين من يرى "أن الصلة بين الحكمة والمثل هي صلة الأصل بالفرع، فالأصل هو الحكمة، ومنها تولد المثل، ومن هنا كان أدب الحكمة في نظر الدارسين أعم من أدب الأمثال، لأن كل مثل حكمة، وليس كل حكمة مثلا".(٣)

ويخلص حنا الفاخوري بعد أن عرض لمعاني الحكمة والمثل إلى القول : "إن الحكمة والمثل من جوامع الكلم، وإن الحكمة تفيد معنى واحدا، من نهي أو أمر أو إرشاد، وإن المثل يفيد معنيين : معنى ظاهرا، ومعنى باطنا. أما الظاهر فهو حدث من أحداث التاريخ، أو ما إلى ذلك. وأما الباطن فيرجع إلى الحكمة والإرشاد، وهكذا تلتقي الحكمة والمثل في المؤدى،

---

(١) أبو عبيد القاسم بن سلام (ت: ٢٢٤هـ/٨٣٩م)، **كتاب الأمثال**، تحقيق عبدالمجيد قطامش، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ١٩٨٠، ص٣٤.

(٢) جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، (ت: ٩١١هـ/١٧٩٤م)، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، ١٩٨٦، ج١، ص ٤٨٦.

(٣) محمد عويس، **الحكمة في الشعر العربي**، مكتبة الطنيعة، أسيوط، ج ١، ص ٢٩٧.

وهكذا يجري الواحد على أقلام بعض الكتاب في موضع الآخر".[١]

ويرى مجدي وهبة أن المثل والحكمة بمعنى واحد: "المثل المتداول، المثل السائر: حكمة كثيرة الذيوع من قديم، تتضمن ملاحظات عامة، وغالبا ما تكون في أسلوب مجازي"،[٢] "المثل الحكمة: عبارة موجزة يتداولها الناس، تتضمن فكرة في مجال الحياة البشرية وتقلباتها، وتصاغ عادة بأسلوب مجازي يستميل الخيال ويسهل حفظه".[٣]

ومما يلاحظ على أصحاب هذا الرأي التعميم بالقول، إذ اعتبروا الأمثال على إطلاقها حكما في الأصل، وهذا مجانب للدقة والصواب، فليست كلها كذلك، فكثير منها لم يقم على حكمة، وإنما نشأ بسبب حادثة أو قصة، أو من أجل التشبيه أو الوصف.

ومنهم من يرى أن الحكمة تصبح مثلا إذا سرت بين الناس وعم استعمالها.

ومن أصحاب هذا الرأي أبو هلال العسكري (ت : ٣٩٥هـ/١٠٠٥م) حيث يقول: "ثم جعل كل حكمة سائرة مثلا. فقد يأتي القائل بما يحسن أن يتمثل به، إلا أنه لا يتفق أن يسير فلا يكون مثلا".[٤]

ومال مجدي وهبة إلى قريب من هذا كما مر آنفا، فضلا عن أنه يعرف الحكمة بأنها: "القول المأثور الذي يتضمن معنى حكميا يضرب مثلا بين الناس".[٥]

يتبين أن حكم هؤلاء عام ومطلق، فقد جعل أبو هلال التواصل بين المتلقي والنص معيارا يفرق فيه بين الحكمة والمثل، ولم يتنبه إلى أن هناك فوارق بين بعض الحكم وبعض الأمثال، تحول دون التقائها، أو إمكانية لعب كل منها دور الآخر.

وللباحث تصور ثالث ربما يتعارض بعض الشيء مع التصورين السابقين، ولا بد من عرض أهم المعاني اللغوية والاصطلاحية للمثل والحكمة عند بعض العلماء، لتكون مدخلا إلى ما سنذهب إليه.

يفهم من الأصل الثلاثي لكلمة (مثل) المثيل والنظير والشبيه.

---

(١) حنا الفاخوري، **الحكم والأمثال**، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ص ٩.
(٢) مجدي وهبة، **معجم مصطلحات الأدب**، مرجع سابق، ص ٥.
(٣) المرجع ذاته، ص ٤٤٨.
(٤) أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري (ت: ٣٩٥هـ/١٠٠٥م) **جمهرة الأمثال**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبدالمجيد قطامش، ط ٢، دار الجيل، بيروت، ج ١، ص ٧.
(٥) مجدي وهبه، **معجم مصلحات الأدب**، مرجع سابق، ص ٥١٠.

(والمثل والتمثيل كالمثل والجمع أمثال، وهما يتماثلان، وقولهم: فلان مسترد لمثله. والمثل الشيء الذي يضرب لشيء مثلا فيجعل مثله، ويقال : امتثلت مثال فلان، احتذيت حذوه، وسلكت طريقته).[١]

وقال ابن السكيت (ت : ٢٤٣هـ): "المثل: لفظ يخالف لفظ المضروب له، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ، شبهوه بالمثال الذي يعمل عليه غيره".[٢]

وقال المبرد (ت : ٢٨٥هـ) "المثل: مأخوذ من المثال، وهو قول سائر يشبه به الثاني بالأول، والأصل فيه التشبيه، فقولهم (مثل بين يديه) إذا انتصب معناه أشبه الصورة المنتصبة، وفلان أمثل من فلان" أي أشبه بما له من الفضل، والمثال القصاص لتشبيه حال المقتص منه بحال الأول، فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول، كقول كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا وما مواعيدها إلا الأباطيل

فمواعيد عرقوب علم لكل ما لا يصح من المواعيد".[٣]

وقال أبو هلال العسكري: "أصل المثل التماثل بين الشيئين في الكلام، كقولهم: (كما تدين تدان)، وهو من قولك: هذا مثل الشيء ومثله، كما تقول: شبهه وشبهه".[٤]

وقال الميداني (ت:٥١٨هـ) "فمثل الشيء ومثله وشبهه وشبهه بما يماثله ويشابهه قدرا وصفة ... فالمثل ما يمثل به الشيء: أي يشبهه، ويقال : مثلك ومثل فلان، أي صفتك وصفته، ومنه قوله تعالى: {مثل الجنة التي وعد المتقون}[٥]، أي صفتها".[٦]

وقال إبراهيم النظام (ت: ٢٢١هـ) "يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة".[٧]

وأما الحكمة فمن أشهر معانيها اللغوية:

العلم والفقه: قال تعالى: {وآتيناه الحكم صبيا}[٨]، أي علما وفقها.

المنع والزجر: فالعرب تقول : "حكمت وحكمت" بمعنى منعت رددت، ولهذا قيل للحاكم بين الناس حاكما، لأنه يمنع الظالم من ظلمه، يقال : "أحكمت السفيه وحكمته"، إذا منعته وأخذت

---

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، مصدر سابق، مادة مثل.
(٢) الميداني، **مجمع الأمثال**، مصدر سابق، ج١، ص٦.
(٣) المصدر نفسه، ص ٥-٦.
(٤) العسكري، **جمهرة الأمثال**، مصدر سابق، ج ١، ص ٧.
(٥) سورة الرعد (آية ٣٥).
(٦) الميداني، **مجمع الأمثال**، مصدر سابق، ج ١، ص ٦.
(٧) المصدر نفسه.
(٨) سورة مريم (آية ١٢).

على يده.

الإتقان : يقال : "أحكمت الشيء فاستحكم" : صار محكما. واحتكم الأمـــر واســتحكم،[١] {كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير}[٢].

وأما في الاصطلاح: فقد تعددت أقوال العلماء فيها، لورودها بمعان مختلفة في اللغـة، إلا أنها لم تختلف كثيرا عن بعضها، إذ استند كل واحد منها إلى معنى لغوي أو أكثر نســـج علـــى أساسه.

"أما الحكمة في علم الأدب فيراد بها ما يجلب المصلحة لصاحبها والنفع العام، فكل كلمـة دالة على ذلك حكمة".[٣]

"والحكمة تعبير عن خبرات الحياة أو بعضها على الأقل مباشرة في صيغة تجريدية".[٤]

"الحكمة: كلمة جامعة تلخص نظرية أو مجموعة ملاحظات وتجارب"، "الحكمة : قـــول جامع مانع يتميز بعمق التفكير والتعبير عن حقيقة عامة في المعرفة أو التجربـــة كقولـــه (ﷺ): ﴿خيركم من عمل بما علم﴾.[٥]

ولها في عرف الفلاسفة معان عديدة، (فعرفت بمعنى الفلسفة، أي معرفة أفضل الأشـــياء بأفضل العلوم، وأطلق لفظ الحكمة عند اليونان على العلم، ثم أطلـــق علـــى إحـــدى الفضـــائل الأصيلة وهي الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدالة، ثم أطلق بعد ذلك على العلم مع العمل، لذلـك قيل : "الحكمة هي استعمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية، واكتساب الملكة التامة علـــى الفعال الفاضلة قدر الطاقة البشرية، وقيل الحكمة معرفة الحقائق علـــى مـــا هـــي عليـــه بقـــدر الاستطاعة).[٦]

وبعد أن حررنا أقوال العلماء في الحكمة والمثل يمكن أن نخلص إلى تعريف المثل بأنـــه عبارة موجزة، جل معناها، وحسن مبناها، تومئ بالتجربة أو المشاهدة، وهي مألوفة في ثقافـــات الأمم والشعوب. وأما الحكمة فهي كلمة جامعة تتصف ببناء متماسك، وأســـلوب متســـق رفيـــع الأثر، تحدد قيمة ما، أو تبني قاعدة سلوكية، أو تصور الحياة الأخلاقية وتضبطها.

ونستطيع القول باستحالة الفصل التام بينهما والمزج الدائم كذلك، فقد بدا أن هناك نقـــاط

---

(١) ابن منظور، **اللسان**، مصدر سابق، مادة "حكم".

(٢) سورة هود (آية ١).

(٣) أبو الحسن علي بن موسى المرتضى (ت: ٢٠٣هـ/٨١٩م)، **أمثال وحكم**، تحقيـق محمـد الفـروي، دار الزهراء، بيروت، ١٩٩٠، ص ١٤.

(٤) رودلف زلهايم، **الأمثال العربية القديمة**، مع اعتناء خاص بكتاب الأمثال لأبي عبيد، ترجمة رمضان عبـد التواب، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢، ص ٣٢.

(٥) مجدي وهبة، **معجم مصطلحات الأدب**، مرجع سابق، ص ٢٥، ٣٠٧.

(٦) جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧١، ص ٤٩١-٤٩٢.

ائتلاف، واختلاف بينهما.

فتلتقي الحكمة بالمثل في نواح عديدة منها:

١-كلاهما من جوامع الكلم وسهل الحفظ.

٢-ويمكن أن تلتقي الحكمة مع المثل إذا اتصفت عبارتها بالإيجاز وسرت بين الناس، وعندها يجري كل منهما مكان الآخر.

٣-وقد يلتقي المثل وخاصة القياسي الذي يحمل نموذجا بشريا مع هدف الحكمة في توجيه ذلك السلوك وضبطه.

وتتباعد الحكمة عن المثل في نقاط، منها:

١-المثل أساسه التشبيه والوصف ويقوم عليهما، وأما الحكمة فعمادها إصابة المعنى، ولا يراعى فيها التشبيه والوصف دائما إلا حين تصبح مثلا.

٢-أسلوب المثل موجز دائما، عكس أسلوب الحكمة الذي قد يطول نسبيا.

٣-الهدف من المثل الاحتجاج، أما الحكمة فهدفها التنبيه والنصح والوعظ والإعلام.

٤-مصدر المثل طبقات المجتمع بمختلف مستوياتها، بينما الحكمة لا تصدر إلا عن خاصة المجتمع، كالفلاسفة، والحكماء والأدباء والخطباء.(١)

٥-الحكمة مقترنة بالملك والسؤدد وإسداء النصيحة والموعظة والخير، فدأبها القيم الإيجابية، وليس المثل دائما كذلك، فكثير من الأمثال تحمل قيما سلبية، فجاءت للتوبيخ والتحقير.

٦-المثل حصيلة تجارب واقعية، فكثيره يقوم على الأحداث والقصص ومعظم صوره وشخصياته من الواقع المعاش كذلك، أما الحكمة فتقوم على رؤية حدسية وليس بالضرورة على تجربة حقيقية لارتباطها الشديد بالقيم والسلوك الذي تعمل دائما على توجيهه وضبطه.

٧-صوت العقل في الحكمة دائما أعلى منه في المثل الذي يغيب فيه أكثر الأحيان.

٨-صياغة الحكمة أقوى نسجا وأحكم بناء منها في المثل.

وعليه فليس كل مثل حكمة، ولا كل حكمة مثلا، وإنما هنالك:

أ - المثل الخالص:

فكثير من الأمثال عواطل من الحكمة، ولا تصلح أن تسمى بها، وهذه الطائفة من

---

(١) ذهب إلى مثل هذا عبد المجيد قطامش في كتابه **الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية**، مرجع سابق، ص١٨-١٩.

الأمثال تستعمل في الحالات المتجددة التي تشبه الحالة الأولى التي قيلت فيها، وغالبا ما يخبو فيها صوت العقل، وأكثرها يقوم على التشبيه والوصف والحدث، ومما جاء في الحيوان من هذه الأمثال: "شنشنة أعرفها من أخزم"،[١] ويقال "أرض لا يطير غرابها"،[٢] و "حتى يجيء نشيط من مرو" و "حتى يجيء مصقلة من طبرستان"،[٣] وقول العرب "لو ترك القطا ليلا لنام"،[٤] "ويقال: ما فيها نافخ ضرمة"،[٥] "ويقولون: أصرد من حية، كما تقول العرب أعرى من حية".[٦]

ب – ما كان حكمة خالصة:

وهذه الحكم لا يمكن أن نطلق عليها أمثالا بأي حال من الأحوال، وإن ابتذلها الناس وشاعت بينهم كما يرى أبو هلال العسكري، "فكثير من الحكم ليست من الأمثال في شيء، وخاصة الإنشائية منها، التي تشتمل على أوامر ونواه يقصد بها إصلاح الدنيا والآخرة".[٧]

ومما ورد في الحيوان من هذه الحكم "قول عمر بن الخطاب – رضي الله عنه–: إنك لا تنتفع بعقل الرجل حتى تعرف صدق فطنته"،[٨] "وقال بعض الحكماء: لا تطلع واحد من سرك إلا بقدر ما تجد فيه يدا من معاونتك"، "وقال آخر: إن سرك من دمك، فانظر أين تريقه".[٩]

"وقال بعضهم : لا تسرن بكثرة الإخوان ما لم يكونوا أخيارا، فإن الإخوان غير الخيار بمنزلة النار، قليلها متاع، وكثيرها بوار".[١٠]

"وقال أعرابي: وعد الكريم نقد وتعجيل، ووعد اللئيم مطل وتعطيل".[١١]

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص ٣٣٥.
(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٢٤.
(٣) المصدر ذاته، ج٥، ص ٥٢٨ – ٥٢٩.
(٤) المصدر ذاته، ص ٥٧٨.
(٥) المصدر ذاته، ص ١٣١.
(٦) المصدر السابق، ج ٦، ص ٥٥.
(٧) عبد المجيد قطامش، **الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية**، مرجع سابق، ص ٢٠.
(٨) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٣، ص ٥٩.
(٩) المصدر السابق، ج ٥، ص ١٨٣
(١٠) المصدر ذاته، ص ١٠٧.
(١١) المصدر السابق، ج ٧، ص ١٥٣.

جـ – ما يصلح أن يكون حكمة ومثلا:

وينبغي أن تتوافر لهذه الحكم والأمثال وتلك الأمثال العبارة الموجزة، المتداولة بين النـــاس، القائمة على التجربة.

ومن ذلك قوله (ﷺ) : "لا يلسع المؤمن من جحر مرتين".[١]

"وتقول العرب: لولا الوثام لهلك الأنام"،[٢] "وقال الأولون: رضا الناس شيء لا ينال".[٣]

"وقال ابن عباس– رضي الله عنه–: إذا جاء القدر عمي البصر"، ومن أمثالـــهم: "إذا جـــاء الحين،غطى العين".[٤]

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص ٣٣٥، وورد برواية يلدغ عند أبي عبدالله محمد بن اســـماعيل البخاري، (ت ٢٥٦هـــ / ٨٧٠م)، **الجامع الصحيح**، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢، باب ٨٣، كتاب الأدب، حديث ٦١٣٣، ج٧، ص ١٣٤

(٢) الجاحظ ، **الحيوان** ،مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٤١.

(٣) المصدر ذاته، ص ٩٤.

(٤) المصدر السابق، ج ٣، ص ٥١٣.

موضوعاته:

تضمن الأمثال في كتاب الحيوان موضوعات عديدة تراوحت بين النفسية والأخلاقية والخلقية والاجتماعية والاقتصادية، وقد جاء هذا التقسيم تغليبا، فصنفت الأمثال تحت الموضوع الأقرب لها.

١- الموضوعات النفسية والأخلاقية:

لقد تناول كثير من الأمثال في هذا الكتاب مجموعة من الصفات السلبية والإيجابية، وبعض الأخلاقيات وخاصة تلك التي لها علاقة بالحيوان وطباعه، كالصبر والحذر، والصدق والكذب، والشجاعة والجبن، والحلم والملاصقة الدائمة أو المتابعة الدائمة، واللصوصية، والخداع والغدر، والدهاء والخبث، واللؤم، والحماقة.

ومما ورد في ذلك كله في كتابنا هذا قولهم: "أصبر من عير أبي سيارة"،(١) و "أحرص من لعوة"،(٢) و"أحذر من غراب، و"أحذر من عصفور،"(٣) و"أصدق من قطاة"،(٤) و"الرائد لا يكذب أهله"،(٥) و"أكذب من فاختة"،(٦) و"كذب علي نمل "،(٧) و"أجرأ من الليث"،(٨) و"أجبن من مجلحة الذئاب"،(٩) و"أجبن من الصفرد"،(١٠) و"أنفر من الظليم"،(١١) و"أحلم من الأحنف"، و "أحلم من قيس بن عاصم"،(١٢) و"ألزق من البرام"، و"ألزق من قراد"،(١٣)

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق ،ج٢، ص ٢٥٧.
(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧١.
(٣) المصدر السابق، ج٧، ص١٠.
(٤) المصدر السابق، ج٥، ص ٥٧٣.
(٥) المصدر السابق، ج ٤، ص ٨.
(٦) المصدر السابق، ج١، ص ٢٢٠.
(٧) المصدر السابق، ج٤، ص ٣٢.
(٨) المصدر السابق، ج١، ص ٢٢٠.
(٩) المصدر السابق، ج٥، ص ٢٢٩.
(١٠) المصدر السابق، ج١، ص ٢٢٠.
(١١) المصدر ذاته، ص ٢٢١.
(١٢) المصدر السابق، ج٢، ص ٩٢.
(١٣) المصدر السابق، ج٥، ص ٤٣٧.

و"أسرق من جرذ"، و "أسرق من زبابة".[١] و"أخدع من ضب"،[٢] و"أغدر من الذئب"،[٣] و"أدهى من الثعلب"،[٤] و"أخبث من ذئب"،[٥] و"حية الوادي"،[٦] و"ألأم من كلب على جيفة"،[٧] و"ألأم من كلب على عرق"،[٨] و"أحمق من الحبارى"،[٩] و"أحمق من جهيزة"،[١٠] و"أموق من رخمة".[١١]

٢- الموضوعات الاجتماعية:

وتحدثت أمثال في الحيوان عن موضوعات لها مساس بالمجتمع وأفراده، وتناولت بعض الظواهر الاجتماعية فنقدت السيئ منها وأثبتت الحسن فيها.

فقد تحدثت بعض الأمثال عن المحبة والكره: "كل شيء يحب ولده حتى الحبارى"،[١٢] و"أبر من هرة"،[١٣] و"خل درج الضب"،[١٤] و"سدك به جعله"،[١٥] و"أعق من الضب".[١٦] وفي الظلم يقولون: "أظلم من ورل"، كما يقولون: "أظلم من حية"،[١٧] و"من استرعى الذئب ظلم".[١٨]

وفي العزة والذل ذكر: "أعز من كليب وائل"،[١٩] و"أذل من قراد"،[٢٠] و"لهو أذل من النقد"،[٢١] و"فلان ماعز من الرجال"، و"ما هو إلا نعجة من النعاج".[٢٢] و"أعز من الأبلق

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٥، ص ٢٥٤.
(٢) المصدر السابق، ج٦، ص ٤٣.
(٣) المصدر السابق، ج١، ص ٢٢٠.
(٤)المصدر السابق، ج٦، ص ٣١٣.
(٥)المصدر ذاته، ص ٤١٠.
(٦) المصدر السابق، ج٤، ص ٢٣٤.
(٧) المصدر السابق، ج١، ص ٢٢٠.
(٨) المصدر ذاته، ص ٢٧١.
(٩) المصدر ذاته، ص ١٩٦.
(١٠) المصدر ذاته، ص ١٩٧.
(١١) المصدر السابق، ج٧، ص١٠.
(١٢) المصدر السابق، ج١، ص ١٩٦.
(١٣) المصدر ذاته، ص ١٩٧.
(١٤) المصدر السابق، ج٦، ص ١٣٦.
(١٥) المصدر السابق، ج١، ص ٢٣٧.
(١٦) المصدر ذاته، ص ١٩٦.
(١٧) المصدر السابق، ج٤، ص ٢٠٠.
(١٨) المصدر ذاته، ص ١٥٠.
(١٩) المصدر السابق،ج١، ص ٣٢٠.
(٢٠) المصدر السابق، ج٥، ص ٤٣٩.
(٢١) المصدر السابق، ص ٤٦٢.
(٢٢) المصدر ذاته، ص ٤٧٩.

العقوق".[١]

وفي التشرد وعدم الاستقرار قيل: "أضل من الحية" و"أضل من حمار أهلي"، و"أضل من ضب"،[٢] و"أشرد من نعامة".[٣] وفي التناسب قالوا: "لقوة لاقت قبيسا"،[٤] و"لكل مقام مقال، ولكل زمان رجال، ولكل طعام أكلة"،[٥] و"كل طائر يصيد على قدره".[٦]

٣- الموضوعات الخلقية:

وهناك أمثال في هذا الكتاب تعرضت لمجموعة من الصفات الجسدية المحمودة والمذمومة، ومنها قولهم: "فلان أحسن من الطاووس"،[٧] و "أملح من رباح"،[٨] و"أنزق من ربيب ملك"،[٩] و"أزهى من غراب".[١٠] و"أقبح من السحر"، و"أقبح من الشيطان".[١١]

وقالوا: "أصغر من ابن تمرة"،[١٢] و"أقصر من إبهام القطاة، وأقصر من إبهام الضب".[١٣] و"أسرع من لحسة كلب أنفه"،[١٤] و"أسرع من سمع".[١٥]

وقيل: أصرد من جرادة"،[١٦] و "أصرد من حية" و "لهي أصرد من عنز جرباء".[١٧]

وقالوا: "أنتن من ظربان"،[١٨] و"أنتن من سلاح الثعلب".[١٩] وقالوا: "أنكح من الفراء"،[٢٠] و"أغلم من تيس بني حمان".[٢١]

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٦، ٣٤٢.
(٢) المصدر السابق، ج١، ص ٢٢١.
(٣) المصدر ذاته، ص ١٩٨.
(٤) المصدر ذاته، ص ١٣٢.
(٥) المصدر ذاته، ص ٢٠١.
(٦) المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٠٩.
(٧) المصدر السابق، ج٢، ص ٢٤٤.
(٨) المصدر السابق، ج٤، ص ٩٩.
(٩) المصدر السابق، ج٣، ص ٤٧١.
(١٠) المصدر ذاته، ص ٣٤٥.
(١١) المصدر السابق، ج٦، ص٢١٣.
(١٢) المصدر ذاته، ص٤٠٩.
(١٣) المصدر ذاته، ص ١٣٧.
(١٤) المصدر السابق، ج١، ص ٢٧٠.
(١٥) المصدر السابق، ج ٧، ص ١٠.
(١٦) المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٥٢.
(١٧) المصدر السابق، ج ٦، ص ٥٥.
(١٨) المصدر السابق، ج١، ص ٢٤٩.
(١٩) المصدر السابق، ج٦، ص ٣١٣.
(٢٠) المصدر السابق، ج٢، ص ٢٥٦.
(٢١) المصدر السابق، ج٥، ص ٥٠٢.

ومما قيل في الحواس قولهم: "أسمع من فرس"،[١] و"أسمع من قراد"،[٢] و"أبصر من فرس، وأبصر من هدهد، وأبصر من عقاب"،[٣] و "أصفى من عين الغراب"، و "أصفى من عين الديك"،[٤] وقالوا: أشم من كلب"،[٥] و"أشم من نعامة"، و"أشم من ذرة".[٦]

٤- الموضوعات الاقتصادية:

ثمة أمثال في كتاب الحيوان تتناول عددا من القضايا المتصلة بالجانب المادي، والحرفي منها: "أخزى الله الحمار مالا لا يزكى ولا يذكى"،[٧] و "العنوق بعد النوق"،[٨] و"كل الصيد في جوف الفرا"،[٩] "وكانت بيضة الديك، وكانت بيضة العقر"،[١٠] و "أصنع من تنوط، وأصنع من سرفة، وأصنع من دبر".[١١]

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق،ج١، ٢٢١.
(٢) المصدر السابق، ج٥، ص ٤٣١.
(٣) المصدر السابق، ج٧، ص١٦.
(٤) المصدر السابق، ج٢، ص ٣١٥.
(٥) المصدر ذاته، ص ٣٥٢.
(٦) المصدر السابق، ج٤، ص ٤٠٢.
(٧) المصدر السابق، ج٢، ص٢٥٧.
(٨) المصدر السابق، ج٥، ص٤٦٢.
(٩) المصدر السابق، ج٢، ص٢٥٦.
(١٠) المصدر ذاته، ص٣٤٣.
(١١) المصدر السابق، ج٧، ص١٠.

يتبين مما سبق سيطرة الموضوعات التي لها علاقة بالحيوان من قريب أو بعيد إذ دارت معظم الأمثال في هذا الكتاب حول الحيوان وطباعه، فقد اتخذ الجاحظ منها مادة وافرة عرف من خلالها القراء بنفسية الحيوان ومسلكه، وأبان ما أودعه الله من صفات سلبية وإيجابية، التي كان يرمز من خلالها إلى الإنسان في غالب الأحيان.

ونلحظ كذلك بروز الموضوعات الذهنية إلى جانب الموضوعات الحسية، إلا أن حضور الموضوعات الحسية كان أوضح لارتباط الأكثرية العظمى من الأمثال بالحيوان الذي يشكل محور الكتاب، مما أدى إلى غياب الكثير من القيم الأخلاقية والخلال العربية الأصيلة، كالجود والكرم، والأمانة والشهامة من تلك الموضوعات.

أنواعه:

يمكن تقسيم الأمثال في كتاب الحيوان من حيث أنواعها إلى:

١ - المثل الموجز:

وهو ما جل معناه وقصر مبناه.

لقد جاءت معظم الأمثال في كتاب الحيوان من هذا النوع، كقولهم "جاء بما صأى وصمت"،(١) وقولهم "ما هو إلا تيس في سفينة"،(٢) و"جاءوا مثل النمل".(٣)

ويندرج تحت هذا النوع الأمثال الشعرية، سواء أكان البيت كاملا أم مجتزءا. قال طرفة:

وصاحب قد كنت صاحبه — لا ترك الله له واضحة

كلهم أروغ من ثعلب — ما أشبه الليلة بالبارحة(٤)

وقال لبيد :

عصافير وذبان ودود — [وأجرأ من مجلحة الذئاب](٥)

ويدخل فيه الحكم الموجزة التي يصح أن تكون أمثالا، كقول الأحنف بن قيس : "رب مذموم لا ذنب له"،(٦) وقولهم : "العقل إذا أكره عمي"،(٧) (ويلحق به الأمثال التي على وزن "أفعل من" والتي تدل على المبالغة في التشبيه).(٨)

جاء في كتاب الحيوان ما يقارب المائة والخمسين على هذه الصيغة، ومن ذلك: "لهو أعدى من الثؤباء" و "لهو أعدى من الجرب"،(٩) وتقول العرب: "أخرق من حمامة "،(١٠) و "أشد سوادا من غراب".(١١)

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٣.
(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٠.
(٣) المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٥.
(٤) المصدر السابق، ج ٦، ص٣٠٢.
(٥) المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٢٩.
(٦) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤.
(٧) المصدر السابق، ج٤، ص ٤٥٢.
(٨) يراجع حول المثل الموجز، عبد المجيد قطامش، **الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية**، مرجع سابق، ص٢٨-٣٠.
(٩) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق ، ج ٢، ص ١٤٠.
(١٠) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٨٩.
(١١) المصدر ذاته، ص ٤٢٥.

٢- المثل القياسي:

وهو سرد قصصي أو وصفي، إما أن يصور نموذجا للسلوك الإنساني بقصد التأديب أو التمثيل أو التوضيح، وإما أن يجسد مبدأ يتعلق بملكوت الله ومخلوقاته. والمثل القياسي كلام مطنب إذا ما قورن بسابقه، ... ويجمع ما بين عمق الفكرة وجمال التصوير، وهو ليس تلخيصا لقصة، ولا إشارة إليها، وليس اقتباسا ولا اقتضابا، بل هو قصة بأكملها، أو صورة مجازية مبسوطة، جاء بها الحكيم للإيضاح أو التأديب والتحذير، وهو ما سماه البلاغيون بالتمثيل المركب.(١)

وندر وجود هذا النوع من الأمثال في هذا الكتاب، فلم يتجاوز الخمسة، وربما عاد ذلك إلى قلة الأمثال القرآنية والحديثية فيه، وكثرة الأمثال القديمة التي قلما توجد فيها، ومن هذا النوع قوله تعالى: "كمثل الحمار يحمل أسفارا، فجعل مثلا في الجهالة والغفلة وفي قلة المعرفة وغلظ الطبيعة"،(٢) وأصله قوله تعالى: "مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، والله لا يهدي القوم الظالمين".(٣) وقال تعالى: (كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث)(٤)، وأصله قوله تعالى: (ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون).(٥)

وقولهم "كالكلب يربض في الآري، فلا هو يأكل ولا يدع الدابة تعتلف"،(٦) وقولهم "إنما أنت نعامة، إذا قيل لها احملي قالت أنا طائر، وإذا قيل لها طيري، قالت : أنا بعير".(٧)

ويلاحظ أن الأمثال القياسية في كتاب الحيوان جاءت بقصد التأديب وتوجيه السلوك والتوضيح، دون الالتفات إلى ما يجسد مخلوقات الله وملكوته.

٣ - المثل الحكمي:

وهذه الطائفة من الأمثال تحمل تجربة في طياتها وحكمة في معانيها، ويمكن إدخالها في باب الحكم، ومما جاء منها في هذا الكتاب "لولا الوئام لهلك الأنام"،(٨) وقولهم "العقل إذا أكره

---

(١) عبد المجيد عابدين، **الأمثال في التراث العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص١٥٨-١٥٩.
(٢) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٤، ص٣٨.
(٣) سورة الجمعة، آية ٥.
(٤) الجاحظ ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٤، ص ٣٨.
(٥) سورة الأعراف، آية ١٧٦.
(٦) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص٢٩١.
(٧) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٢٣.
(٨) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤١.

عمي"،[١] و"إن الحب يعمي ويـــــصـــم".[٢]

٤ – المثل المبني على الحدث أو القصة:

"وهذه الأمثال خاصة بالعرب، ولم يأخذوها عن غـــيرهم، لأن هـــذه الحـــوادث جـــرت ووقعت وقائعها عندهم، ولمسوا حيثياتها بأنفسهم"،[٣] ومنها: "أهون من تبالة على الحجاج"، ولـهذا المثل قصة يرويها أبو اليقظان، حيث قال : ... وكان أول عمل وليه الحجاج بن يوسف تبالـــــة، فلما سار إليها وقرب منها قال للدليل : أين هي ؟ وعلى أي سمت هي ؟ قال : تسترك عنها هـــذه الأكمة. قال: "لا أراني أميرا إلا على موضع تسترني منه أكمة أهـــون بها علي؟! و كر راجعـــا، فقيل في المثل "أهون من تبـــالة على الحجاج".[٤]

ومنها: "بكل واد بنو سعد" قال ذلك الأضبط ابن قـــــريع السعدي حين خرج مـــن بنـــي سعد، فجاور ناسا، فلما رأى مذهبهم وظلمهم وتهكمهم، قال: "بكل واد بنو سعد".[٥]

وقولهم: "على أهلها دلت براقش، وبراقش كلبة قوم نبحت على جيش مروا ليلا وهـــم لا يشعرون بالحي، فاستباحوهم واستدلوا على مواضعهم بنباحها".[٦]

٥ – المثل الخرافي:

وهو الكلمات الموجزة التي أجراها العرب على ألسنة الحيوان أو بنوها علـــى قصـــص خرافي نسجوه حوله بقصد التسلية والفكاهة، والحث على مكارم الأخـــلاق، ... وأطلـــق عليـــه اللغويون أكاذيب العرب، ورموز العرب.[٧]

ومن الأمثال التي أجروها على ألسنة الحيوان في خطاب بينها قـــول الجـــاحظ : "وفـــي المثل أن شيخا نصب للعصافير فخا، فارتبن به وبالفخ، وضربه بالبرد، فكلما مشى إلى الفـــخ وق انضم على عصفور، فقبض عليه ودق جناحه وألقاه في وعائه، دمعت عينه ممـــا كـــان يصـــك وجهه من برد الشمال، قال: فتوامرت العصافير بأمره، وقلن: لا بأس عليكن، فإنه شيخ صـــــالح رحيم رقيق الدمعة! قال : فقال عصفور منها : لا تنظروا إلى دموع عينيه ، ولكن انظروا إلى

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ٤، ص ٤٥٢.
(٢) المصدر ذاته، ص ٣٨٦.
(٣) أحمد عبد الرحيم، "مقال الأمثال العربية"، **مجلة العربي، عدد ١٩١**، الكويت، أكتوبر، ١٩٧٤م، ص١٢٩.
(٤) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٢٣.
(٥) المصدر نفسه، ص ٣٥٨.
(٦) المصدر نفسه، ص ٢٦٠.
(٧) عبد المجيد قطامش، **الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية**، مرجع سابق، ص ٣١ – ٣٢.

عمل يديه!".[١] ومنها أيضا قولهم: "هذا أجل من الحـــــرش"، ولهذا القول قصة أجريت علـــى لسان الضب وابنه. قال الجاحظ: "إن الضب قال لابنه: إذا سمعت صوت الحرش فلا تخرجـــن ! قال: والحرش: تحريك اليد عند جحر الضب، ليخرج ويرى أنه حية. قـــال : فســمع الحســـل صوت الحفر، فقال للضب: يا أبت ! هذا الحرش ؟ قال : يا بني، هذا أجل من الحرش، فأرســلها مثلا".[٢]

٦ – المثل المولد :

وهو الذي نسج بعد عصور الاحتجاج، ومن ذلك قول الجاحظ : وقد ينبغـــي أن يكـــون قولهم: "أسمع من الدلدل" من الأمثال المولدة".[٣] وعد الميداني المثل القائل: "لا يرجع فلان حتـــى يرجع غراب نوح"،[٤] منها كذلك.

٧ – الأمثال الشعبية:

وهي تلك الأمثال التي صيغت بأسلوب العوام من الناس، وقد بين لنـــا الجـــاحظ قصـــده بالعامة بقوله: "إذا سمعتموني أذكر العوام فإني لست أعني الفلاحين والحوشة والصناع والباعـــة، ولست أعني أيضا الأكراد في الجبال، وسكان الجزائر في البحار، ولست أعني من الأمـــم مثـــل موقان، وجيلان، ومثل الزنج وأشباه الزنج، وإنما الأمم المذكورون من جميـــع النـــاس أربـــع : العرب وفارس، والهند والروم، والباقون همج وأشباه الهمج، وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنـــا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا، فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم ولم يبلغوا المنزلة الخاصـــة منا، على أن الخاصة تتفاضل في طبقات أيضا".[٥] ومن ذلك يقول الجاحظ: "والعامة تقول : لـــهو أهون علي من الأعراب على عركوك".[٦]

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٥، ص ٢٣٨ – ٢٣٩.
(٢) المصدر السابق، ج٦، ص١٣٢ – ١٣٣.
(٣) المصدر ذاته، ص٤٦٨.
(٤) المصدر السابق، ج٢، ص٣١٨، **ومجمع الأمثال**، مصدر سابق، ج٢، ص٦٧.
(٥) **البيان والتبيين**، مصدر سابق، ج١، ص١٣٧.
(٦) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص٣٢٣.

مصادره:

إن الكثير من الأمثال في كتاب الحيوان مجهولة المصدر. فقد ذكر الجاحظ أغلبها دون نسبتها إلى قائل بعينه، مع أن معظمها كان معروفا في زمانه، فمن العسير علينا التوصل إلى مصدر أكثر الأمثال لتعدد الرواية حول القصة والمتحدث الذي قام عليه بعضها، ولاختلاف العلماء أحيانا في تحديد قائلها، ومع هذا سنحاول التعرف على هذه المصادر، وتحديد الجهة التي صدر عنها المثل، والعصر الذي تولد فيه ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، بالاعتماد على ما بينه الجاحظ من جهة، وأقوال العلماء من جهة أخرى، بالإضافة إلى تفحص متونها، فقلما اشتملت على أعلام أو إشارات إلى حوادث وقعت يمكن من خلالها الاهتداء إلى العصر الذي قيلت فيه.

١- مصادر جاهلية:

لقد صدر الكثير من الأمثال في كتاب الحيوان عن الشعراء والخطباء والفلاسفة والحكماء وأفذاذ العرب من تلك الفترة، ومن ذلك : قول حاتم الطائي حين أمروه بفصد بعيره وطعنه في سنامه قال : "هذا فصده".(١)

و "قد حيل بين العير والنزوان"،(٢) لقد نسب الميداني هذا القول إلى صخر بن عمرو أخي الخنساء.(٣)

وقال النابغة:

ماذا رزئنا به من حية ذكر نضاضة بالرزايا صل أصلال(٤)

٢- مصادر إسلامية:

أ- القرآن الكريم:

لقد أقل الجاحظ من الأمثال القرآنية في كتابه هذا، فلا تربو على الخمسة، ومنها قوله تعالى: {ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط}.(٥) وهذه الآية مثل لكل ما لا يتم من الأمور.

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٤، ص٢٧٣.
(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص٢٥٧.
(٣) **مجمع الأمثال**، مصدر سابق، ج ٢، ص٩٦.
(٤)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٤، ص٢٣٤، وانظر كذلك زياد بن معاوية المعروف بالنابغة الذبياني، (ت: ١٨ ق هـ)، **ديوانه** شرح وجمع محمد عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، والشركة الوطنية، ١٩٧٦، ص٢١٢.
(٥)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٥، ص٥٢٩، سورة الأعراف، آية ٤٠.

وقال تعالى: "فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث".[١]

ب- الحديث النبوي الشريف:

لم يرد من الأمثال الحديثية في كتابنا هذا إلا النزر اليسير، فقد بلغ عددها ما يقارب ثمانية أمثال جاء معظمها في موضع واحد، تحت عنوان كلمات للنبي - صلى الله عليه وسلم- لم يتقدمه فيهن أحد،[٢] ومن ذلك قوله - عليه الصلاة والسلام -: "لا يلسع المؤمن من جحر مرتين"،[٣] وقوله: "لا ينتطح فيها عنزان".[٤]

جـ- الصحابة رضوان الله عليهم:

وردت أمثال من نسيج الصحابة في كتاب الحيوان، منها قول عثمان بن عفان -رضي الله تعالى عنه-: "كل شيء يحب ولده حتى الحبارى"،[٥] وقد نسب الميداني قولهم: "ما فيها نفاخ ضرمة" لعلي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -،[٦] وقال ابن عباس : "إذا جاء القدر عمي البصر".[٧]

وقال حسان بن ثابت - رضي الله عنه- :

لا بأس بالقوم من طول ومن عظم جسم البغال وأحلام العصافير.[٨]

د- وهناك أمثال صدرت في عصر صدر الإسلام.

منها: "[ماله في] العير [ولا] النفير".[٩]

وقائله أحد أولاد عبد الملك لخالد بن يزيد بن معاوية، وقد رد عليه بأن سيد العير جدي أبو سفيان وبأن سيد النفير جدي عتبة.

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٤، ص٣٨، سورة الأعراف، آية١٧٦.
(٢) الجاحظ ، **الحيوان**، ج١، ص٣٣٥.
(٣) المصدر نفسه، وورد برواية (يلدغ) عند أبي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري، (ت: ٢٥٦هـ/٨٧٠م)، **الجامع الصحيح**، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢. باب٨٣، كتاب الأدب، حديث ٦١٣٣ ، ج٧، ص ١٣٤.
(٤)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق،ج١، ص٣٣٥. وانظر، جمال الدين أبو محمد عبدالملك بن هشام الحميري، (ت: ٢١٣هـ/٨٢٩م) **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى السقا ومجموعة من المؤلفين، ط١، دار الخير، بيروت ١٩٩٠، ج٤، ص٢١٥.
(٥) الجاحظ، **الحيوان**، ج١، ص١٩٦.
(٦) المصدر السابق، ج٥، ص١٣١، **ومجمع الأمثال**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٧٨.
(٧)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٣، ص٥١٣.
(٨) المصدر السابق، ج٥، ص٢٢٩،وانظر، حسان بن ثابت الأنصاري، (ت: ٥٤ هـ/٦٧٤م)، **ديوانه**، دار صادر، بيروت، ١٩٦١، ص١٢٢.
(٩)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق،ج٥، ص٥٢٢.

ويضرب مثلا للرجل يحتقر لقلة نفعه، والعير: الإبل تحمل التجارة، ويعنى به ها هنا عير قريش التي خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأخذها، ووقعت وقعة بدر لأجلها، والنفير يعنى به وقعة بدر، وذلك أن كل من تخلف عن العير وعن النفير لبدر من أهل مكة كان مستصغرا حقيرا فيهم، ثم جعل مثلا لكل من هذه صفته.(١)

وقد أورد الجاحظ مجموعة من الأمثال تحت كلمات إسلامية محدثة، منها: "الحرب غشوم، ومن أشبه أباه فما ظلم".(٢)

هـ– وهناك أمثال تناولت أحداثا وأعلاما عاشوا في عصر بني أمية.

منها: "أهون من تبالة على الحجاج"،(٣) وقالوا: "أحلم من الأحنف"، وما هو إلا في حلم معاوية، و"أحلم من قيس بن عاصم".(٤)

و – المولدون :

أورد الجاحظ عددا من الأمثال على ألسنة المولدين، منها قوله: "ومن حديث الأمثال "حتى يجيء نشيط من مرو"، وهو لأهل البصرة، و "حتى يجيء مصقلة من طبرستان"، وهو لأهل الكوفة"،(٥) ومنها على حد زعم أبي عبيدة قولهم: "أجبن من صفرد".(٦)

ز– العامة:

ومن الأمثال التي جاءت على ألسنة العامة قول الجاحظ: "وتقول الناس أكيس من قشة، وأملح من رباح" ... وهو قول العامة : "القرد قبيح ولكنه مليح"،(٧) "ومن أمثال العامة للشيء تعرفه بغير مؤونة: الحجر مجان، والعصفور مجان".(٨)

---

(١) العسكري، **جمهرة الأمثال**، مصدر سابق، ج٢، ص ٣٩٩.
(٢) الجاحظ، **الحيوان**، **مصدر سابق**، ج ١، ص ٣٣٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٢٣.
(٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٢.
(٥) المصدر السابق، ج٥، ص ٥٢٨-٥٢٩.
(٦) المصدر السابق، ج٧، ص١٠، والميداني، **مجمع الأمثال**، مصدر سابق، ج١، ص١٨٥.
(٧)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٤، ص٩٩.
(٨) المصدر السابق، ج٥، ص٢٣٩.

وظائفه:

يلمس الدارس للأمثال في هذا الكتاب براعة الجاحظ في توظيفها، واستخدامها في مجالات عديدة على الصعيد الفني والفكري تجاوز بها الوظيفة التقليدية للمثل، فجعل منها :

١- وسيلة استدلالية:

يقول أبو هلال العسكري : "ثم إني ما رأيت حاجة الشريف إلى شيء من أدب اللسان بعد سلامته من اللحن، كحاجته إلى الشاهد والمثل والشذرة والكلمة السائرة، فإن ذلك يزيد المنطق تفخيما، ويكسبه قبولا، ويجعل له قدرا في النفوس، وحلاوة في الصدور، ويدعو القلوب إلى وعيه، ويبعثها على حفظه، ويأخذها باستعداده لأوقات المذاكرة، والاستظهار به أوان المجاولة في ميادين المجادلة، والمصاولة في حلبات المقاولة".(١)

لقد وعى الجاحظ أن المثل يضفي على الكلام قوة في التأثير وحلاوة في التعبير، فاتخذ منه وسيلة يستدل بها على قوله ويعزز بها وجهة نظره، فحين تحدث عن نتن العنز جاء بقولهم: "قالوا: وهذا شأن التيس وهو أبو العنز ولا تلد الحية إلا حية، ولا بد لذلك النتن من ميراث [ظاهر] أو باطن".(٢)

ويقول: "والدليل على ما ذكرنا من تفسير قولهم : الضب أطول شيء ذماء، قولهم: إنه لأحيى من ضب. لأن حارثه ربما ذبحه فاستقصى فري الأوداج، ثم يدعه فربما تحرك بعد ثلاثة أيام".(٣)

ورأى الجاحظ أن الرجل إذا تساوت صفاته الحسنة، ولم تتقدم واحدة على الأخرى وصف بالسيادة والشرف، ولم يوصف بواحدة منها، كي لا يظن غلبة تلك على غيرها، يقول: "... ولذلك قالوا: أحلم من الأحنف، وما هو إلا في حلم معاوية، وأحلم من قيس بن عاصم، ولم يقولوا: أحلم من عبد المطلب، ولا هو أحلم من هاشم، لأن الحلم خصلة من خصاله كتمام حلمه، فلما كانت خصاله متساوية وخلاله مشرفة متوازية، وكلها كان غالبا ظاهرا وقاهرا غامرا سمي بأجمع الأشياء، ولم يسم بالخصلة الواحدة، فيستدل بذلك على أنها كانت أغلب خصال الخير عليه".(٤)

---

(١) العسكري، **جمهرة الأمثال**، مصدر سابق، ج١، ص٤.
(٢) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٥، ص٤٦٩.
(٣) المصدر السابق، ج٦، ص٦٤.
(٤) المصدر السابق، ج٢، ص٩١ - ٩٢.

وأجرى مجموعة من الأمثال على ألسنة المتناظرين ليحتجوا بها في كلامهم ويدعموا بها موقفهم.

فقد أورد في موضع واحد عشرة أمثال بشأن الحمار على لسان صاحب الكلب ليعزز ما ذهب إليه في تفضيل الحمار على الديك، يقول : "وعلى أن فيه من الخصال ما ليس في الديك، وذلك أن العرب وضعته من الأمثال التي هي له في عشرة أماكن ... قالت العرب: "أنكح من الفرّاء والعير أوفى لدمه، وقالوا: الجحش إذا فاتتك الأعيار...".(١)

وفي حوار في الكلب والديك ساق أمثالا برهن فيها على الموقف من الكلب وطباعه أثناء شرحه ذلك، فرأى أن طبعه يرتد إلى طباع السباع والبهائم معا، يقول: "ولو تم للكلب معنى السبع وطباعه لما ألف الإنسان، واستوحش من السبع وكره الغياض، وألف الدور، واستوحش من البراري وجانب القفار وألف المجالس والديار، ولو تم له معنى البهيمة في الطبع والخلق والغذاء لما أكل الحيوان وكلب على الناس، نعم حتى ربما كلب ووثب على صاحبه، وكلب على أهله ... وفي المثل: سمن كلبك يأكلك، وسُمِّن كلب في جوع أهله".(٢)

وقد اتخذ مجموعة من الأمثال شواهد لغوية، فالأمثال تشكل رافدا رئيسا في إثراء اللغة والحفاظ عليها، "فقد أدت دورا بارزا في حفظ اللغة العربية ونموها وشمولها وأهميتها اللغوية، تتمثل فيما شملته من غريب اللفظ وجمال الأسلوب، والتراكيب اللغوية".(٣)

وقد تنبه الجاحظ إلى ذلك فاستعان بها على شرح الدرس اللغوي، ففي الاشتقاق يقول: "وقال صاحب الكلب: ومما اشتق من اسم الكلب في موضع النباهة كُليب بن ربيعة هو كليب وائل. وقال إنه قيل في رجلين من بني ربيعة ما لم يقل في أحد من العرب حتى ضرب بهما المثل، وهو قولهم: أعز من كليب وائل، والآخر لا حرَّ بوادي عوف".(٤)

وقد ذكر مجموعة من الأمثال لبيان بعض المضافات من الحيوان "يقولون: ذئب الخَمَر، وأرنب الخُلة، وتيس الرَّبل، وضبُّ السَّحا...".(٥)

وساق بعضها كشواهد على أغراض بلاغية، ففي التقديم والتأخير تقول العرب: "ما له

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٥٥ - ٢٥٧.
(٢) المصدر السابق، ج١، ص١٩٠-١٩٢.
(٣) أحمد عبد الرحيم، "مقال الأمثال العربية" **مجلة العربي**، عدد ١٩١، الكويت، أكتوبر، ١٩٧٤، ص١٣٠.
(٤) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص٣٢٠.
(٥) المصدر السابق، ج٦، ص١٢٣.

عندي سبد ولا لبد"، فقدموا السبد.[١]

وفي باب آخر في المجاز والتشبيه بالأكل جاء بمجموعة من الأمثال، منها قوله: "وكذلك قول دهمان النهري:

سألتني عن أناس أكلـــــــوا شرب الدهر عليهم وأكل[٢]

وقد ساق مجموعة منها شواهد لما استحدث من الألفاظ والكلمات الإسلامية،[٣] ولبيان بلاغة النبي – صلى الله عليه وسلم – باستحداثه أمثالا وحكما لم يتقدمه إليها أحد، ومن ذلك قوله – صلى الله عليه وسلم – : "كل الصيد في جوف الفرا. وقوله : مات حتف أنفه".[٤]

٢– وسيلة تربوية وتعليمية:

تشكل الأمثال ضابطا سلوكيا ووازعا أخلاقيا من خلال تلخيصها لمجموعة من الظواهر الاجتماعية بما تحمله من معاني الترغيب والترهيب، فهي تعلم الناس ما يحقق لهم الخير، ويبين لهم ما يجلب الشر، "ففيها التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وترتيب المراد للعقل، وتثبيتها صور المعاني والأشخاص والأعيان في الأذهان لاستعانتها بالحواس في ذلك، ولذلك قيل: المثل أعون شيء على البيان".[٥]

ويرى الجاحظ أن العرب استخدمت الأمثال الحيوانية على التشبه كوسيلة للتعبير عن الجيد والرديء، والحسن والقبيح، والنافع والضار، والمغضب والسار، فقارنت صفات الإنسان بصفات الحيوان، فأخذت أحسنها للإعجاب والمدح، وأسوأها للذم والقدح.[٦]

فبعد أن أورد مجموعة من الأمثال التي لها علاقة بالحيوان، قال: "... ويعبرون عن هذه الأشياء كالعبارة عن الناس في مواضع الإحسان والإساءة ..."،[٧] ويقول أيضا: "...وحتى صار الناس لا يضربون المثل إلا بها، ولا يذمون ولا يمدحون إلا بما يجدون في أصناف الوحش من

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٥، ص٥٢٢.
(٢) المصدر ذاته، ص٢٨.
(٣) المصدر السابق، ج١، ص ٣٣٢.
(٤) المصدر ذاته، ص٣٣٥.
(٥) بدر الدين محمد بن عبدالله الزمخشري، (ت: ٧٩٤هـ/١٤٩٢م)، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٢، ج١، ص٤٨٦ – ٤٨٧.
(٦) داود سلوم، **النقد المنهجي عند الجاحظ**، ط٢، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٨، ص١٤٦ – ١٤٧.
(٧) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص٢٢٠ – ٢٢١.

الطير، وغير ذلك فقالوا: أحذر من عقعق، وأحذر من غراب...".[١]

واستعان بالأمثال في توضيح وشرح ما تناول من قضايا تتصل بالحيوان فجعل منها منطلقا لحديثه، وأساسا بنى عليه متنه المعرفي الذي استعاض عنه بها كثيرا.

فمن خلالها عمد إلى شرح نفسية الحيوان وطباعه وبيان صفاته وخصاله، ففي سياق الحديث عن طباع الماعز أورد مجموعة من الأمثال توضح ذلك. "تقول العرب: لهو أصرد من عنز جرباء. وتقول العرب: العنز تبهي ولا تبني، لأن العنز تصعد على ظهور الأخبية، فتقطعها بأظلافها، والنعجة لا تفعل ذلك. هذا، وبيوت الأعراب إنما تعمل من الصوف والوبر، فليس للماعز فيها معونة، وهي تخرقها".[٢]

وأتى بعدد منها في معرض حديثه عن الحيات، واستغنى بها عن المتن المعرفي، فانتقل إلى موضوع آخر هو حتوف الحيات.[٣]

وفي حمق النعامة وتشردها: "يقولون أحمق من نعامة، كما يقولون : أشرد من نعامة. قالوا ذلك لأنها تدع الحضن على بيضها ساعة الحاجة إلى الطعم، فإن هي في خروجها ذلك رأت بيض أخرى خرجت للطعم، حضنت بيضها ونسيت بيض نفسها، ولعل تلك أن تصطاد فلا ترجع إلى بيضها بالعراء حتى تهلك".[٤]

وقال فيما يوصف بسوء الاهتداء "يقال: أضل من ضب. والضلال [و] سوء الهداية يكون في الضب، والورل والديك".[٥]

وعن ما يغتصب بيت غيره من الحيوان قال : "وأشياء من الحشرات لا تتخذ لنفسها ولا لبيضها ولا لأولادها بيوتا، بل تظلم كل ذي جحر جحره، فتخرجه منه، أو تأكله إن ثبت لها.

والعرب تقول للمسيء: أظلم من حية، لأن الحية لا تتخذ لنفسها بيتا، وكل بيت قصدت نحوه هرب أهله منه، وأخلوه لها".[٦]

وأعلمنا ببعضها عن مجموعة من العناصر التكوينية والصفات الخلقية للحيوان.

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٧، ص٩ - ١٠.
(٢) المصدر السابق، ج٥، ص ٤٦٠ - ٤٦١.
(٣) المصدر السابق، ج٦، ص ٥٥.
(٤) المصدر السابق، ج١، ص ١٩٨ - ١٩٩.
(٥) المصدر السابق، ج٦، ص ١٣٥.
(٦) المصدر السابق، ج٤، ص ١٤٩.

فحين تناول الغراب ذكر عددا من الأمثال بين فيها بعض ما أودع الله في جسده: "ويقال أصح بدنا من غراب، وأبصر من غراب، وأصفى عينا من غراب".(١)

وعن قوة السبع ومنعته يقول: "وهو المضروب به المثل في النجدة والبسالة، وفي شدة الإقدام والصولة، فيقال: ما هو إلا الأسد على براثنه، وهو أشد من الأسد، وأجرأ من الليث العادي، وفلان أسد البلاد، وهو الأسد الأسود".(٢)

وفي بيان ما منح الكلب من حدة في البصر، وقوة في السمع، وشدة في الشم، يقول: "وقال مرة قطرب، وهو محمد بن المستنير النحوي : والله لفلان أبصر من كلب، وأسمع من كلب، وأشم من كلب".(٣)

٣ – أجرى الجاحظ مجموعة من الأمثال ليضمن بها كتابه ويوشح بها كلامه "فإنما هي في الكلام كالتفصيل في العقد والتنوير في الروض والتسهيم في البرد"،(٤) ففي معرض وصفه لكتاب الحيوان قال: "إن شئت كان أبين من سحبان وائل، وإن شئت كان أعيى من باقل".(٥)

وحين تحدث عن نوم الكلب وكيف يكون حذرا إذ ذاك، ضمن حديثه مجموعة من الأمثال يقول: "وكذلك فإنه أنوم ما يكون أن يفتح عينيه بقدر ما يكفيه للحراسة، وذلك ساعة، وهو في هذا كله أسمع من فرس، وأحذر من عقعق، مع بعد صوته".(٦)

وكذلك في تعليقه على قول الشاعر:

"وجدت أقل الناس عقلا إذا انتشى أقلهم عقلا إذا كان صاحيا

تزيد حسى الكأس السفيه سفاهة وتترك أخلاق الرجال كما هيا

قال: وهذا شعر بعض المولدين، والأعاريب لا تخطئ هذا الخطأ، قد رأينا أسفه الناس صاحيا أحلم الناس سكران، وهو مرداس صاحب زهير.

ورأينا أحسن الناس خلقا وأوزنهم حلما، حتى إذا صار في رأسه رطلا كان أخف من فراشة، وأكثر نزوا من جرادة رمضة، فإن المثل بهما يضرب".(٧)

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٣، ص ٤٢١.
(٢) المصدر السابق، ج١، ص ٢٢٨.
(٣) المصدر السابق، ج٢، ص٣٥٢.
(٤) العسكري، **جمهرة الأمثال**، مصدر سابق، ج١، ص٤.
(٥) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص٣٩.
(٦) المصدر السابق، ج٢، ص١٧٤.
(٧) المصدر ذاته، ص ٢٢٨.

ثالثا: المناظرة

توطئة:

يفيد المدلول اللغوي لكلمة مناظرة: المحاجة، والمحاورة، والمباراة. فهي عند ابن منظور "أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معا كيف تأتيانه. والتناظر التراوض في الأمر ونظيرك الذي يراوضك وتناظره".(١)

وجاء في المعجم الوسيط: "ناظر فلانا: صار نظيرا له وباحثه وباراه في المحاجة... وتناظر القوم: نظر بعضهم إلى بعض. وفي الأمر تجادلوا وتراوضوا ".(٢)

وإما في الاصطلاح:

فقد رأى التهانوي أن المناظرة "علم يعرف به كيفية آداب إثبات المطلوب نفيه أو نفي دليله مع الخصم. وتطلق المناظرة أيضا في اصطلاح أهل هذا العلم على النظر من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهارا للصواب، أي توجه المتخاصمين اللذين مطلب أحدهما غير مطلب الآخر في النسبة وإن كان ذلك التوجه في النفس كما كان ذلك للحكماء الإشراقيين وكان غرضهما من ذلك إظهارا للحق والصواب يسمى ذلك التوجيه بحسب المصطلح مناظرة وبحثا".(٣)

وأشار الكفوي إلى أنها: "النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهارا للصواب وقد يكون مع نفسه".(٤)

ورأى السيد الهاشمي أن المناظرة لا تكون إلا بثلاثة شروط: "الأول: أن تجمع بين خصمين متضادين، أو متباينين في صفاتهما، بحيث تظهر خواصهما كالربيع، والخريف، والصيف، والشتاء. والثاني: أن يأتي كل من الخصمين في نصرته لنفسه، وتفنيد مزاعم قرنه، بأدلة من شأنها أن ترفع من قدره وتحط من مقام الخصم بحيث يميل بالسامع عنه إليه. والثالث: أن تصاغ المعاني والمراجعات صوغا حسنا. وترتب على سياق محكم ليزيد بذلك نشاط السامع

---

(١) ابن منظور، **اللسان**، مصدر سابق، مادة نظر.
(٢) إبراهيم أنيس وآخرون، **المعجم الوسيط**، ط٢، (د.ت). ج٢، ص ٩٣٢.
(٣) محمد علي بن علي التهانوي، (ت: ١١٥٨هـ/١٧٤٥م) موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية، المعروف **بكشاف اصطلاحات الفنون**، شركة الخياط للنشر، بيروت، لبنان، ج٦، ص١٣٩١-١٣٩٢.
(٤) الكفوي، **الكليات**، مصدر سابق، ص٤٨٩.

وتنمى فيه الرغبة في حل المشكل".[١]

وذكر مجدي وهبة لها عدة تعريفات: "المناظرة عند العرب هي نوع من المحاورات التي احتدمت بين النحاة والمناطقة والمتكلمين والفقهاء، وأصحاب الملل والنحل حول مسائل عقدية وغير عقدية".[٢] "وهي تبادل الكلام والآراء المتعارضة في موضوع ما يثير الجدل".[٣] "وهي تبادل الحجج والكلام لحل قضية من القضايا".[٤]

فالمناظرة إذا: جنس أدبي يعرض وجهة نظر طرفين فأكثر في الواقع أو الخيال حول أمر ما، بحشد كل طرف ما أمكن من الأدلة والبراهين التي تعزز موقفه وتؤيد رأيه وترد على خصمه بقصد الحقيقة والصواب وفق أسلوب فني متناسق.

وعليه سنعكف في هذا المقام على دراسة النصوص التي توافرت لها الخصائص الفنية للمناظرة في هذا الكتاب، وبلغت ستا،[٥] بمنأى عن العديد من تلك التي جاءت على منوالها، فهي عبارة عن محاورات ومناقشات لم ترق إلى مستواها في الأسلوب والتركيب.

---

(١) السيد أحمد الهاشمي، **جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب**، أشرف على تحقيقه مجموعة من المؤلفين الجامعين، مؤسسة المعارف، بيروت، (د.ت)، ج١، ص٢٢٤.

(٢) مجدي وهبة، **معجم مصطلحات الأدب**، مرجع سابق ص٩٠

(٣) المرجع نفسه، ص٤٢٥.

(٤) المرجع نفسه، ص١٠١.

(٥) المناظرات التي سنتناولها في دراستنا من كتاب الحيوان: (١) مناظرة في الكلب والديك، ج١، ص١٠٣ وما بعدها. و ج٢ كاملا. (٢) مناظرة في الحمام، ج٣، ص ١٤٤-٢٦١. (٣) مناظرة في الغراب، المصدر نفسه، ص ٤١٠-٤٦١. (٤) مناظرة في السنور، ج٥، ص ٢٧٥-٣٤٧. (٥) مناظرة في الضأن والماعز، المصدر نفسه، ص ٤٥٥ - ٥٢٤. (٦) مناظرة في الفيل، ج٧، ص ٨٦-٢٣١.

موضوعاتها:

لقد ركزت المناظرات في كتاب الحيوان على الموضوعات العلمية التي تختص بالحيوانات التي تناولتها من زوايا عديدة، حصد القارئ من خلالها مادة معرفية واسعة، فقد عرضت لهيئاتها، وصفاتها الحسنة والرديئة، وطباعها الطيبة والخبيثة، وتناولت مضارها ومنافعها، وبينت قدراتها ومواطن الضعف فيها، وأشارت إلى أقدارها ومنازلها وفضل كل منها على نظيره من خلال المقارنة والمقايسة بينها.

وسنعرض بعجالة سريعة لخطوطها العريضة لنضع من خلالها بين يدي القارئ أهم مظانها:

١- مناظرة في الكلب والديك:

لقد وفرت هذه المناظرة مادة غزيرة وواسعة عن مساوئ الكلب والديك، ومحاسنهما، والكثير مما يتصل بذلك من قريب أو بعيد.

فقد ذكر على لسان صاحب الديك أن الكلب ليس سبعا تاما، ولا بهيمة تامة، وكأنه من الخلق المركب، والطبائع الملفقة، والأخلاط المجتلبة. وشر الطبائع ما تجاذبته الأعراق المتضادة، والأخلاف المتفاوتة. فالكلب في ذلك كالبغل، أو كابن المذكورة من النساء، أو المؤنث من الرجال. والكلب في ذلك كالخنثى الذي هو لا ذكر ولا أنثى، أو كالخصي، أو كالنبيذ الذي يفرطه الحر فيخرجه من حد الخل ولا يدخله في حد النبيذ.(١)

ولا يعتري ذلك الخلاسى من الدجاج، ولا الورداني من الحمام.

ولو تم له معنى السبع وطباعه لما ألف الإنسان واستوحش من السبع وكره الغياض، وألف الدور، واستوحش من البراراي، وجانب القفار، وألف المجالس. ولو تم له معنى البهيمة في الطبع والخلق والغذاء لما أكل الحيوان وكلب على الناس.(٢)

وهو سراق ونباش، وآكل لحوم الناس، إلا أنه يجمع سرقة الليل مع سرقة النهار.

وفمه في الأرض يشتم الروائح، ولا يرى كلبا إلا واشتم إسته، ولا يشتم غيرها منه. ولشرهه وفرط نهمه يعض على الحجر الذي يرمى به، فيظن أن الرامي أراد إطعامه والإحسان

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ١، ص١٠٣-١٠٥.
(٢) المصدر نفسه، ص١٩٠-١٩١.

إليه، متناسيا بأنه أراد قتله.[١]

وأما الديك فمن بهائم الطير وبغاثها، ومن العيال على أربابها وليس من أحرارها ولا من عتاقها، ولا من جوارحها، ولا مما يطرب بصوته، ويشجى بلحنه كالقماري،... ولا مما يونق بمنظره ويمتع الأبصار بحسنه كالطواويس والتداريج، ولا مما يعجب بهدايته ويعقد الذمام بإلفه ونزاعه، وشدة أنسه وحنيته، وليس مما تريده بإرادته لك، وتعطف عليه لحبه إياك كالحمام، ولا هو أيضا من ذوات الطيران منها، فهو طائر لا يطير، وبهيمة لا يصيد، ولا هو أيضا مما يكون صيدا فيمتع من هذه الجهة ويراد لهذه اللذة.

وهو لا يزاوج ولا يحرص على الولد ولا يحن إليه ولا يعرفه، ولا يعطفه رحما، ولا يحضن بيضا، ولا يعرف طروقته ولم يألف منزله، ولا يعرف ربه.

أما الكلب والسنور فهما يعرفان أسماءهما ويألفان موضعهما، وإن طردا رجعا وإن أجيعا وأهينا احتملا.[٢]

وذكر صاحب الديك ما يحفظ من أشعار تحمل ذما لأكل الكلاب للحوم الناس.[٣]

وأشار إلى نتن جلودها إذا أصابها مطر.[٤]

وقال: إن الكلب يأكل العذرة، يقال: أبخل من كلب على جيفة، وقال بعضهم في الكلب، الجيفة أحب إليه من اللحم العبيط. وفضلا عن ذلك فهو يرجع في قيئه، ويشغر ببوله فيصير في جوف فيه وأنفه، وبحذفه تلقاء خيشومه.[٥]

فطعن صاحب الكلب في ذلك فقال: إن كنتم إنما تستسقطون الكلب، وتستفلونه بهذا وأشباهه فالجيفة أنتن من العذرة والعذرة شر من القيء، والجيفة أحب إلى أشراف السباع ورؤسائها من اللحم العبيط الغض. والأسد سيد السباع وهو يأكل الجيفة ولا يعرض لشرائع الوحش وأفراس البهائم والسابلة من الناس ما وجد في فريسته فضلة، فبعد شرب دمها يبقر بطنها ويأكل حشوها بالكامل.

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق،ج١، ص١٩٣.
(٢) المصدر نفسه، ص١٩٣-١٩٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٢٤-٢٢٥.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٢٦.
(٥) المصدر نفسه، ص٢٢٧.

والأسد أجمع هذه الخصال من الكلب، فهلا ذكرتموه بذلك وهو أنبه ذكرا وأبعد صيتا.

وبعد فإن الذي يأكل الجيفة لم يبتعد عن طبع الكثير من الناس، لأن من الناس من يشتهي لحم الغاب.

وأما ما ذكرتم من نتن الجلد، ومن استنشاق البول، فإن للتيس في ذلك ما ليس للكلب، فقد شاركه في حذف بوله تلقاء أنفه، وباينه بشدة الصنان فإن الأمثال له أكثر ذكرا.(١)

ويضاف إلى ذلك أن أكل العذرة عام في الماشية المتخير لحمها، فمثلا الإبل والشياه كلها جلالة. وهن على يابس ما يخرج من الناس أحرص، وعلى أنها إذا تعودت أكل ما قد جف ظاهره، وداخله رطب رجع أمرها إلى ما عليه الكلب. ثم إن الدجاجة لا ترضى بالعذرة وبما يبقى من الحبوب التي لم يأت عليها الاستمراء والهضم حتى تلتمس الديدان التي فيها، وبذلك تجمع نوعين من العذرة...(٢)

واستأنف صاحب الديك الهجوم فذكر بابا فيه أشعار وأمثال وأخبار تحمل هجاء للكلب مجردا على وجه، وذما لبعض أصناف أعماله وخلاله وصفاته.(٣) وأفرد بابا آخر لمن هجي بأكل لحوم الكلاب ولحوم الناس.(٤)

وقال صاحب الديك: صاحب الكلب يصفه بالسرعة، فإن كان كما تقولون، فلما وصف الشعراء الفرس وشبهوه بضروب من الخلق، وكذلك الأعضاء وغير ذلك من أمره، وتركوا الكلب في المنسأ لا يلتفت أحد لفته؟

فذكر صاحب الكلب أن أبا عبيدة في سياق حديثه عن تشبيه الفرس لضروب من الحيوانات قال: إن مما يشبه من خلقه خلق الكلب هرت شدقه، وطول لسانه، وكثرة ريقه، وانحدار قصه، وسبوغ ضلوعه، وطول ذراعيه، ورحب جلده، ولخوق بطنه.

ثم ذكر أبياتا للطفيل الغنوي فيها تشبيه للخيل بالكلب.

فرد عليه صاحب الديك بالقول: فأين يقع البيت والاثنان والثلاثة من جميع أشعار العرب.

فأجابه خصمه قائلا: لعلنا إن تتبعنا ذلك وجدناه كثيرا، ولكنك تقدمت في أمر ولم تشعر

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص٢٢٨-٢٢٩.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٣٢-٢٣٣.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٥٤-٢٦٧.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٦٧-٢٧١.

بالذي تعني، فنلتقط من الجميع أكثر مما التقطت. والإنسان شريف الأعضاء وقد تشبه مواضع منه مواضع من الفرس العتيق. وما حضرنا من الأشعار إلا قوله...

وقد شبهوا بالكلب كل شيء، وكان من أسماء فرس عامر بن الطفيل الكلب.

وفي المقابل افتخر صاحب الديك بأشعار شبهت الناقة ونشاطها بالديك.(١)

وطعن صاحب الديك في الكلب فقال: ومن لؤمه إذا سمنته أكلك، وإن أجعته أنكرك، ومن لؤمه اتباعه من أهانه، وألفه لمن أجاعه، لأنه أجهل من أن يأنس بما يؤنس به، وأشره وأنهم وأحرص وألج من أن يذهب بمطمعته ما يذهب بمطامع السباع. ومن جهله حراسته للمحسنين إليه وأربابه بنباحه كحراسته لمن عرفه ساعة واحدة، بل لمن أهانه وأساء إليه. وهو جبان وإن كان فيه جرأة، فمن فرط جبنه أنه يفزع من كل شيء وينبحه.(٢)

وقال أبو اسحق: إن أطعم اللص الكلب بالنهار كسرة خبز خلى له الدار ليلا، فهو من هذا الوجه مرتش وآكل سحت. وهو مع ذلك أسمج الخلق صوتا، وأحمق الخلق يقظة ونوما، ينلم النهار كله على الجادة، وعلى مدق الحوافر، وفي كل سوق وملتقى طريق، وقد سهر الليل كله بالصخب والنصب والتعب، فإن وطئته دابة فأسوأ الخلق جزعا، وألأمهم لؤما وأكثرهم نباحا وعواء.

وبعد فإن كل خلق فارق أخلاق الناس فإنه مذموم، فهم ينامون الليل الذي جعله الله تعالى سكنا، وينتشرون بالنهار الذي جعله الله تعالى لحاجات الناس مسرحا. فرد صاحب الكلب على ذلك بدفاع مقتضب.(٣)

ثم ذكر صاحب الديك أمثالا وأخبارا وأحاديث صحيحة وموضوعة في ذم الكلب والتنفير منه.

فساق له صاحب الكلب أدلة تحمل ذما للديك، ومنها: قوله أن عمر رضي الله عنه أمر بقتل الديكة ولم يستثن منها شيئا دون شيء. ونهى أبو موسى عن اتخاذ الدجاج، ولم يستثن منها شيئا كذلك، والديكة تدخل في هذا الاسم، لأن اسم الدجاج يجمعها جميعا.(٤)

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق،ج١، ص٢٧٢-٢٧٨.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٨٠-٢٨١.
(٣) المصدر السابق، ص٢٨٢-٢٨٥.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٩٠-٢٩٦.

واسترسل في الطعن بأدلة صاحب الديك التي ساقها ليدخل النقص من خلالها على الكلب.[١]

وقال صاحب الديك: فلما صار الكلب عندهم يجمع خصال اللؤم والنذالة والشره... صاروا يشتقون من اسمه لمن هجوه بهذه الخصال، قال بشار بن برد:

واستغن بالوجبات عن ذهب لم يبق قبلك لامرئ ذهبه

يرد الحريص على متالفه والليث يبعث حينه كلبه.[٢]

فرد صاحب الكلب بالقول: إنهم اشتقوا من اسمه الأشياء المحمودة أكثر، فمن ولد ربيعة بن نزار كلب بن ربيعة، وكلاب بن ربيعة، ومكالب بن ربيعة، ومكلبة بن ربيعة، ومن هذا الباب كليب بي يربوع، وكلب بن وبرة، ومنه بنو الكلبة...، ولقبت كثيرات بكلبة، واشتق منه كذلك أسماء قرى وبلدان...[٣]

فقال صاحب الديك: قد قيل للخوارج كلاب النار، وللنوائح كلاب كذلك، واستدل على ذلك من الشعر.[٤]

فرد عليه صاحب الكلب بالقول: وكانت العرب تسمي بكلب وحجر وحنظلة وقرد على التفاؤل بذلك...، وإن كان كلبا تأول فيه الحراسة واليقظة وبعد الصوت والكسب وغير ذلك.[٥]

وقال له أيضا علمنا أنكم تتبعتم كل شيء هجي به الكلب، وجعلتم ذلك دليلا على سقوط قدره ولؤم طبعه، وقد رأينا الشعراء قد هجوا الأصناف كلها فلم يفلت منها سبع ولا بهيمة ولا طائر ولا حشرة ولا رفيع ولا وضيع من الناس،... ولو جمع ذلك كله لكان مثل هجاء الناس للكلب، ولو جمعتم الأشعار والآثار التي مدح بها الأسد فما دونه لما بلغت مقدار ما مدح به الكلب.[٦]

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص٢٩٦-٣٠٨.
(٢) المصدر نفسه، ص٣١٢.
(٣) المصدر نفسه، ص٣١٣-٣١٥.
(٤) المصدر نفسه، ص٣١٦-٣١٨.
(٥) المصدر نفسه، ص٣٢٤.
(٦) المصدر نفسه، ص٣٥٢-٣٥٦.

وأخذ صاحب الديك على الكلب شدة الأذى على الجار، والضيف، فهو لا يدعهما ينامـــا ليلا، أو يقيلا نهارا لشدة صوته.(١)

وفيه قذارة في نفسه، وإقذاره أهله لكثرة سلاحه، وهو لا يرضى بالسلاح على الســطوح حتى يحفر حفرة وفي ذلك التخريب. وهو يؤذي الصبيان ويتعرض للزوار، ووجوده في البيـــت يؤذي النساء وخاصة المغيبات...(٢)

غير أن صاحب الكلب رد على خصمه وفند كل ذلك.(٣)

وأخذ صاحب الكلب يهاجم صاحب الديك، فذكر أن واحدة من جنايات الديكة أعظم مـــن جنايات الكلاب، فالديك ينقر الأدمغة ويفقأ العيون، فقد مات عبد الله بن عثمان بـــن عفـــان مـــن نقره، ووثب ديك فطعن بصيصيته عين بنت لثمامة بن أشرس، وقد نقر ديك عين ابن الريان بـــن أبي المسيح، وروي أن ديكا أقبل على رأس زيد بن عمر حتى وطىء في ذؤابتـــه فـــأخذ ينقـــر دماغه.

وأما الكلب فهو يدافع عن الناس ويحرسهم، ويحرس أموالهم، ويصيد لهم. فهو الغـلمر لا المغمور والفاضل لا المفضول.(٤)

وليس الديك من الكلب في شيء، فمن الكـــلاب ذوات الأســماء المعروفـــة، والألقـــاب المشهورة، ولكرامها وجوارحها وكواسبها وأحرارها وعتاقها أنساب قائمـــة ودواويـــن مختلفـــة، وأعراق محفوظة، مثل كلب جذعان. ثم جاء بمقطوعات شعرية ذكرت عددا من أسمائها.(٥)

ومن مفاخر الكلب وجود تشابه بينه وبين الأسد في بعض الأمور فإن دواء عضة الأســد نفسه دواء عضة الكلب، وبشبه الكلب الأسد بانطباق أسنانه، والنهم الشديد، ورجعه يابس كرجـــع الأسد، وكلاهما إذا بالا شغرا، والكلب من أسماء الأسد.

ويشبه الكلب الإنسان كذلك، فهو الحيوان الوحيد الذي لذكره حجم ظاهر كالإنسان،

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص٣٦٦-٣٦٧.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٦٨-٣٦٩.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٧٣-٣٧٥.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٧٦-٣٧٧.
(٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص١٧-٢٢.

ويشبه في التحامه مع أنثاه الإنسان ساعة الوطء.[١]

وقال صاحب الكلب: ومما يدل على قدر الكلب كثرة ما يجرى على ألسنة الناس من مدحه بالخير والشر والحمد والذم، فقد ذكر في القرآن بالحمد مرة وبالذم أخرى، وبمثل ذلك ذكر في الحديث والأشعار والأمثال. حتى أنه أستعمل في الاشتقاقات، وجرى في طريق الفأل والطيرة،... فإن كنتم إنما قضيتم عليه بالشر والنقص وباللؤم والسقوط لأن ذلك كله قد قيل فيه، فالذي قيل فيه من الخير أكثر، ومن الخصائص المحمودة أشهر.[٢]

وقال: والكلب يحسن أشياء كثيرة لا يحسنها الإنسان ولا يستطيع القيام بها، وأبان عن ذلك بالحديث عن خبرته في الصيد، وانتباهه الغريزي، وذكائه الفطري، ووفائه لصاحبه وإلفه له، وحسن أدبه، من خلال مجموعة من الحكايات والأمثال والأخبار والأشعار والآثار.

وأضاف مسترسلا أن الكلب يحمي الناس فهو ينذر أهل القرى من الأسد، ولذلك نجد الأسد حريصا على لحمه دون سائر الحيوان.[٣]

وعاد صاحب الديك للهجوم فقال: ومن لؤم الكلب مداراته للص الذي يطعمه في النهار، فإذا أتاه ليلا خلى له البيت، ولم ينبح عليه، ولكن صاحب الكلب رد على ذلك بدفاع مقتضب مفاده أن الكلب لا يملك آلة يميز بها.[٤]

ثم استأنف تعداد مناقب الكلب فقال: إنه من أطيب الحيوانات فما.[٥]

وساق بابا كاملا تحت عنوان ما يشبه الكلب وليس هو منه تناول فيه الذين شبهوا بالكلاب من الإنسان والحيوان في نواح عديدة.[٦]

ثم تحدث عن صبر الكلب واحتماله للجراح وإلفه للناس، وحاجتهم له، فليس لحارس الناس ولحارس أموالهم بد منه.وهو قابل للتلقين والتعلم،وهو يجيد السباحة.ومن أعاجيب

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٢، ص٥٥-٥٧.
(٢)المصدر نفسه، ص٨٦.
(٣) المصدر نفسه، ص١١٦-١٣٠.
(٤) المصدر نفسه، ص١٤٣-١٤٤.
(٥) المصدر نفسه، ص١٥٤.
(٦) المصدر نفسه، ١٦٦ وما بعدها.

الكلاب أن إناثها تلقح من أجناس غير الكلاب.[١]

وأشار إلى أن الناس قد سموا بعضهم بمشتقات الكلب، فقد سموا كلب وكليب وكلاب وأكلب ومكاليب ومكالبة بنو ربيعة وكليب بن ربيعة، وفي العرب من القبائل كلب، وبنو الكلبية، وبنو كلاب، وأكلب بن ربيعة بن نزار، وكلب بن وبرة، ومنهم من يكنى بابي كليب، ومن ذلك عمرو ذو الكلب، وأبو عامر الكلب النحوي، وقد قالوا كلب الماء، وكلب الرحى.[٢]

وساق عددا من الآيات والأحاديث والآثار التي ذكر بها الكلب.[٣]

ونبه إلى حرص الجاهليين والبدو على اقتنائه لإلفه ومنفعته، فلا تكاد تخلو خيمة منه.[٤]

وقال: وما للديك وللكلاب، والكلاب ينزل فيها القرآن وتتحدث فيها السنن، ويشتق من أسمائها للناس، وللأسد، ولها أسماء معروفة وأعراق منسوبة، وألقاب وسمات ومناقب ومقامات.[٥]

ويعرف سن الكلب بالأسنان فإذا كانت سوداء كانت دليلا على كبره، وإذا كانت بيضاء دلت على الحداثة والصغر.

وأشبه الكلب الأسد في شحو فمه، فهو على مقدار جسمه،[٦] ويشبه الإنسان والأسد بأن كل منهم له بطن واحد، وإن أمعاءه تشبه أمعاء الحية مما يزيد في قدره، فهو إما أن يشبه الإنسان، وإما أن يشبه رؤساء السباع ودواهي الحشرات.[٧]

وعدد صاحب الديك بعضا من مناقبه فقال: في الديك الشجاعة والصبر على اللقاء وفيه الجولان والصولان، وفيه الحذر والتسديد وذلك بأنه يقدر إيقاع صيصيته بعين الديك الآخر ويتقرب إلى المذبح فلا يخطئ. وقد سمى العرب إبرة العقرب شوكة كما تسمى صيصية الديك

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٢، ص١٧٥-١٨٠.
(٢) المصدر نفسه، ص١٨٤-١٨٦.
(٣) المصدر نفسه، ص١٨١، ١٨٧-١٩٠، ٢٠٤، ٢٠٨.
(٤) المصدر نفسه، ص١٩٢.
(٥) المصدر نفسه، ص٢٠٧.
(٦) المصدر نفسه، ص٢١٢.
(٧) صيصية الديك : شوكة في رجله ، المصدر نفسه، ص٢١٥.

شوكة، وهي من هذا الوجه شبيهة بشوك النخل.[١]

ومن مفاخره انتصابه إذا قام، ومباينة هيئته لهيئة الدجاجة، وليس هذا الفرق الواضح بين جميع إناث الحيوان وذكوره موجودا إلا فيه. وله لحية ظاهرة. وله قوة عجيبة وفائقة على السفاد، فالديك يكون له وحده الدجاج الكثير. وهو يعرف وقت الليل وساعاته، وبعد صوته يدل على أن موضعه مأهول. وليس في الأرض أملح من فروج، وليس ذلك الاسم إلا لولد الديك. هذا ومع ما أعطي من محبة النساء ورحمة الرجال، واتباعه لمن دعاه وإلفه لمن قربه، ولذا فضله جعفر بن سعيد على الطاووس.[٢]

ودار حوار حاد بين صاحب الكلب وبين صاحب الديك حول صياح الديكة، فقد أنكر الأول على الثاني زعمه أنها تتجاوب فيما بينها لطبيعة فيها.[٣]

وفضل صاحب الكلب الحمار على الديك، فعلى الرغم من أنه مضروب به المثل في الجهل، ينهق في ساعات معينة، وبذا يستوي مع الديك، وفوق ذلك فالحمار أبعد صوتا وهو المضروب به المثل في الهداية والصبر وغير ذلك من الصفات التي فاق بها الديك، ودعم قوله هذا بعشرة أمثال.[٤]

فتصدى له صاحب الديك بالأحاديث والأشعار والآثار التي تدل على حسن الدجاج ونبل الديك[٥]

وطعن صاحب الكلب في الديك قائلا: الأشياء التي تألف الناس لا تريد سواهم كالعصفور والخطاف والكلب والسنور، والديك مما يتخذه الناس، وليس مما يحن إليهم فيقطع البلاد نزاعا، فيكون كالقواطع من الطير التي تريدهم كالخطاف...، ولا هو من الأوابد كالعصفور...، ولا هو كالكلب الذي لا يعرف سواهم...، والديك في خلاف ذلك كله فهو لا يألف منزله ولا يعرف ربه، ولا يحن إلى دجاجه، ثم لا تتوق نفسه إلى طروقته، ولا يشتاق إلى ولده ولا يعرف الذين غذوه وربوه.[٦]

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٢ ، ص٢٣٣-٢٣٦.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٣٨-٢٤٣.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٥١-٢٥٤.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٥٥-٢٥٨.
(٥) المصدر نفسه، ص٢٥٨-٢٦٠.
(٦) المصدر نفسه، ص٢٦١.

ولا يرى الديك إلا سالحا، وسلاحه أنتن من جعر الكلب.[١]

وقال صاحب الديك لم نر شريفا أجاز شاعرا بكلب ولا حيى به زائرا. وقد رأيناهم يجيزون الشعراء بالدجاج.[٢]

وقال صاحب الديك: شرار عباد الله من قتل أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم نجد شعراء الناس شبهوا أولئك القاتلين بشيء سوى الكلاب....

وقال أيضا: وروى هيثم عن المغيرة عن إبراهيم قال: لم يكونوا ينهونا عن شيء من اللعب ونحن غلمان إلا الكلاب. ثم روى آثارا تبيح التقامر في البيض.[٣]

غير أن صاحب الكلب طعن في ذلك وقال: فقد أخبرني أبو حرب عن منصور القصاب قال: سألت الحسن عن البيض الذي يتقامرون به فكرهه.[٤]

وطعن بزعم خصمه أن صياح الديك يقوم مقام الإسطرلاب للناس فقال: فكما أن للديكة أوقات صياح فكذلك للحمام هديل في وقت معين، وللحمار نهيق أيضا، والعصافير والخطاطيف وعامة الطير تصيح مع بزوغ الفجر.[٥]

ثم ذكر أشعارا لمن هجا الدجاج، ومن اتخذها.[٦]

وقد أخذ على الديك من خلال الغراب، فعلى الرغم من قبح الغراب واستقذاره عند العرب خدعه وخاس به.[٧]

وقال: والدليل على أن صوت الديك كريه في السماع وغير مطرب قول الشاعر:

ذكر الصبوح بسحرة فارتاحا ... وأمله ديك الصباح صياحا

أوفى على شرف الجدار بسدفة ... غردا يصفق بالجناح جناحا

والدليل على صغر قدر الدجاج عندهم قول بشار بن برد:

بجدك يا ابن أقرع نلت مالا ... ألا إن اللئام لهم جدود

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٦٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٧٧-٢٧٨.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٩١-٢٩٢.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٩٣.
(٥) المصدر نفسه، ص٢٩٣-٢٩٧.
(٦) المصدر نفسه، ص٣٠١-٣٠٦.
(٧) المصدر نفسه، ص٣١٩.

والحيوان.[١]

ومما أشبه فيه الحمام الناس أن أكثر ساعات حضن البيض على الأنثى تماما كما هو الحال بالنسبة للمرأة من حيث العناية بولدها في بداية عمره.[٢] ولا يوجد سلوك أو علاقة بين رجل وامرأة إلا وهي بين الحمام وأنثاه.[٣] وليس التقبيل إلا للحمام والإنسان.[٤]

وله من المعرفة والإلهام القدر الكبير، فهو يعرف البزاة التي تطلبه، إلا أن صاحب الديك اعترض على ذلك ووصفه بالبله، والجهل مدعما رأيه بالآثار والأشعار[٥].

فرد عليه صاحب الحمام قائلا: أنه ليبلغ من تعظيم الحمام لحرمة البيت الحرام أن أهل مكة يشهدون عن أخرهم أنهم لم يروا حماما قط سقط على ظهر الكعبة إلا من علة عرضت له، فإن كانت هذه المعرفة اكتسابا من الحمام، فالحمام فوق جميع الطير، وكل ذي أربع. وإن كان هذا إنما كان من طريق الإلهام، فليس ما 'يلهم كما لا 'يلهم.[٦] والحمامة هي التي كانت دليل نوح عليه السلام ورائده. وهي التي استجعلت عليه بالطوق الذي في عنقها وعند ذلك أعطاها الله تعالى تلك الحلية ومنحها تلك الزينة.[٧] ولكن صاحب الديك اعترض على فخره بالطوق،[٨] ثم عاد صاحب الحمام لفخره وذكر أشعارا تغنت بنوح الحمام وإسعاده.[٩]

وافتخر بأن لها أنسابا معروفة، وتشتمل دواوين الحمام أكثر مما تشتمل عليه كتب الأنساب، ولها شمائل وطبائع وهيئات يعرفها أهل الفراسة فيها.[١٠]

وهو غالي الثمن، فقد يصل ثمن الواحد إلى خمسمائة دينار.[١١]

ولقي عناية كبيرة من الناس لم يلقها حيوان غيره، فهو كريم يألف الناس ويأنس بهم

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٣، ص١٥٧-١٥٩
(٢) المصدر ذاته ، ص١٦٣.
(٣) المصدر نفسه، ص١٦٥-١٦٨.
(٤) المصدر نفسه، ص١٧٧.
(٥) المصدر نفسه، ص١٨٧،١٩٠.
(٦) المصدر نفسه، ص١٩٣، ١٩٤.
(٧) المصدر نفسه، ص١٩٥، ١٩٦.
(٨) المصدر نفسه، ص٢٠٠.
(٩) المصدر نفسه، ص٢٠٥.
(١٠) المصدر السابق، ص٢٠٩-٢١١.
(١١) المصدر نفسه، ص٢١٢.

ويدل ذلك على ثبات عهده وحسن استدلاله.[١] وهو طائر أليف ومألوف ومحبب موصوف بالنظافة حتى أن ذوقه لا يعاف، ولا نتن له كسلاح الديك.[٢]

وعاد صاحب الديك ليدخل النقص على الحمام فقال: إنه طائر لئيم قاسي القلب وإن بر ولد غيره على حد زعمهم، وصنع كما يصنع بفراخه، فذلك لأنه يحضن كل بيض ويرزق كل فرخ، وما ذلك منه إلا في الفرط.

ومن لؤمه أنه يرى الذكر الذي هو أضعف منه يلاحق أنثاه ولا يطرده عنها. وإذا اجتمع مع ذكر ضعيف في بيت نقره في رأسه وربما مات بين يديه.[٣]

وقد اختتم صاحب الديك المناظرة بأقوال عدة تذم الحمام، غير أنه لاقى ردا على معظمها.[٤]

٣- مناظرة في الغراب:

لقد ذكرت هذه المناظرة فضيلة واحدة له، وهي اختيار الله عز وجل إياه دون سائر الطير مصلحا ومؤدبا لابن آدم الذي قتل أخاه.

إلا أن صاحب الديك طعن في ذلك وذكر عددا من مساوئه، فهو من شرار الطير، وهو أسود محترق قبيح الشمائل، ورديء المشية، وليس من بهائم الطير المحمودة، ولا من سباعها الشريفة، ويتنكد به، ويتطير منه، وهو آكل جيف، ورديء الصيد.[٥] بالإضافة إلى أنه مقدم في الشؤم.[٦]

وطعن المنتصر له في ذلك فأشار إلى أن الغراب وغير الغراب في ذلك سواء، والأعرابي إن شاء اشتق من الكلمة وجوها توهم فيها الخير، وإن شاء اشتق منها الشر، وكل كلام يحتمل وجوها... وأفاض في دفاعه قائلا إن العامة تتطير من الغراب إذا صاح صيحة واحدة، فإذا ثنى تفاءلت به. وقد تطير أناس كثيرون من غير الغراب فضلا عن أن هناك من أنكر الطيرة أصلا.[٧]

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٣، ص٢١٣-٢١٦، ٢٢٧.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٥٣.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٥٣- ٢٥٥.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٥٦-٢٦٠.
(٥) المصدر نفسه، ص٤١٠-٤١١.
(٦) المصدر نفسه، ص٤٤٣.
(٧) المصدر نفسه، ص٤٤٤-٤٦١.

٤- مناظرة في السنور:

وهي تتمحور حول هذا الحيوان، فقد عرضت له سلبا وإيجابا.

فأما مساوئه فجاءت على لسان صاحب الكلب فقال: إن السنور لـــص لئيـــم، وذلـــك أن صاحب المنزل يرمي إليه بالطعم فيحتمله احتمال المريب، واللص المغير حتى يصل به إلى مـــا يستتر عن غيره.

وهو شره خؤون، فليس في الأرض خبيئة إلا ويأكلها، وتتسبب بموته في أغلب الأحيـــان لما فيها من السم، وهذا يدل على جهله بمصلحة المعاش، وحسه الغليظ وشرهه الشديد.(١)

ومن شره السنانير ولؤمها أن الهرة تأكل أولادها.(٢)

وإناث السنانير إذا هجن للسفاد آذين بصياحهن أهل القبائل ليلا ونـــهارا، ولا يعتريـــهن فترة ولا ملالة.(٣) وكل جنس في العالم من الحيوان ذكورته أظهر هيجا إلا السنانير.(٤)

والسنانير إذا انتقل أربابها من دار إلى دار كان وطنها أحب إليـــها منـــهم، وإن أثبتـــت أعيانهم فإن هم حولوها فأنكرت الدار لم تقم على معرفتهم فربما هربت من دارهم الحادثة، ولـــم تعرف دارهم الأولى فتبقى مترددة إما وحشية وإما مأخوذة وإما مقتولة، والكلـــب يخلـــي الـــدار ويذهب مع أهلها.(٥)

والسنور يسوي في صغره درهما، فإذا كبر لا يساوي شيئا.(٦) وجميع ألوانها كالشـــيات الداخلة على اللون.(٧)

وذكر صاحب السنور فضائله فقال: "إن السنور يشبه الإنسان في أمور منها العطس، التثـــاؤب، والتمطي، وغسل الوجه والعينين بلعابه.(٨)

والسنانير تلد مرتين في السنة، ومن عجائبها القوة التي تدب فيها والشجاعة التي تمتلكـــها إذا كامها فحلها وهرب منها عند الفراغ فلو لحقته لقطعته.(٩) وللسنور فضيلة أخرى فـــهو كثـــير الأسماء القائمة بأنفسها غير المشتقات كالقط ، والهر، والضيون ، والسنور. وليس للكلب اسم

---

(١) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج ٥، ص٣١١-٣١٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٣١٧.
(٣) المصدر نفسه، ص٣١٢.
(٤) المصدر نفسه، ص٣١٣.
(٥) المصدر نفسه، ص٣١٤.
(٦) المصدر نفسه، ص٣١٥.
(٧) المصدر نفسه، ص٣١٨.
(٨) المصدر ذاته، ص٢٩٠.
(٩) المصدر نفسه، ص٣١٨.

سوى الكلب، ولا للديك اسم سوى الديك.[١] وله من المحبة والمنزلة الرفيعة في قلوب الناس، ولا سيما النساء فله من الإلف والدنو والمضاجعة في اللحاف الواحد ما ليس للكلب ولا للحمام ولا للدجاج. هذا ومنها الوحشي والأهلي، فلولا قوة حبه للناس، وإلف الناس له لما كان في هذا المعنى أكثر من الكلب، والكلاب كلها أهلية.

وفمه طيب يشبه أفواه أشبال الأسد، ويقبله ما لا يحصى عدده من الناس وليس ذلك للكلب الذي لا يقبله رفيع ولا وضيع.

ومن صور اهتمام الناس بها تدليلها وصياغة الأقرطة والشنوف لها.

والسنور صائد ماهر، وسريع يثب على الجرادة أو العصفور بلمح البصر. فجلده فضفاض واسع يمكنه من الحركة بخفة ورشاقة.

وله تجار ودلالون. والناس يأكلون السنانير وليس يأكل الكلب أحد إلا في الفرط.

وتفضل الهرة الديك الذي يفضل جميع الحيوانات بإيثاره على نفسه، إلا أن الديك لا يفعل ذلك مع الدجاج على وجه معين، ولكن الهرة تفعل ذلك مع أولادها فقد يرمى إليها بلحم أو عظم فتدعو له أولادها، أو تحمله إليهم وهي جائعة.

وقد يلقى نحوها بقطعة لحم فإذا أقبل ولدها تجافت عنها وربما قبضت عليها بأسنانها فرمت بها إليه بعد شم رائحتها وذوق طعمها. والهرة تنقل أولادها في المواضع من خوفها عليها، ولا سبيل لها في حملها إلا بفيها، فتقبض عليها بقدر الحاجة التي تعرفها فلا تؤذيها ولا تؤثر بها.[٢]

وتضمنت المناظرة قول زرادشت الفارسي في خلق الفأر والسنور، فذهب إلى أن الأول من خلق الله، والثاني من خلق الشيطان. فكان ذلك سبيلا لبيان فضل السنور عليه من خلال المقايسة بينهما في أمور عديدة خلصت بأن منزلة السنور من الفأر كمنزلة الدواء من الداء.[٣]

٥- مناظرة في الضأن والماعز:

انقسمت هذه المناظرة إلى جزأين.

فأما الجزء الأول فقد عدد فيه صاحب الضأن محاسن حيوانه من خلال ذكر مساوئ

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٥، ص٣٣٦.
(٢) المصدر السابق، ص٣٣٦-٣٤٦.
(٣) المصدر ذاته، ص٣١٩-٣٢٠.

الماعز. فاستهل عرضه بشواهد من القرآن والسنة والأمثال ساقها ليدلل على فضل الضأن التي ذاع صيتها فيها. واسترسل في عرضه قائلا: تلد الضأن مرة في السنة، وتنفرد ولا تتم. والماعز قد تلد مرتين وقد تضع الثلاث، والبركة والنماء في عدد الضأن، فالخنازير تلد عددا كبيرا لكن معظمها يموت.

وإن صوف الضأن أغلى وأثمن من شعر الماعز. ولحم الضأن للشواء أفضل من لحم الماعز، والكباش للهدايا والنطاح، ويراهن عليها الملوك.(١) وقد اشتق منها العديد من الأسماء فالمرأة تسمى كبشة، وكبيشة، والرجل يكنى بأبي كبشة.(٢)

ثم تعرض لمساوئ التيس فذكر نتنه واحتقار الناس له.(٣) وبين مثالب العنز فهي التي ترضع من خلفها وهي محفلة حتى تأتي على أقسى لبنها، وهي التي تنزع الوتد وتقلب المعلف. وإذا رتعت الماعز في زرع لم ينبت ما تأكله وليس ذلك في الضأن.

والضأن أحمل للبرد والريح، والموت إلى العنز أسرع، وأمراضها أكثر.(٤)

وتتفاءل الناس بالكباش وتشبه بها وتذم العنز وتهجوها.(٥)

وأما الجزء الثاني فقد ذكر فيه صاحب الماعز محاسنها فقال: في أسمائها وصفاتها وأعمالها ومنافعها دليل على فضلها. وفيها بركة في الحليب والولد، فقد يصل حليبها إلى خمسة مكاكيك في اليوم، وتلد مرتين في السنة.

والجدي أطيب من الحمل وأكرم. والماعز المرعزي أقرب إلى الإنسان من الضأن لأن لها شعر كالإنسان. ولجلودها منافع شتى.(٦)

وكما اشتق من الكبش أسماء للناس اشتق من العنز كذلك، فهناك عنز اليمانية وعنز وائل، وماعز بن مالك.(٧)

وكما ذكرت الضأن في القرآن والسنة والأمثال فقد ذكرت الماعز في العديد من

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٥ ، ص٤٥٥-٤٥٨.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٦٣.
(٣) المصدر نفسه، ص٤٦٤-٤٦٩.
(٤) المصدر نفسه، ص٤٦٩-٤٧٤.
(٥) المصدر نفسه، ص٤٧٤-٤٧٦.
(٦) المصدر نفسه، ص٤٧٦-٤٨٥.
(٧) المصدر نفسه، ص ٤٨٦.

الأشعار.[١]

وفي نهاية المناظرة حاول كل من صاحب الضأن، والماعز إثبات وجهة نظره المتمثلة بقرابة حيوانه من الإنسان أكثر من نظيره.[٢]

٦- مناظرة في الفيل:

لقد تناولت هذه المناظرة مناقب الفيل ومثالبه من خلال الحديث عن البعير، والأسد، والجاموس، والفرس في غير موضع منها.

فقد ذكرت أن أعمار الفيلة طويلة، فالأهلية منها تعيش ما بين الثمانين والمائة، أما الوحشية فعمرها أطول.

ويعمل من جلودها متاريس تكون أجود من التي تعمل من جلد الجاموس والإبل. والفيلة تفهم كلام الفياليين وتنصاع لهم.[٣]

ومن كرمها اقتناء الملوك لها والإكثار من عددها، فهي حصن منيع في الحرب.[٤]

وتقول الهند إن لسان الفيل مقلوب، ولولا أنه كذلك ثم لقن الكلام لتكلم.

وليس لشيء من ذكورة جميع الحيوان وإناثها ثدي في صدره إلا الإنسان والفيل. والفيل أضخم الحيوانات، وهو مع ضخمه أملح، وأظرف وأحكى من جميع الحيوانات التي تتسم بخفة الجسم ورشاقة الطبع.[٥]

فاعترض من يعارضونهم وأجمعوا على أن أعظم الحيوانات خلقا السمكة والسرطان والتنين.

لكن صاحب الفيل رد عل اعتراضهم بالقول: أما الفيل، فعلو سمكه وعظم جفرته واتساع صهوته، وطول خرطومه، وسعة أذنه، وكبر غرموله مع خفة وطئه، وطول عمره، وثقل حمله، وقلة اكتراثه لما وضع على ظهره فقد عاين ذلك من الجماعات من لا يستطيع الرد عليهم إلا جاهل أو معاند . . .

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٥، ص٤٨٨-٤٩٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٥٢٣-٥٢٤.
(٣) المصدر السابق، ج ٧، ص٨٦،٨٧.
(٤) المصدر نفسه، ص١٠١.
(٥) المصدر نفسه، ص١٠٢-١٠٤.

وختم طعنه في تقديم تلك الحيوانات على الفيل قائلا: فإن كان للفيل إلا عظمه، وإن كان العظم قد يدخل في باب من أبواب المفاخرة، فلا ينبغي لأحد أن يناهد به الأبدان التي لها الخصال الشريفة، ويناضل به ذوات المفاخر العظيمة. فما ظنك ببدن قد يجمع مع العظم من الخصال الشريفة ما يغني الطوامر الكثيرة؟[١]

وهو أقوى من جميع الحيوان إن حمل الأثقال، ومن قوة عظمه وعصبه أنه يمر خلف القاعد مع عظم بدنه فلا يشعر بوطئه، ولا يحس بمروره لاحتمال بعض بدنه لبعض، وهذه أعجوبة أخرى.[٢]

والفيل قتال إذا ضرب بخرطومه، وخبط بقوائمه لذلك كانت الأكاسرة تلقي الرجل تحت رجليه فيترك العلف ويدوسه.[٣]

ثم انتقل للحديث عن نابي الفيل وأصليهما، وكيفية خروجهما.[٤]

وعاد لبيان مفاخر الفيل فوصف غرموله، وخرطومه الذي هو أنفه ويده فبه يوصل الطعام والشراب إلى جوفه، وبه يقاتل ويضرب، ومنه يصيح، والهند تربط في طرفه سيفا شديد المتن فيقاتل به.[٥] وهو جيد السباحة لكن البعير قبيح السباحة فهو بطيء لأنه لا يسبح إلا على جنبه.[٦]

وليس عند الخيل والإبل إذا صادفت الأسود والنمور ما عند الجاموس والفيل.[٧]

وأجمعوا على قوة الفيل الوحشي على الأسد، وأما الأهلي فلا يقوى له في موطنه العراق.

لكن صاحب الفيل طعن في ذلك وقال: لا يحق الفخر في مقاومة الأسد في بلده للفيل، لأن الفيل في بلاد العراق قد يرى السنانير وقد جعل الله في طبعه الهرب والوحشة منها، كما أن بعض شجعانكم يمشي إلى الأسد، ويقبض على الثعبان، ولا يستطيع النظر إلى الفأر والجرذان

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٧، ص١٠٤-١٠٩.
(٢) المصدر ذاته، ص١١٠.
(٣) المصدر نفسه، ص١١١.
(٤) المصدر نفسه، ١١٦-١١٧.
(٥) المصدر نفسه، ص١١٨.
(٦) المصدر نفسه، ص١١٩.
(٧) المصدر نفسه، ص١٢٠.

حتى يهرب منها كل الهرب.[١]

ودافع من ينتصر للأسد بالقول: إن الأسد في الهند ضعيف، والفيل في بلاده أقوى والوحشي منها أجرأ، وإن كان الفيل في غير أيام هياجه والأسد كذلك ثم يكون الأسد عراقيا أو سودانيا أو من أجمة أبزيقيا فإن الفيل لا يقوم له.[٢]

فرد صاحب الفيل على ذلك قائلا: الفيل لا يعاين أسدا إبزيقيا حتى تفسخه البلدة وتهزمه الوحشة وهو لا يصل إلى ذلك المكان حتى يجمع بينه وبين ذلك الأسد فمتى رأى أسدا قائما فربما دعته الوحشة منه والبغض المجعول فيه إلى الصدود والذهاب عنه، ولا يكون ذلك جبنا منه بل هو من الوحشة منه والكراهة لمنظره. وربما اضطره الأسد بخرقه حتى ينقض حلمه ويغلب وقاره فيخبطه خبطة لا يفلح بعدها أبدا.[٣]

وإذا أراد الفرس أسدا فليس عنده من إحراز نفسه وقتل غيره ما عند الجاموس، فإن فضله عليه بقرنيه.[٤] وفرس الماء يتلعب بالأسد إذا كان في الماء. والأسد يقوى للجمل ويتلعب به كيف يشاء.[٥]

ومن شرف الفيلة حرص الملوك والأمراء على اقتنائها وتكثير عددها فالفيل يفضل الفرس في الحرب لأنه يحمي الجماعة كلهم. ويقاتل وله من الهول ما ليس للفرس، وهو أحسن مطاوعة منه، وما يشبه ظهره من ظهره، فظهر الفيل مسلحة من المسالح.

وفي الفيلة عجب آخر فإن قصر الأعمار مقرون بكل خلق يعايش الناس كالإبل والفرس والحمار والثور والشاة... إلا أن الفيل أطولها عمرا بكثير.[٦]

وقال خصماء الهند: الفيلة لا تتلاقح في العراق لأنها هندية. فطعن صاحبها بذلك، فأشار إلى أن كسرى استنتج دغفلا، وهذه حجة كافية.[٧]

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٧، ص١٣٤-١٣٦.
(٢) المصدر نفسه، ص١٣٨-١٣٩.
(٣) المصدر نفسه، ص١٣٩-١٤٠.
(٤) المصدر نفسه، ص١٤٢.
(٥) المصدر نفسه، ص١٤٤.
(٦) المصدر نفسه، ص١٨٢-١٨٤.
(٧) المصدر نفسه، ص١٨٦-١٨٨.

وقال بعض من يخالف الهند: الفيل لا ينتفع بلحمه، ولا بلبنه، ولا بسمنه، ولا بزبده، ولا بشعره، ولا بوبره، ولا بصوفه، فهو عظيم المؤونة في النفقة، وإذا اغتلم لم تفد جميع منافعه في جميع دهره بمضرة ساعة، وهو مرتفع في الثمن، وإن أخطأوا في تدبير مطعمه ومشربه وتلقينه هلك سريعا، ولا يتصرف، وينصرف كسائر الدواب، ولا يركب في الحوائج والأسواق.

والفيل أفقم العنق، مقلوب اللسان، مشوه الخلق، فاحش القبح، ولا يفلح ذو أربع وقصير العنق في طلب ولا هرب قط.

وليس يؤتى البعير في حضره مع طول عنقه إلا من ضيق جلده. والفيل ضئيل الصوت، وذلك من أشد عيوبه، وإذا بلغت فيه الغلمة أشد المبالغ أشبه الجمل.

ولو لم يكن في الفيلة من العيب إلا أن عدة أيام حملها كعمر بعض البهائم لكان ذلك عيبا شديدا.(١)

ومن مناقب الفيل أنه ليس شيئا يحمل عددا من الأرطال ما يحمل، فهو يفوق كل الحيوانات في ذلك بما فيها الجمل. ومن عجائبه السوط الذي يحث ويصرف به فهو من حديد يغرس طرفه في جبهته.(٢)

وقد جعله الله من أكثر الآيات وأعظم البرهانات إذ جعله الله درعا لحماية البيت الحرام من الأحباش، فإذا قصدوا به نحوه تعاصى وبرك.(٣)

ومن خصائص الفيلة أنها لا تلد التؤام، وأمراضها أقل من أمراض غيرها. وإناث الفيلة وذكورها متقاربة في السن كالنساء والرجال.(٤)

ومن فوائدها استخدامها في النقل، والركوب عليها كالإبل والجواميس. وعظام الفيل كلها عاج إلا أن جوهر الناب أثمن وأكرم.(٥)

وبعد هذا العرض الملخص لمضامين المناظرات، تبين أنها تتسم بالوحدة الموضوعية، فقد انشغلت جميعها بالحيوان دون سواه.

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٧، ص١٩٠-١٩٤.
(٢) المصدر نفسه، ص١٩٤-١٩٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٢١١-٢١٢.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٢٧-٢٢٨.
(٥) المصدر نفسه، ص٢٣١.

أنواعها:

انتظمت المناظرات في كتاب الحيوان في سلك المناظرات المخترعة والمتخيلة، فلم تجر على أرض الواقع أصلا، بل هي من إنشاء الجاحظ الشخصي، وليس هناك صاحب كلب أو ديك، أو صاحب حمام أو صاحب سنور، أو المنتصر للأسد، أو المعبر عن خصال الفيل فهذه الشخصيات اختلقها ليجري على ألسنتها تلك المناظرات التي اخترعها من خياله، وغذاها ببنات أفكاره، فهي كتابية محضة جمع فيها تجارب متنوعة وأقوالا مختلفة وآراء متفرقة حول الحيوانات التي تناولتها، أو عن القضية التي طرحها فيها من خلال تجسيده لتلك الشخصيات التي أخذ كل منها يعتز برأيه، وينتصر لحيوان بعينه، يدافع عنه ويرد على خصمه بالأدلة والبراهين من خلال هذا النمط الفني المؤثر.

ومما يعزز هذا الرأي تأكيد العديد سن الكتاب على هذه الحقيقية،[1] بالإضافة إلى أن أسلوب جميع المناظرات في كتابنا واحد لا يتغير، بل هو نفسه أسلوب الجاحظ الذي ظهر في العديد من كتبه ورسائله التي تأثرت بالمنهج الجدلي، واتسمت بمسحة المناظرة كالحاسد والمحسود، وافتخار السودان على البيضان، ومفاخرة الجواري والغلمان، وافتخار الشتاء والصيف. فضلا عن أن الجاحظ من أبرز الكتاب الذين شغفوا وعنوا بهذا الفن وبرعوا في اصطناعه ونسجه بصياغة محكمة، وإيصاله إلى الآخرين كأنه حقيقة.

---

(١) أنظر شوقي ضيف، **العصر العباسي الثاني**، مرجع سابق، ص٥٩٨. وأحمد أمين مصطفى، **المناظرات في الأدب العربي إلى نهاية القرن الرابع**، دار النصر، القاهرة، ١٩٨٤، ص١٨٩. وفيكتور شلحت، **النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ**، مرجع سابق، ص ١١٠-١١١.

مصادرها:

مر بنا أن المناظرات في كتاب الحيوان من التوليد الذاتي للجاحظ، فهي ذاتية من حيث المصدر في المقام الأول، فالمفاصل الرئيسية، والأفكار الجزئية والكلية فيها من نتاجه وعصارة تجاربه وخالص أفكاره. غير أنه غذاها بمعارف جمة استقاها من مصادر متنوعة[١] أبرزت تلك المناظرات بصورة رائعة ومؤثرة، خاصة وأن ما جاء من تلك المصادر كان عبارة عن شروح وأدلة على أقوال المتناظرين التي هي من صوغ الجاحظ.

ويمكن تقسيم تلك المصادر إلى:

١- **مصادر عربية** وتحتوي على:

أ- القرآن والسنة:

حرص الجاحظ على إجراء عدد من الآيات القرآنية، ونماذج من السنة المحمدية على ألسنة المتناظرين ليقووا بها حججهم، ويعززوا فيها آراءهم لما تحظى من قوة في التأثير وجمال في التعبير وتكاد لا تخلو مناظرة منها.

ففي مناظرة الكلب والديك ذهب صاحب الأخير من خلال القرآن إلى أن الكلب من شرار الخلق ويجب قتله، غير أن خصمه طعن في ذلك بآية أخرى، "ولما قال معبد في قتل الكلب، وتلا قوله عز وجل: "واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص".[٢]

قال أبو اسحق: وإن كنت إنما جعلت الكلب شر الخلق بهذه العلة فقد قال على نسق هذا الكلام: "لقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل"[٣] فالذي قال في الإبل والبقر والغنم أعظم، فأسقط من أقدارها بقدر معنى الكلام وأدنى ذلك أن تشرك بين الجميع في الذم فإنك متى أنصفت في هذا الوجه، دعاك ذلك إلى أن تنصفها في تتبع ما لها من الأشعار والأمثال والأخبار والآيات، كما تتبعت ما عليها".[٤]

---

(١) لقد نبه الجاحظ إلى تلك المصادر في غير موضع من مناظرة الكلب والديك، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص ٢٢٣، ج٢، ص ٥.

(٢) **سورة الأعراف** (آية ١٧٦)

(٣) **سورة الأعراف** (آية ١٧٩)

(٤) الجاحظ، **الحيوان**، ج ١، ص٣٥٦ ويمكن ملاحظة بعض الآيات في المناظرة نفسها: ج ٢، ص ١٨٧، ص ٢٠٤، ص ٢٣٤.

وأبان صاحب الضأن جانبا من فضلها على الماعز من خلال الأيات التي ذكرت بها.[١]

وتبادل صاحب الكلب والديك الحجج والبراهين السنية في غير موضع من تلك المناظرة. فعلى الأمر بقتل الكلب ودنو قدره ساق صاحب الديك عددا منها:

"وعن أبي عنبسة عن أبي الزبير عن جابر: قال: أمرنا رسول الله صلى عليه وسلم بقتل الكلاب، حتى أن المرأة لتقدم بكلبها من البادية فنقتله، ثم نهانا عن قتلها وقال: عليكم بالأسود البهيم ذي النكتتين على عينيه، فإنه شيطان.

وعن أبي الزبير عن جابر قال: أمرنا رسول الله صلى عليه وسلم بقتل الكلاب فكنا نقتلها كلها حتى قال: إنها أمة من الأمم، فاقتلوا البهيم الأسود ذا النكتتين على عينيه، فإنه شيطان".[٢]

"وعن ابن أبي أنيسة عن سالم عن أبيه قال رسول الله صلى عليه وسلم: من اقتنى كلبا إلا كلب صيد أو كلب ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان. وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: من اقتنى كلبا فإنه ينقص من عمله كل يوم قيراط".[٣]

وذكر عددا منها للدلالة على فضل الديك، وعلو منزلته. "قال صاحب الديك: حدثونا عن صالح بن كيسان عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، صرخ ديك عند النبي صلى الله عليه وسلم فسبه بعض أصحابه، فقال لا تسبه فإنه يدعو إلى الصلاة".

"وعن ابن الماجشون عن صالح بن كيسان، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن يزيد بن خالد الجهني: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن سب الديك وقال: إنه يؤذن للصلاة".

(وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبيته معه في البيت).[٤]

وافتخر صاحب الكلب بحديث النبي صلى الله عليه وسلم (أكلك كلب الله) فقال: "يقال أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعتبة بن أبي لهب أكلك كلب الله فأكله الأسد. فواحدة: قد ثبتت

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٥، ص٤٥٥-٤٥٦.
(٢) المصدر السابق، ج ١، ص٢٩٢.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٩٤.
(٤) المصدر السابق، ج ٢، ص٢٥٨-٢٥٩.

بذلك أن الأسد كلب الله. والثانية أن الله تبارك وتعالى لا يضاف إليه إلا العظيم...".[١]

وفي مناظرة الضأن والماعز ورد ما يقرب من عشرة أحاديث تبين محاسن الغنم وبركتها، وتحض على الرفق بها.[٢]

ب- الأمثال:

كان قولهم أسمح من لافظة محل نزاع بين صاحب الكلب والديك.[٣]

وفي سياق حديث صاحب الكلب عن بله الديك وجبنه قال: "فإنه مع حرصه على السفاد لا يعرف التي يسفد، ولا يقصد إلى ولد. ولا يحضن بيضا ولا يعطفه رحما فهو من هاهنا أحمق من الحبارى وأعق من الضب".[٤]

وروى صاحب الديك أمثالا تذم الكلب فقال: "يقال للسفيه إنما هو كلب، وإنما أنت كلب نباح.....، وقالوا في المثل: احتاج إلى الصوف من جز كلبه، وأجع كلبك يتبعك، وأحب شيء إلى الكلب خانقه، وسمن كلبك يأكلك، وأجوع من كلبة حومل، وكالكلب يربض في الآري فلا هو يأكل ولا يدع الدابة تعتلف".[٥]

وفي مناظرة الحمام استدل صاحب الديك بالقول المأثور كونوا بلها كالحمام، والمثل القائل أخرق من حمامة على بله الديك.[٦]

واستعان المحتج للسنانير بعدد منها في دفع التهمة القائلة بقسوتها وشرهها لدرجة أنها تأكل أولادها، "قالوا: أبر من هرة! وأعق من ضب! وهذا قول الذين عاينوها تأكل أولادها، وزعموا أن ذلك من شدة الحب لها، وقال بعضهم: إنما يعتريها ذلك من جنون يعتريها عند الولادة، وجوع يذهب معه علمها بفرق ما بين جرائها وجراء غيرها من الأجناس....".[٧]

وفي مناظرة الضأن والماعز استعان صاحب الأول ببيان فضله على الثاني بالأمثال التي ذكر بها "..... والمثل السائر: إنما فلان كبش من الكباش. وإذا هجوه قالوا: إنما هو تيس

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٢، ص١٨١. وانظر كذلك في نفس المناظرة:ج١، ٢٧٩، ٣٧٣، ج٢، ص ١٥٢-١٥٣، ٣٥٤.
(٢) المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٠٣-٥٠٨.
(٣) المصدر السابق، ج ٢، ص١٤٨-١٤٩.
(٤) المصدر السابق، ج١، ص١٩٦.
(٥) المصدر نفسه، ص ٢٩٠-٢٩١. وانظر كذلك عددا منها: المصدر نفسه، ص٢٢٨، ٢٥٩.
(٦) المصدر السابق، ج ٣، ص١٨٩.
(٧) المصدر السابق، ج ٥، ص٣٢٨.

من التيوس، وإذا أرادوا النتن أيضا. فإذا أرادوا الغاية في الغباوة قالوا: ما هـــو إلا تيـــس فـــي سفينة"(١)

"وتقول العرب لهو أصرد من عنزة جرباء، والعنز تبهي ولا تبني".(٢)

جـــ- الحكايات:

وردت مجموعة من الحكايات في العديد من المناظرات تفسيرا للمعلومة أو تأكيدا لها.

فقد ساق صاحب الكلب حكاية إياس بن معاوية وأخيه التي تنطوي على ذم للديك.

"وقال صاحب الكلب: قال أبو الحسن: كان إياس بن معاوية وهو صغير ضعيفـــا دقيقـــا دميما، وكان له أخ أشد حركة منه وأقوى، فكان معاوية أبوه يقدمه على إياس، فقال لـــه إيـــاس يوما يا أبت إنك تقدم أخي علي، وسأضرب لك مثلي ومثله: هو مثل الفروج حين تنفلـــق عنـــه البيضة، يخرج كاسيا كافيا نفسه، يلتقط ويستخفه الناس، وكلما كبر انتقض، حتى إذا تـــم فصـــار دجاجة، لم يصلح إلا للذبح. وأنا مثل فرخ الحمام حين تنفلق عنه البيضة عن ساقط لا يقدر علـــى حركة، فأبواه يغذيانه حتى يقوى ويثبت ريشه ثم يحسن بعد ذلك ويطير فيجد به الناس ويكرمونـــه ويرسل من المواضع البعيدة فيجيء فيصان لذلك ويكرم ويشترى بالأثمان الغالية. فقال أبوه لقـــد أحسنت المثل فقدمه على أخيه، فوجد عنده أكثر مما كان يظن فيه".(٣)

وذكر صاحب الديك لصاحب الكلب الحكاية الأسطورية التي تمثل بها المورياني لقومـــه بعد عودته من عند أبي جعفر فقال على لسانه: "زعموا أن البازي قال للديك: ما في الأرض مـــن شيء أقل وفاء منك! قال: وكيف؟ قال: أخذك أهلك بيضة فحضنوك ثم خرجـــت علـــى أيديـــهم فأطعموك على أكفهم ونشأت بينهم حتى إذا كبرت صرت لا يدنو منك أحـــد إلا طـــرت هاهنـــا وهاهنا وضججت وأخذت أنا من الجبال مسنا فعلموني وألفوني ثم يخلى عني فآخذ صيدي فـــي الهواء فأجيء به إلى صاحبي. فقال له الديك إنك لو رأيت من البزاة في سفافيدهم مثلمـــا رأيـــت من الديوك لكنت أنفر مني".(٤)

وجاءت عدة حكايات في مناظرة الفيل تبين خصائصه وطرفا من فضله على غيره من

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٥ ، ص٤٥٦-٤٥٧.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٦٠.
(٣) المصدر السابق، ج ٢، ص٢٧٨-٢٧٩.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٦٢-٣٦٣، وانظر كذلك ج١، ص٣٧٠-٣٧١.

الحيوانات كضخامته،[١] وتفوقه على الجمل في حمل الأثقال،[٢] وشدة اغتلامه،[٣] وسجوده للملك الفارسي،[٤] وفهمه كلام الفياليين.[٥]

د- الأخبار والآثار:

زود هذا اللون من المصادر المناظرات بمادة معرفية وافرة ومتنوعة جمعت أخبار وآثار شرائح شتى في عصور مختلفة.

فلمدح الكلب ذكر صاحبه "أن مطرف بن عبد الله كان يكره أن يقال للكلب إخسأ وما أشبه ذلك. وفي دعائه على أصحاب الكلب الذي كان أربابه لا يمنعونه من دخول مصلاه قال: اللهم امنعهم ببركة صيده وهذا دليل على حسن رأيه فيه".[٦]

وقال صاحب الكلب: كان يقال لأبي العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس وهو زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأخيه الكنانة بن الربيع جرو البطحاء.[٧]

وحين تحدث صاحب الديك عن التفاؤل في الدجاج ساق عددا من الأخبار والآثار التي تبين ذلك. قال: "والدجاجة يتفاءل بذكرها ولذلك لما ولد لسعيد بن العاص بن عنبسة بن سعيد، قال لابنه يحيى أي شيء تنحله قال دجاجة بفراريجها يريد احتقاره بذلك، إذ كان ابن أمة ولم يكن ابن حرة فقال سعيد، أو قيل له إن صدق الطير ليكونن أكثرهم ولدا. فهم اليوم أكثرهم ولدا وهم في الكوفة والمدينة".[٨]

وفي مناظرة الحمام وردت جملة من الأقوال لمثنى بن زهير خبير الحمام بينت أوجه التشابه بين الحمام والناس.[٩]

وتصدر صاحب الكلب هجومه على السنانير برواية خبر طريف حيث قال: "قالوا: ولما مات القصبي وكان من موالي بني ربيعة بن حنظلة وهو عمرو القصبي ومات بالبصرة رجم

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٧، ص ٢٠١.
(٢) المصدر نفسه، ص١٩٤.
(٣) المصدر نفسه، ص١٧٩.
(٤)المصدر نفسه، ص٢٠٥.
(٥) المصدر نفسه، ص ٢٢٥.
(٦) المصدر السابق، ج ٢، ص٢٦٢-٢٦٣.
(٧) المصدر السابق، ص٣٦١.
(٨) المصدر نفسه، ص٣٥٦.
(٩) المصدر السابق، ج٣، ص١٦٤-١٦٨.

بالسنانير الميتة. وقد صنعوا شبيهاً بذلك بخالد من طليق حين زعم أهله أن ذلك كان عن تدبير محمد بن سليمان".[١]

ومن الأخبار والآثار التي وردت في فضل الضأن على الماعز قول ابنة الخس ودغفل: "وقيل لابنة الخس ما تقولين في مائة من العنز؟ قالت: قنى. قيل فمائة من الضأن؟ قالت: غنى. قيل فمائة من الإبل؟ قالت: مُنى.

وسئل دغفل بن حنظلة عن بني مخزوم فقال: معزى مطيرة عليها قشعريرة إلا بني المغيرة فإن فيهم تشادق الكلام ومصاهرة الكرام".[٢]

"وقال عمرو بن العاص للشيخ الجهني المعترض عليه في شأن الحكمين: وما أنت والكلام يا تيس جهينة؟ ولم يقل يا كبش جهينة لأن الكبش مدح والتيس ذم".[٣]

هـ- الأشعار:

حفلت المناظرات في كتاب الحيوان بمادة شعرية كبيرة، فلا تكاد تخلو منها واحدة لأنها غنية بالمعلومات المختلفة والتجارب المتنوعة التي سجلها الشعراء حول الحيوانات.

ومن أكثرها استخداما للشعر مناظرة الكلب والديك، فقد ذكر صاحب الديك مجموعة من الأشعار التي هجي بها الكلب مجرداً ثم ذكر ما ذسوا به وأصناف أعماله وأمورا من صفاته.[٤]

وروى خصمه أشعاراً لمن هجا الدجاج ومن اتخذها وأشبهها في وجه من الوجوه.[٥]

وساق صاحب الحمام لصاحب الديك مقطوعات شعرية متنوعة تغنت بطوق الحمامة الذي افتخر به عليه.[٦]

وحين طعن صاحب الكلب بالسنور استشهد بعدد من الأبيات: "قال: السنور يسوي في صغره درهماً فإن كبر لم يسوَ شيئاً وقال العمّى:

فإنك فيما قد أتيت من الخنا سفاهاً، وما قد زدتَ فيه بإفراط

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٥، ص٢٧٥-٢٧٦.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٥٩-٤٦٠
(٣) المصدر نفسه، ص٤٦٢.
(٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٤-٢٧١.
(٥) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠١-٣٠٦
(٦) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٩٦-٢٠٠.

كسنور عبد الله، بيع بدرهم صغيراً فلما شبّ بيع بقيراط".[١]

وردا على قولهم الغراب مقدم على غيره بالشؤم.[٢] قال صاحبه: الغراب وغير الغـــراب في ذلك سواء. والأعرابي إن شاء اشتق من الكلمة وتوهم فيها الخير وإن شاء اشتق منها الشـــر وكل كلمة تحمل وجوهاً، فدعم دفاعه هذا بمقطوعات شعرية.[٣]

وساق صاحب الضأن أشعاراً في ذم العنز، فقال: "ومما ذموا فيه العنز دون النعجة قـول أبي الأسود الدؤلي:

ولست بمعراض إذا ما لقيتـــه يعيسُ كالغضبان حيـــن يقـــول

ولا بسبس كالعنز أطول رسلها ورئامهـــا يومان ثـــم يزول

وقال أبو الأسود أيضا:

ومن خير ما يتعاطى الرجال نصيحة ذي الرأي للمجتبيها

فلا تـــك مثل التي استخرجت بأظـــلافها مـــدية أو بفيها

فـــقـــام إليـــهـــا بها ذابـــح ومن تدعُ يوما شَعوب يجيها

فـــظلت بأوصالـــها قِدرهـــا تـــحـــش الوليدة أو تشتويها

وقال مسكين الدارمي:

إذا صبـــحـــتني من أناسٍ ثعالـــب لـــترفـــع ما قالوا منحتهم حقـــرا

فكانوا كعنز السوء تثغـــو لحَينها وتحفر بالأظلاف عن حتفها حفرا"[٤]

٢- العجم:

لم تقتصر المناظرات على الاستفادة من التراث العربي فحسب بل توجهت إلـــى تـــراث الأمم الأخرى بحثا عن الفائدة. فقد وردت نصوص من كتاب الحيوان لأرسطو فـــي منـــاظرتي الكلب والديك،[٥] والفيل.[٦]

وفي مناظرة السنور ورد قول لزَرَادُشْت الملك الفارسي في خلق الفأر والسنور الذي

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٥، ص ٣١٥.
(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٤٣.
(٣) المصدر ذاته ، ص ٤٤٤-٤٤٦.
(٤) المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٧٤-٤٧٥.
(٥) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٥.
(٦) المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٢٦.

يرى أن الأول من خلق الله، والثاني من خلق الشيطان.[١]

وفي معرض حديثه عن أنواع الحمام وفوائده نقل صاحبه عن أفليمون اليوناني حديثاً حيث قال: "وقد زعم أفليمون صاحب الفراسة أن الحمام يتخذ لضروب: منها ما يتخذ للأنس والنساء والبيوت، ومنها ما يتخذ للزجال، والسباق".[٢]

لقد لون الجاحظ في مصادر المناظرات غير أنه ركز على الشعر الذي احتل مكان الصدارة بين تلك المصادر، ثم يليه الأخبار والآثار، فالأمثال، فالحكايات، ثم المصادر الدينية، وفي المرتبة الأخيرة التراث الأعجمي الذي اتسمت مادته بالقلة والمحدودية.

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٥، ص ٣١٩.
(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٦.

وظائفها:

لم يأتِ الجاحظ بالمناظرات في كتاب الحيوان ليفرغ معلومات عن بعض الحيوانات يوصلها للمتلقي من خلال شكل فني ما، بل ذهب إلى أبعد من ذلك وأوكل لها مهام قامت بها في كتابنا على المستويين الفني والفكري سنعرض لأهمها فيما يلي:

١- **لقد وفق الجاحظ في توظيف المناظرات لتحقيق مقصده من كتاب الحيوان**، وهو الاستدلال بالخلق على الخالق من خلال ما ضمنها من معلومات غريبة، وأخبار عجيبة، وتفصيلات دقيقة عن الحيوانات التي تناولتها من زوايا عديدة، ويمكن تلمس ذلك في غير موضع منها. وهي بمثابة دعوات مفتوحة للنظر والتفكر والتأمل في حسن خلق الله وعظيم صنعه.

وقد أعلن الجاحظ عن هذه الغاية بصراحة في سياق حديثه عن الهدف من مناظرتي الكلب والديك، والفيل اللتين يمكن أن يقاس عليهما سائر مناظرات الكتاب من هذه الناحية.

"فليس لقدر الكلب والديك في أنفسهما وأثمانهما ومناظرهما ومحلهما من صدور العامة أسلفنا هذا الكلام، وابتدأنا بهذا القول. ولسنا نقف على أثمانهما من الفضة والذهب، ولا إلى أقدارهما عند الناس وإنما نتنظر فيما وضع الله عز وجل فيهما من الدلالة عليه، وعلى إتقان صنعه، وعلى عجيب تدبيره، وعلى لطيف حكمته، وفي ما استخزنهما من عجائب المعارف وأودعهما من غوامض الأحساس وسخر لهما من عظام المنافع والمرافق، ودل بهما على أن الذي ألبسهما ذلك التدبير وأودعهما تلك الحكم يجب أن يفكر فيهما ويعتبر بهما ويسبح الله عز وجل عندهما.

فغشي ظاهرهما بالبرهان، وعم باطنهما بالحكم، وهيج على النظر فيهما والاعتبار بهما ليعلم كل ذي عقل أنه لم يخلق الخلق سدىً، ولم يترك الصور هملاً، وليعلموا أن الله عز وجل لم يدع شيئا غفلاً غير مرسوم، ونثرا غير منظوم، وسدىً غير محفوظ وأنه لا يخطئه من عجيب تقديره ولا يعطله من حلى تدبيره، ولا من زينة الحكم وجلال قدرة البرهان".(١)

وقد أشار إلى شبيه من هذا أثناء تقديمه للحديث عن الفيل يقول: "وأنا ذاكر إن شاء الله ما جاء في الفيلة من عجيب التركيب وغريب التأليف والمعارف الصحيحة، والأحاسيس اللطيفة وفي قبولها التثقيف والتأديب، وسرعتها إلى التلقين والتقويم، وما في أبدانها من الأعضاء

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٢ص ، ١٠٩.

الكريمة والأجزاء الشريفة، وكم مقدار منافعها ومبلغ مضارها، وبكم فضلت أجناس الحيوان وفاقت تلك الأجناس وما جعل الله تعالى فيها من الآيات والبرهانات والعلامات النيرات التي جلاها لعيون خلقه، وعرف بينها وبين عقول عباده، وقيدها عليهم، وحفظها لهم، ليكثر لهم من الأدلة، ويزيدهم في وضوح الحجة، ويسخرهم لتمام النعمة..."[١]

إذا هذه هي الغاية المنشودة والوازع الرئيسي للمناظرات في هذا الكتاب إنه وازع فكوي وعقدي وهذا ما يضعف ما ذهب إليه شوقي ضيف،[٢] وطه الحاجري[٣]من أن كلتا المناظرتين بالتحديد قامتا على أنفاس رمزية، وهما مظهر من مظاهر الصراع بين النزعة الشعوبية والنزعة العربية، إلا أن الدارس يلمس أن أسلوب ومضمون كليهما لا يوحيان إلى الرمزية التي ذهبا إليها، فقد قدم الجاحظ خلالهما مثالب بعض الحيوانات ومناقبها فقط، وفيما يختص بمناظرة الفيل وغيره من الحيوانات فقد أشار في صدر تقديمه لها إلى أنه سيفضل الفيل على البعير فلو كان لتأويلهما مكان في ذهن أبي عثمان لفعل العكس.[٤]

مهمة فنية:

لقد وشح الجاحظ كتابه عدداً من المناظرات لأنها أنسب الأنماط الفنية وأكثرها قدرة على التأثير والتعبير عن الموضوعات التي طرحت فيها والتي تركزت في زاوية علم الحيوان، والمناظرات أقرب تلك الأشكال لهذا اللون من الكتابات، وخاصة وأن المفاضلة بين حيوانين فأكثر، أو المقاولة في واحد بعينه لا تتحقق وتكتمل صورتها وتبدو رائعة ومؤثرة إلا من خلال اجتماع وجهتي نظر مختلفتين، وأدلة وبراهين وطعون وردود وهذه من أهم العناصر التكوينية لهذا الفن.

ومن جهة أخرى فلعل الذي وراء حرص الجاحظ على إبراز هذا الشكل الفني في هذا الكتاب وكتبه الأخرى رغبته بإظهار براعته الفنية وقدرته العالية على تلوين الصياغة والإنشاء، بالخروج عن الأنماط الفنية المعهودة والتجديد في أسلوب الصياغة تمشيا مع لغة ذلك العصر التي سيطر عليها هذا النمط من التعبير.

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٧، ص٧٣.
(٢) شوقي ضيف، **العصر العباسي الثاني**، مرجع سابق، ص٥٩٨-٦٠١.
(٣) طه الحاجري، **الجاحظ حياته وآثاره**، ط٣، دار المعارف بمصر، ص٤٠٢-٤٠٣.
(٤) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٧، ص ٧٥.

مهمة تعليمية:

تشكل المناظرات في كتاب الحيوان أبحاثاً علمية هامة لها قيمة عالية، وفائدة عظيمة في علم الحيوان. فعلى الرغم من تواضع المعلومات التي قدمتها عن الحيوانات التي تحدثت عنها وفرت مادة معرفية واسعة ومتنوعة حول تلك الحيوانات التي تناولتها بالتفصيل المتفاوت من خلال تسجيلها لمعلومات متنوعة وأخبار مختلفة وأقوال متعددة عنها.

وأسهمت المناظرات في تقديم صورةٍ شاملةٍ عن الحيوانات التي تمحورت حولها بالتعاون مع المتن المعرفي في بعضها كما في مناظرة الحمام، والسنور. وبمعزل عنه في بعضها الأخر، حيث تولت الشرح والتقديم بشكل كامل كما في مناظرة الكلب والديك، والضأن والماعز.

الفصل الثاني

الأشكال التعبيرية النثرية

دراسة فنية

أولاً- الحكاية.

ثانياً- المثل.

ثالثاً- المناظرة.

أولا- الحكاية

أ- بناؤها:

يتسم شكل الحكاية في كتاب الحيوان بالثبات النسبي، فلا تخرج الحكاية أيا كانت في شكلها عن أحد التراكيب التالية : إما استهلال فوصف للشخصية فالحدث، وأما استهلال فتناول الحدث فوصف للشخصية، وأما استهلال فوصف للشخصية، أو لظاهرة معينة، أو لحدث عادي. وعلى الرغم من تفاوتها في الطول فهي تميل إلى الشكل المختصر، فقد يصل طول بعضها القليل إلى عدة صفحات ولكنها لا تتجاوز الأربع.(١)

ولكن أكثرها لا يزيد عن بضعة أسطر،(٢) وهي ما عرف بحكايات الومضة السريعة.(٣)

أو" الحكاية المضغوطة التي تقترب من النادرة أو الطرفة، وهذا النوع أقرب إلى ما يسمى في عصرنا الحاضر بالنكتة، فهو عبارة عن حكاية موجزة للغاية ذات شكل حاد غير أنها تتميز بعنصر النهاية الفنية".(٤) ولعل الذي خلق هذا التفاوت بينها إطلاق الجاحظ نفسه على سجيتها في التقاط مظاهر الحكاية وتسجيلها بمزاج أدبي خالص فلم تكن لديه – وقتها –عناصر فنية للقصة تحكمه وتضبط اتجاهه القصصي.(٥)

وكذلك الموضوع الذي تعالجه الحكاية ومدى اهتمام الجاحظ فيه .

ولعل الأسلوب المكثف الذي شيد به بناؤها كان عاملا مساعدا على احتفاظها بحجمها المتناسب مع طول الموضوع الذي تتناوله. فعرض الحدث مكثفا خاليا من التفصيلات، وكذلك الزمن.

ولم تعن بتصوير المكان إلا لماما فجاء باهتا فيها.

وركزت الحكايات على الجانب الخاص للشخصية الذي يرتبط مع موضوع الحكاية دون العام. ولم تجتمع أبعاد أي من تلك الشخصيات في حكاية واحدة.

ولا تعمد الحكايات إلى أي من عناصر البناء في تصميمها الهندسي إن لم يكن له أهمية كبرى في بنائها، فسنلاحظ غياب أحدها في حكاية، وظهوره في أخرى.

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ١، ص١٢٦-١٢٨.ج٢، ص١٥٦-١٥٧.ج٣، ص٣٤٣-٣٤٦. ج٤، ص٣٦٩-٣٧٤. ج٥، ص٣٩٣-٣٩٦. ج٦،ص٤٩٠-٤٩٣.

(٢) المصدر السابق، ج ٣،ص١٦، ٣١.ج٤،ص٦٥.ج٦،ص٤٥٩.

(٣) أبو الرب، **الحكاية في أدب الجاحظ**، مرجع سابق، ص١٢٣.

(٤) عبد الله باقازي، **القصة في أدب الجاحظ**، ، مرجع سابق، ص١٦٣.

(٥) المرجع نفسه، ص٧٣.

عناصر البنية الحكائية:

لقد ارتفع بناء الحكاية في كتابنا على زوايا فنية عديدة، منها:

١- الاستهلال:

وأهم ما يلفت الأنظار في الحكايات السند، الذي لاقى اهتماما بالغا من الجاحظ، وجاء هذا الاهتمام من تأثره بعلماء الحديث في عصره، (وحرص الحكايات على الالتزام بالنمط الشائع في صياغة الخبر وروايته والذي يقوم على ثنائية الإسناد والمتن).[١]

فقلما نجد في كتاب الحيوان حكاية دون إسناد، باستثناء الحكايات التي من إنشاء الجاحظ الذاتي، لكونه طرفا فيها، أو من نسجه ولم يتلقها عن أحد.

وقد سيطرت على افتتاحيات الأسانيد ألفاظ ترد كلها إلى مدلول واحد يفيد الإعلان عن طريق نقل المتن الحكائي وتلقيه، والتي من خلالها يُشار إلى مرتبة المتن الحكائي من حيث الصدق والكذب، أو الصحة والاختلاق.

فقد استهلت ما يقارب من عشرين حكاية بصيغة (حدثني)،[٢] وست حكايات بصيغة (خبرني وأخبرني)،[٣] وهذه الألفاظ تومئ بأن الجاحظ التقى مع الراوي الأخير لتلك الحكايات وسمع منه متنها مباشرة.

وبنى إسناد عشر حكايات على صيغة (قال)،[٤] وست حكايات على صيغة (زعم)، كلها تحتوي على أخبار غريبة، فبهذه الصيغة ينحي اللائمة عن نفسه، ويلقي بالمسؤولية على عاتق الراوي الأخير. فقد افتتح بها حكاية الكلب الذي اعتاد فعالا تجاوز بها عن طبيعته وقدرته المعهودة،[٥] وحكاية سجود الفيل للملك،[٦] واغتلام فيل كسرى،[٧] وبنيت بعض الأسانيد على صيغ مشابهة من حيث الدلالة، إلا أنها أقل من سابقاتها بكثير، ومنها: "وذكر عن سعيد بن صخر ... "،[٨] "وذكر علي بن محمد السميري قال:... ".[٩]

---

(١) خولة شخاترة، **بنية النص الحكائي في كتاب الحيوان للجاحظ**، مرجع سابق، ص ١١٥.
(٢) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ١، ص١٢٦. ج٢، ص٢١٧. ج٣، ص١١، ١٣، ١٧، ١٨، ٢٨، ٣١، ٣٢ حكايتان، ٢٩٢، ٣٥٦، ٣٩٩. ج٤، ص١٠٧، ١٢٧، ١٤٧، ٤٥٧. ج٥، ص٣٨١، ٣٩٩، ٥٦٦.
(٣) المصدر السابق، ج ١، ص٣٧١. ج٢، ص١٢٠، ١٢٨، ٢٢٩. ج٣، ص١٦. ج٤، ص٤٢٣.
(٤) المصدر السابق، ج ١، ص٢٣. ج٢، ص٢٣١، ٣٥٧، ٣٧٤. ج٣، ص٢٢، ٣١. ج٦، ص١١٩، ١٧٠، ٢٣٦. ج٧، ص١١٣.
(٥) المصدر السابق، ج ٢، ص١٢٩.
(٦) المصدر السابق، ج ٧، ص٢٠٥.
(٧) المصدر ذاته، ص١٧٩. يراجع كذلك ج١، ص١٤٠. ج٤، ص١٢٢،٤١٩.
(٨) المصدر السابق، ج ٤، ص١٤٦.
(٩) المصدر السابق، ج ٧، ص١٣٦.

"ورووا في المـــلح ... "،[١] وهذه الألفاظ عامة الدلالة لا تشير بشكل واضح إلـــى أن الجاحظ سمع تلك الحكايات من الراوي الأخير مباشرة أو عن غيره.

ومن الملاحظ تميز أسانيد بعض الحكايات عن غيرها بشكل واضح، فإذا كانت الحكايـــة تحمل خبرا غريبا يصعب تصديقه تقدمها سند من سلسلة طويلة، تـــتـــكون من اثـــنين فأكـــثر، وفي بعض الأحيان يرويها عن طريقين، نحو حكاية الطفل الذي أرضعته الكلبة مـــن أطبائـــها، يقول : "وزعم علماء البصريين، وذكر أبو عبيدة النحوي، وأبو اليقظان سحيم بن حفـــص،وأبـــو الحسن المدائني، وذكر ذلك عن محمد بن حفص عن مسلمة بن محارب، وهو حديث مشهور في مشيخة أصحابنا من البصريين، أن طاعونـــاً جارفا ... ".[٢] وكذلك الحديث الغريب بين الجاريـــة وأمها، "وقال أبو الحسن المدائني : قال أبو دهمان الغلابي عن الوقاصي قال : وحدثنـــي بذلـــك الغيداقي عن الوقاصي قال : قالت جارية لأمها ... ".[٣] وحكاية هجرة الظباء إلى الناس، يقـــول: "وخبرني إبراهيم السندي قال : خبرني عبد الملك بن صالح، وإســـحاق بـــن عيســـى، وصـــالح صاحب الموصل، أن خالد بن برمك ... ".[٤] وحكاية الأفعى التي تحتال لاصطيـــاد الطيـــور، "يقول : حدثنا أبو جعفر المكفوف النحوي العنبري، وأخوه روح الكاتب ورجال من بني العنـــبر أن عندهم في رمال بلعنبر حية ... ".[٥]

وقد يبنى الإسناد بلفظ يدل على الكثرة دون ذكر راو بعينه، نحو حكاية البنت التي لـــها لحية وافرة، "وقد ذكر أهل بغداد أنه كان لابنة من بنات محمد بن راشد الخناق لحية ... ".[٦]

ومن الملاحظ أن بعض الأسانيد جاءت بصيغة غامضة لا تدل على الرواة بشكل دقيـــق، وربما كان ذلك لكبر سن الجاحظ، حيث تطرق النسيان إلى ذهنه، وتجلت هـــذه الظـــاهرة فـــي الحكايات المروية عن صحبه والمقربين منه بشكل خاص، فجاءت تلك الأسانيد بصيغة "حدثني"

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ، ج ٦، ص٢٥٩.
(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص١٥٥.
(٣) المصدر السابق، ج ٧، ص٢٣٧.
(٤) المصدر السابق، ج ٤، ص٤٢٣.
(٥) المصدر نفسه، ص١٠٧.
(٦) المصدر السابق، ج ١، ص١١٥.

مع أنه لا يوجد حرج من ذكرهم، نحو "حدثني بعض أصحابنا"،[١] أو "حدثني صديق لي"،[٢] وربما كان الغموض فيها مبررا في بعض الأحيان لتجنيب الراوي الحرج، كما في حكاية الرجل الذي أشرف على حارس يكوم كلبة.[٣]

وقد تأثر الجاحظ من خلال بعض الأسانيد بعلم الجرح والتعديل، فأفصح عن اطمئنانه لما يروي أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام، حيث كان مصدرا موثوقا لديه. "وكان إبراهيم مأمون اللسان، قليل الزلل، والزيغ، في باب الصدق والكذب. ... ولكنه كان لا يقول سمعت، ولا رأيت. وكان كلامه إذا خرج مخرج الشهادة القاطعة لم يشك السامع أنه إنما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه، أو عن معاينة قد بهرته.[٤] ويقول عنه في موضع اخر: "وكنا لا نرتاب بحديثه إذا حكى عن سماع أو عيان".[٥]

ونبه إلى أن بابويه راوي حكاية إلهام الحمام بعيد عن الكذب والافتراء،[٦] وأن مويس ابن عمران يؤثر الصدق في أموره كلها، يقول: "وحدثني مويس بن عمران، وكان هو والكذب لا يأخذان في طريق، ولم يكن عليه في الصدق مؤونة، لإيثاره له، حتى كان يستوي عنده ما يضر وما لا يضر".[٧]

ودلت تركيبة أسانيد بعض الحكايات وعبارات بداياتها على مدى توخي الجاحظ الدقة والأمانة في النقل، يقول: "ومثل هذا الحديث ما خبر به عن بابويه صاحب الحمام، ولو سمعت بقصصه في كتاب اللصوص علمت أنه بعيد من الكذب والتزيد، وقد رأيته وجالسته ولم أسمع هذا الحديث منه ولكن حدثني به شيخ من مشايخ البصرة ومن النزول بحضرة مسجد محمد بن رَغاب. وقال بابويه ... "،[٨] "وذكر محمد بن الجهم فيما خبرني عنه بعض الثقات أنه قال لهم ذات يوم ... ".[٩]

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٤، ص١٢٧، ١٤٧.
(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص١٢٠، ١٢٨. ج ٣، ص٣٥٦.
(٣) المصدر السابق، ج ١، ص٣٧١.
(٤) المصدر السابق، ج ٢، ص٢٢٩ – ٢٣٠.
(٥) المصدر السابق، ج ٤، ص٣٢٠.
(٦) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٦.
(٧) المصدر السابق، ج ٥، ص٤٦٨.
(٨) المصدر السابق، ج ٢، ص١٥٦.
(٩) المصدر السابق، ج ٣، ص٣٢٠.

وحدثني بعض أصحابنا عن شيخ من أهل الخريبة قال : كنت أحب الباقلاء، وأردت إما البصرة وإما بغداد – ذهب عني حفظه – ... ".[١]

"وحدثني بعض أصحابنا قال : كنت إما برماي وإما بباري وهما بلاد حيات وأفاعي".[٢]

"ورووا في الملح أن فتى قال لجارية له أو لصديقة له: ... ".[٣]

وأما الحكايات الذاتية فقد استهلت بصيغ ثلاث، حيث افتتح خمسا منها بالفعل الماضي (كان)،[٤] وستا أخرى بحرف (أما) الذي من معانيه التوكيد،[٥] ليزيد القارئ اطمئنانا إلى صحتها لأنها تحتوي في العادة على أخبار غريبة، وتقدم شخصيات عجيبة.[٦]

وافتتح اثنتين بلفظ (بينما).[٧]

وأما بداية المتن الحكائي فجاءت مشوقة ومثيرة للمتلقي، تشده للمضي معها حتى النهاية. وقد صيغت تلك البدايات بأساليب متنوعة،[٨] من أبرزها:

أ– سؤال تتضمنه الحكاية في أسطرها الأولى وتدور حوله، فيثير فضول المتلقي لمعرفة جوابه، كما في حكاية الحكمة من الذباب التي صدرها محمد بن الجهم بسؤال لمن كانوا معه من الثقات حول فائدته،" وذكر محمد بن الجهم – فيما خبرني عنه بعض الثقات – أنه قال لهم ذات يوم :هل تعرفون الحكمة التي استفدناها في الذباب ؟ قالوا: لا. قال: بلى، إنها تأكل البعوض وتصيده ..."[٩]

وكذلك حكاية المثنى بن بشر مع العبد السندي، "وأتى المثنى بن بشر بسندي ليشتريه على أنه طباخ، فقال له المثنى: كم تحسن يا غلام من لون؟ فلم يجبه، فأعاد عليه، وقال:...".[١٠] وحكاية الجزء الذي لا يتجزأ.[١١]

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٥٦.
(٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ١٢٧.
(٣) المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٥٩.
(٤)المصدر السابق، ج ١، ص١٧٢. ج٢، ص٥٨. ج٣، ص٢٨، ٣٤٣، ٣٥٠.
(٥) أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن هشام الأنصاري المصري، (ت: ٧٦١هـ/١٣٦٤م)، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، تحقيق، محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧، ج١، ص٥٥-٥٦.
(٦)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق،ج ٢، ص٢٢٧.ج٣،ص٢٠، ٢٦، ٢٩٤، ٣٤٦. ج٥، ص٣٩٧.
(٧) المصدر السابق، ج ٣، ص٣٥،٣٢١.
(٨) تطرق للحديث عن هذا أبو الرب في **الحكاية في أدب الجاحظ**، مرجع سابق، ص١٢٦ – ١٤٢.
(٩)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٣، ص٣٢٠-٣٢١.
(١٠) المصدر السابق، ج ٦،ص٤٨٩.
(١١) المصدر السابق، ج ٣،ص٣٧.

ب- بداية متأزمة تحمل حدثا مثيرا كخطر يحدق بالشخصية فيثير بالمتلقي حب الاستطلاع ومتابعة ما سيجري لتلك الشخصية فهل ستنجو وتتغلب على مأزقها أم ستفشل ؟مثل حكاية أبي كعب القاص[١]، فحين شرع يقص للمصلين تحرك عليه بطنه، فمثل هذه البداية تشوقنا وتقودنا لمعرفة الكيفية التي سيتعامل بها ذلك القاص مع هذا الموقف وهل سيتفرج أمام المصلين دون مبالاة وخجل؟ أم سيخرج ويترك المجلس؟

وكذلك حكاية النظام[٢]الذي طوقه الفقر وحاصره الجوع. فهذه البداية المتأزمة تثير عددا من الأسئلة في نفوسنا ماذا سيصنع ذلك الرجل مع تلك الظروف القاسية التي وصل إليها؟ ولماذا وصل إليها أصلا؟

وحكاية أحمد بن المثنى الذي فاجأه ذئب في الصحراء، "حدثني أحمد بن المثنى قال خرجت إلى صحراء خوخ لجناية جنيتها وخفت الطلب وأنا شاب إذ عرض لي ذئب فكنت كلما درت من شق استدار بي، فإذا درت له دار من خلفي، وأنا وسط برّية لا أجد معينا إلا بشيء أسند إليه ظهري وأصابني الدوار، وأيقنت بالهلكة فبينما أنا كذلك ....)."[٣]

فهذه بداية مثيرة ومدهشة للمتلقي لما تحمل من مصير مجهول لتلك الشخصية، فهل ستكون الغلبة له أم عليه؟

ج- بداية ملحة على تصوير شخصية ما، أو حدث عادي ويسبق هذا الإلحاح في بعضها بظرف المكان (بينما) لينتبه المتلقي أن أمراً مفاجئاً وغير متوقع سيحدث، فيغريه لمواصلة القراءة كما في مثل هذه الحكايات: "بينما أبو يوسف القاضي يسير بظهر الكوفة – وذلك بعد أن كتب كتاب الحيل – إذ عرض له ممرور..."."[٤] "وبينما عبد الله بن خازم السلمي عند عبيد الله بن زياد، إذ أدخل على عبد الله ..."[٥].

أو بحرف (أما) الذي يفيد التفصيل والتوكيد وكأن الحكاية تدعو المتلقي من خلال هذه الصيغة إلى السماع والمضي معها لأنها ستفصل عن شيء ما .

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٣، ص٢٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٥١.
(٣) المصدر السابق، ج ٢،ص٢١٧.
(٤) المصدر السابق، ج ٣، ص١١.
(٥) المصدر السابق، ج ٧، ص،١٣٦.

"وأما العمّى فإن بني عبد الملك الزيادين دعوني مرة ليعجبوني منه، ولم ينبهوني على هذه الخاصة التي فيه، لأكون أنا الذي أنتبه عليه..."[١] "وأما أبو أحمد التمار المتكلم فإنه ..."[٢] " فأما الذي أصابني أنا من الذباب..."[٣]

٢- الحدث:

يبدو الحدث مكثفا في الحكايات فغالبا ما يعرض بدون مقدمات ولا نتائج.

وأما طبيعة الحدث فقد تنوعت في الحكايات، فمنها:

أحداث خرافية بعيدة عن الواقع، وهي كثيرة الذيوع في الحكايات الخرافية، كتخلق السنور من عطسة الأسد، والخنزير من سُلاح الفيل،[٤] وتنادم الديك والغراب.[٥]

ومنها الغريبة المدهشة كابتلاع الإنسان الحجر والحديد وهما حاران،[٦] وشرب الماء الذي غسلت به خصية زنجي للشفاء من لسعة العقرب.[٧]

ومنها أحداث واقعية هيمنت على الحدث في الحكايات، فهي إما أن تنقل تجارب الآخرين، أو تقدم معلومات عن شخصيات كانت موجودة في عصره أو قبل ذلك، أو أحداث وقعت فعلا، كالأحداث التاريخية، التي كانت مشهورة ومعروفة بين الناس، كمقتل سنمّار،[٨] والصراع بين الأمين والمأمون.[٩]

ومنها أحداث دينية كإطفاء نار المجوس.[١٠]

وأما من حيث بناؤها فهي إما أن تكون بسيطة لا تعدو الدفقة المشهدية، وطغا هذا النوع على الحكايات بشكل عام، والفكاهية منها بشكل خاص.

فحكايات الحيوان غالبا ما تكون أخبارا تقريرية يغلب عليها طابع السرد المباشر،

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٢٧.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٨٤.
(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص٣٤٦.
(٤)المصدر السابق، ج ١، ص١٤٦.
(٥) المصدر السابق، ج ٢، ص٣٢٠.
(٦) المصدر السابق، ج ٤، ص٣٢٠.
(٧) المصدر السابق، ج ٥، ص٣٦٧.
(٨) المصدر السابق، ج ١، ص٢٣.
(٩) المصدر السابق، ج ٥، ص٣٨١.
(١٠) المصدر السابق، ج ٤، ص٤٧٩.

وأكثرها إما أن يقدم شخصية مضحكة،[١] وإما أن يصور عادات وأفعالا مستهجنة.[٢]

وإما أن تكون من أحداث الحبكة، ويختلف هذا النوع عن سابقه من الأحداث ببناء يخضع لقانون معين في تركيبه وترتيبه. وكون الأحداث منتزعة من حكايات شتى فمن الطبيعي أن لا تخضع لقانون موحد في بنائها.

فمنها ما هو متراكم ومتجاور، غير أنه لا يوجد أدنى رابط بينها، فهي تتسلسل دون أن يركب اللاحق على السابق منها، وقد تركزت هذه الأحداث في الحكايات ذات الطابع الخرافي، فهي لا تقوم أساسا على المنطق، ومن تلك الحكايات:

"وخبرني محمد وعلي ابنا يسير، أن ظئرا لسليمان بن رياش لسعتها عقرب فملأت الدنيا صراخا، فقال سليمان: اطلبوا لها هذه العقرب، فإن دواءها أن تلسعها لسعة أخرى في ذلك المكان، فقالت العجوز: قد برئت، وقد سكن وجعي، [و] لا حاجة بي إلى هذا العلاج. قال: فأتوه بعقرب لا والله إن يُدرى: أهي تلك أم غيرها؟ فأمر بها فأمسكت فقالت: أنشدك بالله واللبن فأبى وأرسلها عليها، فلسعتها فغُشِيَ عليها ومرضت [زمانا] وتساقط شعر رأسها. فقيل لسليمان في ذلك فقال: يا مجانين! لا والله إن رد علي روحها إلا اللسعة الثانية، ولولا هي لقد كانت ماتت".[٣]

ومنها ما يخضع للقدر والمصادفة، ففي إحداها سألت جارية أمها ليلة زفافها عددا من المسائل سبق وأن سألتها الأم لأمها، فذهبت جدة الجارية لأمها في كل مسألة لتجيبها. وحين سألت الجارية عن المسألة الأخيرة، قالت لها أمها : لقد سألت أمي عن هذه المسألة فذهبت لأمها لتجيبها عنها فوجدتها في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة، وأنا يا ابنتي أشعر بدنو أجلي كذلك. فلم تلبث إلا أياما حتى ماتت.[٤]

ولعبت المصادفة دورا كبيرا فيما جرى مع إسماعيل بن غزوان وأبي عمران، "وقال إسماعيل بن غزوان: بكرت اليوم إلى أبي عمران، [فلزمت الجادة] ، فاستقبلني واحد فلزم الجادة التي أنا عليها، فلما غشيني انحرفت عنه يمنة فانحرف معي، فعدت إلى سمتي فعاد، فعدت فعاد ثم عدت فعاد. فلولا أن صاحب برذون فرق بيننا لكان إلى الساعة يكدّني. فدخلت على أبي عمران فدعا بغدائه، فأهويت بلقمتي إلى الصِّباغ[٥] فأهوى إليه بعضهم، فنحيت يدي فنَحى يده، ثم عدت فعاد، ثم نحيت فنحّى، فقلت لأبي عمران : ألا ترى ما نحن

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٣، ص٩، ١١، ١٣، ١٦، ١٧، ٢٢، ٢٨، ٣١، ٣٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦. ج ٥، ص ٤٦٧، ٤٦٨.
(٣) المصدر السابق، ج ٥، ص٣٦٧-٣٦٨.
(٤) المصدر السابق، ج ٧، ص٢٣٧ - ٢٣٩.
(٥)الصباغ بالكسر: ما يصطبغ به من الأدام.

فيه ؟ قال سأحدثك بأعجب من هذا، أنا منذ أكثر من سنة أشفق أن يراني [ابن أبي] عون الخياط، فلم يتفق لي أن يراني مرة واحدة، فلما [أن] كان أمس ذكرتُ لأبي الحارث الصنّع في السلامة من رؤيته، فاستقبلني أمس أربع مرات !"(١)

وأسهمت المفاجآت في بناء الأحداث وتسلسلها كما في حكاية النظام وعدم إيمانه بالطيرة، فهي مليئة بالمفاجآت التي أوصلت النظام إلى حالة نفسية يائسة. فبدافع الإلحاح المادي اضطر إلى الارتحال إلى قصبة الأهواز لعله يجد قوت يومه هناك، وبعد طول انتظار جاءت سفينة في صدرها خرق، فاضطر إلى الركوب فيها، وإذا ملاحها يسمى داوداذ ويعني بالفارسية الشيطان. وعندما وصل الأهواز كان أول حمال أجابه أعور، وقدم له البقار ثورا أضب القرن ليحمل عليه متاعه. ولم يكن يعرف أحدا ولا يملك قرشا إذ ذاك فساءت حاله، ونازعته نفسه العودة. وبينما هو في الحالة تلك إذ قرع رسول السلطان بابه وأعطاه ثلاثين مثقالاً جاءته من حيث لا يحتسب.(٢)

وخرج أحمد بن المثنى إلى صحراء خوخ لجناية ارتكبها، فعرض له ذئب، ودار له حيث دار حتى أصيب بالدوار، وأوشك أن يهلك، وبينما هو كذلك عرضت له ذئبة، وكان ذلك زمن تسافدها وهَيْجها، فلحقها وتركه، وما تلعثم أن ركبها، فصوب سهمه إليهما فقتلهما.(٣)

وتفاعلت العديد من الشخصيات مع الأحداث فدخلت في صراعات وتعرضت لمآزق متنوعة، ومنها ما وفق في الخروج من مأزقه وتمكن من تحقيق مراده، فقد أفلحت الجارية في الإفلات من قاسم التمار الذي لم تتجذب إليه. فحينما رآها في منزل الخوارزمي النخاس وأعجب بها اشتراها دون علمها. فدفعها النخاس إلى داره، فلما رأته اشمأزت منه لقبح منظره، فراودها وتودد لها لتمكنه فلم تفعل، وبينما كان يحاول إقناعها كانت عينها إلى الباب ففرت إلى منزل النخاس، واشتراها شاب أملح منها.(٤)

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٣، ص٤٦٩ - ٤٧٠.
(٢)المصدر نفسه، ص٤٥١.
(٣) المصدر السابق، ج ٢، ص٢١٧.
(٤) المصدر السابق، ج ٦، ص٢٦٢ - ٢٦٣.

ونجا رجل من الموت المحقق حين دفنه أعداؤه بعد أن تخلى عنه أخوه وجاره، ولكن الله سخر له كلبه فأنقذه إذ أخذ يحفر في المكان الذي دفن فيه حتى كشف عن رأسه، فاستنكر من مروا ذلك الحفر فاقتربوا من المكان فوجدوا الرجل يصارع الموت، فانتشلوه من التراب.(١)

ومنها ما أخفق بالخروج من المأزق ولم يستطع تحقيق هدفه، فقد وضع عيسى بن مروان قبح أنفه في أزمة عاطفية مع ظريفته،التي تبذل في ترغيبها به والخلوة معها دون جدوى.(٢)

وأخفق الجاحظ في صراعه مع الذباب، فحين خرج يتمشى على ضفاف نهر المبارك في البصرة مر بمكان معشوشب، وفيه نبات ملتف كثير الذباب، فسقط منه على أنفه فطرده، فتحول إلى عينه فطرده ثم عاد إليه مرارا، فذبه عن وجهه بكمه، ثم عاد فذبه بطيلسانه، فلما فشل في حماية نفسه منه هرول ليبتعد بسرعة عن ذلك المكان.(٣)

وفي حكاية أخرى أخفق القاضي في موقف مشابه مع الذباب،(٤) ورافق سوء الحظ سكر الشطرنجي في رحلته لجمع المال.(٥)

وتجري العديد من الأحداث في فضاء زماني ومكاني محددين ومعروفين، فالشخصيات لا تدور في فراغ، وبمعزل عن الزمن، بل إنها تنتقل من مكان لآخر وضمن فترة زمنية محددة، فقد رحل أبو يحيى العنبري عن بلده إلى البصرة، ومكث فيها ثلاثين عاما ثم كر راجعا إليها.(٦)

واقتيد بابويه إلى السجن وبعد شهر أطلق سراحه، فعاد إلى بيته.(٧)

وثمة كلب في سكة أصطفانوس لا يغادر محرس الحارس، إلا يوم الجمعة قبيل صلاة الغداة، فيتوجه إلى باب جارية حيث كانت تنحر الجزور هناك في ذلك الموعد.(٨)

ومن الأحداث ما تطور عبر الانتقال المكاني بمعزل عن الزمن، فقد هاجرت الظباء من

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٢، ص١٢٢-١٢٣.
(٢) المصدر السابق، ج ٦، ص٢٦٣ - ٢٦٤.
(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص٣٤٦ - ٣٤٧.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٤٣ - ٣٤٦.
(٥) المصدر السابق، ج ٤، ص١٤٧ - ١٤٩.
(٦) المصدر السابق، ج ٦، ص١١٩.
(٧) المصدر السابق، ج ٢، ص١٥٦ - ١٥٧.
(٨) المصدر نفسه، ص١٢١.

الصحراء إلى مساكن الناس،[١] واغتـرب النظام عن وطنه إلى قصبة الأهواز،[٢] وخرج سـكر الشطرنجي من البصرة إلى بلدة جَبـُّـل، ثم عاد إليها بعد حين،[٣] وانتقل المأمون من بغداد إلـى قطرَبل للتـنزه.[٤]

٣- الزمن:

حظي الزمن باهتمام كثير من الحكايات حيث شكل عنصرا تكوينيا هامـا فـي بـُنيتها، فكان الباعث على بعضها والمولد الأساسي لأحداثها، فهناك حكايتان تدوران حول عمر الذبـاب.[٥] وأخرى حول عمر الضب.[٦]

وحرص بعضها على ذكر الزمن ليضفي على سياقها شيئا من القوة والتماسـك، فأشـارت إحداها أن الشتاء والبرد الشديد هو الوقتَ الذي احتجم فيه الشيخ الممرور، ولعلها تهدف من ذلـك إلى تأكيد تلك الصفة على ذلك الشيخ، لأن الوقت المناسب للحجامة الصيف.[٧] وحرصت أخـرى على ذكر الصيف "وقال رمضان لأبي شعيب القلال – وأبو الهذيل حاضر– : أي شيء تشـتهي ؟ وذلك [نصف النهار]، في يوم من صيف البصرة. قال أبو شعيب : أشتهي أن أجـيء إلـى بـاب صاحب سَقط،[٨] وله على باب حانوته إلية معلقة، من تلك المِـبـزرة المشرجة،[٩] وقد اصفـرت، ووَدَكـُها يقطر من حاق السمن،[١٠] فآخذها بحِضنها،[١١] ثم أفـتح [لها] فمـي، فـلا أزال كدمـا [كدمـا] ونهشا [نهشا]، ووَدكها يسيل على شـِدقي حتى أبلغ عـَجب الذنب.[١٢] قال أبو الـهذيل: ويلك قتـلـتـني قتلتني!! يعني من الشهوة ".[١٣]

"فذكر الزمان والمكان ضروري لما تدور حوله الحكاية، لأن المرء حين ينتصـف النـهار يحس بالحاجة إلى تناول طعام الغداء، وأخذ قسط من الراحة. خاصة إذا كان اليوم من أيام صيـف البصرة الحارة، ولذلك يلاحظ أن الجاحظ كان حريصا على إثبات الزمان والمكان منذ البداية بـُعيد السؤال مباشرة... لأنه من خلال الزمان والمكان المحددين تبدو رغبة أبي شعيب مثـيرة للشـهوة،

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٤، ص٤٢٣.
(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص٤٥١.
(٣)جبل: بلدة على شاطئ دجلة، المصدر السابق، ج ٤، ص١٤٧ – ١٤٩.
(٤) المصدر السابق، ج ٥، ص٣٨١.
(٥)المصدر السابق، ج ٣، ص٣٢٤، ٣٩٩.
(٦) المصدر السابق، ج ٦، ص١١٩.
(٧) المصدر السابق، ج ٣، ص٣٢.
(٨)السقط: ما لا خير فيه، ولعله أراد به حشوة الذبيحة: أطرافها.
(٩)) المِـبزرة: التي وضع فيها البزر. المشـَـرّجة: المشقـــَّـــقة أو التي خالط شحمها بعض اللحم.
(١٠) كماله وتمامه.
(١١) الحضن: جانب الشيء وناحيته.
(١٢) أي أصل الذنب.
(١٣)الجاحظ، **الحيوان**،مصدر سابق، ج٥، ص٤٧٥-٤٧٦.

ومصعب بن الزبير،[١] والصراع بين الأمين والمأمون،[٢] ومقتل سنمّار.[٣]

٤- المكان:

تورد الكثير من الحكايات الأحداث، وتتحدث عن الشخصيات دون تحديد للمكان، فهو غائب في الحكايات عموما، فلا يعمد لذكره إلا إذا كانت له أهمية كبرى في بناء الحكاية، وإذا وجد في بعضها فهو باهت لا ذكر له إلا على ألسنة السارد أو الشخصيات، بمجرد اسم دون وصف يبين معالمه، "حُبِسَ كلب في بيت وأغلق دونه الباب ... ".[٤]

"خرجت إلى صحراء خوخ ... "،[٥] "بينما أبو يوسف القاضي يسير بظهر الكوفة ... إذ عرض له ممرور".[٦]

ولا يعني هذا خلو بعضها من وصف للمكان، فقد أظهرت صورا جزئية لبعض الأمكنة لضرورة فنية وفكرية، فقد وصفت إحداها الحانة التي ذهب إليها الأمين لتبين قذارة المكان والبيئة التي ظهر فيها القمل، ولعل في ذلك تقريعا له، وإذلالا لقصده تلك الأمكنة، "فدخلنا إلى موضعهم فإذا تخت النرد قطعة لِبد، وإذا فصوص النرد من طين، بعضه مُسوَّد وبعضه متروك، وإذا الكعبان من عروة كوز محكّكة، وإذا بعضهم يتكئ على دَن[٧] خال وتحتهم بوار[٨] قد تتسّرت. فبينا هو يضحك منهم إذ رأيت قملة تدب على ذيله ...".[٩]

وذكر ثمامة بن أشرس أن الزنزانة التي حبس فيها خربة محفرة الجدران، فيها جحران متقابلان لفأرين،[١٠] فكما يبدو هنا أن المكان هو القوة الضاغطة والمحركة للأحداث، ففي تقابل جحريهما إدامة للاحتكاك بينهما، وربما لو لم يكن جحراهما على تلك الهيئة لما وقعت الأحداث، بمعنى لما تشاجرا ابتداءً، ولعله يرجو من وصف المكان هنا بيان مدى الظلم الذي وقع عليه، والكشف عن قساوة الظروف التي أحاطت به في سجنه، ليستدر عطف الجاحظ ومن يسمع بخبره. وأشار بابويه أن في أعلى غرفة الحمام ثقبا وأمامه مباشرة رف، جعل مهبطا

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٧٢.
(٢) المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٨١.
(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣.
(٤) المصدر السابق، ج٢، ص ١٢٠.
(٥) المصدر نفسه، ص ٢١٧.
(٦) المصدر السابق، ج ٣، ص ١١.
(٧) الدن: الجرة الضخمة.
(٨) جمع باريَّة، وهي الحصير المعمول من القصب.
(٩) المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٨١ - ٣٨٢.
(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٥٠.

لما يدخل ويخرج من الحمام،[١] وتبدو أهمية كبرى لهذا الوصف، فلولاه لكان بقاء الحمام حيا حين غاب عنه شهرا لغزا يحير المتلقي، فكأنه يهدف من هذا الوصف إلى القول إن المكان لم يكن مغلقا تماما، بل أن هناك منفذا جعل سبيلا في حال غيابه عنه.

واكتسب المكان في العديد من الحكايات أهمية كبرى، فلم تعد مهامه تقليدية تحدد مسرح الأحداث وموقع الشخصيات، وإنما تجاوزها ليعطي دلالات أخرى كان لها أثر واضح على تكوين الشخصية ومجرى الأحداث.

فيعد المكان المغلق في الحكاية مدرسة للشخصية فهو مبعث للتأمل والتعلم والتدبر، يؤثر فيها تأثيرا إيجابيا، فتشغل فيه الشخصية نفسها بما يفيد، فقد قيض الله لثمامة بن أشرس ما يشغل به فكره عما حل به، فلفت نظره طبيعة تشاجر الفأرين في زنزانته، وبقي مراقبا لهما، حتى أتى الله بالفرج.[٢]

وحين اقتيد بابويه إلى السجن ترك وراءه في بيته حماما، من بينه زوج مقصوص، فشغله التفكير بهما عن كثير مما هو فيه، فكان يخشى عليهما الموت، فهما لا يستطيعان الطيران والطعم، فحين خلي سبيله لم يكن له هم إلا معرفة حالهما.[٣]

ووقع العنبري الأسير في قبضة بني شيبان فلم يستسلم ولم يقنط، بل نسي نفسه وهمّه، وحمل هم جماعته وقومه، فعلى الرغم من القيود والأعداء المحيطين به، أعمل فكره بطريقة ذكية، لينجي قومه، فحماهم وحقن دماءهم، وخلصهم من أعدائهم.[٤]

فالسجن في الحكايات يساهم في تكوين الشخصية ورسم لوحتها النفسية، فهو يصقلها ويهذبها ويعلمها دروسا عملية.

وللمكان المغلق أثر إيجابي في شخصية الحيوان كذلك، فقد أسهمت الغرفة المغلقة التي وضع فيها بابويه الحمام في إيجاد مزيد من الألفة والتعاون بينها، فكان الزوج الطيار يخرج من الفتحة التي في أعلى الغرفة، ويأتي بالطعام للزوج المقصوص والفرخين، فيزقهم به، فلم يرحل عنهم، بل بقي إلى جانبهم،[٥] وقد أسهم القفص في المحافظة على فرخ العصفور الذي سقط من

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٥٦ – ١٥٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٥.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٦ – ١٥٧.
(٤) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٢٤ – ١٢٥.
(٥) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٦ – ١٥٧.

عشه وحمايته، حتى قوي ونما، وكان نقطة تواصل أبيه به.[١]

وشكلت الصحراء كمكان مفتوح في بعض الحكايات أملا ومتنفسا للشخصية، فقد هرب أحمد بن المثنى إليها ليجنب نفسه عقاب جناية ارتكبها،[٢] وحركت هجرة الظباء منها فراسة خالد بن برمك فنبه الأمير قحطبة بأن وراءها أعداؤهم فتجهزوا لملاقاتهم، ولولا ذلك لباغتوهم.[٣] والمكان المرتفع أكثر الأمكنة حضورا في الحكايات، فقد ورد في ست منها على وجه التقريب، إما صراحة وإما إيماء من خلال الألفاظ الدالة عليه.

ففي بعضها كان محلا لتنفيذ أحكام الإعدام، فلقمان بن عاد يلقي بزوجاته من الجبل لخيانتهن،[٤] وبأمر الملك ألقي بسنمّار من فوق القصر.[٥] وفي بعضها الآخر يعد موقعا للاستطلاع والاستكشاف، فحين انفصل خالد بن برمك مع الأمير قحطبة من خراسان إلى الجبل استطلع من سطح إحدى القرى المسافة بينه وبين أعدائهم، وعلم بقربهم منهم فلم يأخذوهم على حين غرة.[٦]

ومن مكان مرتفع ندر الصعود إليه اكتشف سيد سوء خلق عبده الخصي، وقد كان محل تقديره وثقته، فقد لمحه وهو يكوم شاة في زريبة غنم.[٧] ومن سطح داره أشرف رجل على حارس يكوم كلبة بجانب حائط بيته.[٨]

واقترن المكان المنخفض بالموت، فقد رمى الخناقون الرجل الذي خنقوه في إحدى الأودية،[٩] ومن الوادي، سالت الحيات التي نهشت المرأة وقضت عليها،[١٠] وحين عزم غرماؤه القضاء عليه، ألقوه في بئر غير بعيدة القعر، وطمروه في التراب.[١١]

وتشكل الطريق دلالة هامة في كثير من الحكايات، فهي عنوان الضياع والتيه ومحل لدنو المنزلة، فلم يظهر فيها سوى الحمقى والمجانين، فمدعي الفقه عبد الله اللحياني عقد مجلسه

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق،ج٢، ص ٣٣١.
(٢) المصدر ذاته، ص ٢١٧.
(٣) المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٢٣.
(٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٢١. وورد الجبل في حكاية أخرى، ج ٢، ص ٣٦١ - ٣٦٣.
(٥) المصدر السابق ، ج١، ص ٢٣.
(٦) المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٢٣.
(٧) المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٢ - ١٧٣.
(٨) المصدر نفسه، ص ٣٧١.
(٩) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٧٠ - ٢٧١.
(١٠) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٥١.
(١١) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢٢ - ١٢٣.

على باب داره،[١] والزبادي من الأغبياء الذين تندر بهم الجاحظ كان يجلس أمام داره في الحر،[٢] وعلى قارعة الطريق احتجم الممرور في يوم بارد،[٣]

وفي طريق مكة عاقر الفتيان الخمر.[٤]

وأما مسرح الحكايات فكان في بيئات أربع :

١- العراق، وكان لها نصيب الأسد، وخاصة مدينة البصرة،[٥] وأحياءها، كسكة أصطفانوس، ومربعة بني مِنقر،[٦] وسكة بني مازن،[٧] وديرِ الربيع وضفاف نهر المبارك،[٨] وزقاق الهفة.[٩]

وكذلك مدينة الكوفة،[١٠] ومدينة بغداد، وما يتبعها كقرية قُطربل،[١١] ومحلة الحربية،[١٢] وقرية كاذة، وموقع العوجاء،[١٣] ومحلة عيساباذ بشرقي بغداد،[١٤] ومن المدن العراقية كذلك واسط.[١٥]

٢- بلاد الشام.[١٦]

٣- الحجاز.[١٧]

٤- بلاد فارس، ومن الملاحظ أن أكثر الحكايات التي وقعت هناك لا تصرح بتلك البيئة

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٣، ص ٧ - ٨.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٢.
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٩٢ - ٢٩٣.
(٥) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣١، ٣٥٧. ج ٣، ص ٣٤٣. ج ٥، ص ٤٧٥.
(٦) المصدر السابق، ج٢، ص ١٢١.
(٧) المصدر نفسه، ص ٢٣١.
(٨) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٤٦.
(٩) المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٩٩.
(١٠) المصدر السابق، ج ٣، ص ١١.
(١١) المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٨١.
(١٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٧ - ٨.
(١٣) المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٩٧.
(١٤) المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٠١.
(١٥) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٢٤.
(١٦) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٧٢. و ج ٥، ص ٣٩٣. و ج ٦، ص ٤٥٢.
(١٧) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٥١. و ج ٦، ص ٢٠٦، ٣٨٧.

بل يستدل عليها من سياقها،[١] ومن أهم المواقع والمدن الأهـــواز،[٢] وضفـــاف نـــهر الجوبـــار بأصبهان.[٣]

٥- **الشخصية:**

إن الأغلبية الساحقة في الشخصيات الحكائية حقيقية مستمدة من الواقع، وإذا نظرنا إلـــى طبيعة تلك الشخصيات وأنواعها، نجدها متنوعة ومتباينة فمنها:

أ - شخصيات إنسانية:

وسيطرت عليها فئة المضطهدين والضعفاء الذين كان جُلّهم من الغلمان والعبيد، كنصـير غلام خالد بن أبي كريمة،[٤] وغلام السَّـــعداني،[٥] والعبـــد الســـندي،[٦] وروح بـــن الطائيـــة، والغلام الذي اشتراه ليخدم سيدته،[٧] وفرج الحَجّـــام.[٨]

وكذلك الجواري اللواتي كن وسيلة لتلهي الرجال ومتعتـــهم، كالجاريـــة الخراســـانية،[٩] وجارية مُويس بن عمران،[١٠] وجارية قاسم التمّار.[١١]

وهيمنت على الشخصيات الإنسانية أيضاً شريحة واسعة من غير الأسوياء، كالمجـــانين الذين من بينهم أبو سيف،[١٢] والممرور الذي سأل أبا يوسف.[١٣] والحمقى الذين مـــن أبرزهـــم ديسيموس اليوناني،[١٤] وسكر الشطرنجي،[١٥] وسليمان بن رياش.[١٦]

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ١، ص ١٤٠.
(٢) المصدر السابق، ج٣، ص ٤٥١، ج ٤، ص ٤٥٩.
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص ٢٨ -٣٠.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣٥٠.
(٥) المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٨٨.
(٦) المصدر نفسه، ص ٤٨٩.
(٧) المصدر نفسه، ص ٤٩٠-٤٩٣.
(٨) المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٦١.
(٩) المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٥٢.
(١٠) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٨.
(١١) المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٦٢.
(١٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٦٠.
(١٣) المصدر نفسه، ص ١١.
(١٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨٩.
(١٥) المصدر السابق، ج ٤، ص ١٤٧.
(١٦) المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٦٧.

والشواذ الذين من أبرزهم فارس الحمَّامي،[١] وعبد العزيز بن بشكست،[٢] اللذان كانا لوطيين، والعبد الذي كام الشاة.[٣]

ومن غير الأسوياء أيضا الموسوس الذي وجه لنوفل عددا من الأسئلة،[٤] والمكي الذي تزوج جارية ذات صنان وكان ينزعج إذا لم يشمَّ رائحتها الكريهة.[٥]

ومن الشخصيات الإنسانية شخصيات سياسية، مثلت الملوك والحكام والأمراء من العرب والعجم، في عصور مختلفة، ومن أشهرها : معاوية بن أبي سفيان،[٦] والحجاج بن يوسف الثقفي،[٧] وعبد الملك بن مروان، ومصعب بن الزبير،[٨] وأبو العباس السفاح،[٩] والمنصور،[١٠] والأمين والمأمون،[١١] والأمير قحطبة، وقائده خالد بن برمك.[١٢]

وأما ساسة العجم فمنهم من صرحت الحكايات باسمه، ككسرى أبرويز،[١٣] والملك الفارسي فيروز بن قباذ،[١٤] ومنهم من ذكروا بألقابهم ومناصبهم، ككسرى،[١٥] وملك الروم،[١٦] وصاحب الأهواز.[١٧] ومنها شخصيات دينية من مذاهب وديانات شتى، فمن الأنبياء نوح -عليه السلام-،[١٨] ومن الغالية خشنام بن هند،[١٩] وأبو لقمان الممرور الذي بدا متشيعا،[٢٠] ومن الإباضية أبو بكر ختن بن بريرة،[٢١] ومن أشهر رموز المعتزلة الجاحظ الذي ساق عددا من الحكايات التي كان طرفا فيها، والنظام،[٢٢] وثمامة بن أشرس.[٢٣]

ومن القضاة أبو يوسف. [٢٤] وقاضي البصرة عبد الله بن سوّار.[٢٥]

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٧٢.
(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٦.
(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٢.
(٤) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٣-١٥.
(٥) المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٦٧.
(٦) المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٢٧.
(٧) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٤.
(٨) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٧٢.
(٩) المصدر نفسه، ص ١٧٠.
(١٠) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢١٩.
(١١) المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٨١.
(١٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٢٣.
(١٣) المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٠٥.
(١٤) المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٠.
(١٥) المصدر السابق، ج ٧، ص ١١٣، ١٧٩.
(١٦) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٧٢.
(١٧) المصدر نفسه، ص ٣٦٠.
(١٨) المصدر نفسه، ص ٣٢١.
(١٩) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٠.
(٢٠) المصدر نفسه، ص ٣٧.
(٢١) المصدر نفسه، ص ٢٢.
(٢٢) المصدر نفسه، ص ٤٥١.
(٢٣) المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٥٠.
(٢٤) المصدر السابق، ج ٣، ص١١.
(٢٥) المصدر نفسه، ص٣٤٣.

ومن الشخصيات غير الإسلامية مسيلمة الكذاب،[١] وأبو المبارك الصابي،[٢] والراهبان من الزنادقة،[٣] والهرابذة.[٤]

ومن الشخصيات الإنسانية المهنيون والعمال، وأشهرهم سنمّار،[٥] والنجّار الذي ركّبَ بابا للجاحظ ،[٦] والصيدلاني، والحواء،[٧] وداوداذ الملاح،[٨] وطبّاخ صديق الجاحظ،[٩] والخوارزمي النَخّاس،[١٠] والجزار،[١١] وأبو خزيمة الحارس،[١٢] والناشد،[١٣] والمُكاري،[١٤] ونوفل رئيس الكنّاسين وزميله مُسبح،[١٥] وخادم الكلب.[١٦]

ويرى الناظر إلى الشخصيات الإنسانية أن أكثريتها العظمى شخصيات ذكرية تفوق كثيرا بعددها الشخصيات النسوية، التي ندر وجودها خارج إطار حكايات الحب والجنس، فهي تشكل المحور الرئيسي الذي تركز عليه تلك الحكايات، فلم تصورها إلا وسيلة للتسلية وموئلا للمتعة، مما يجعل حضورها ملازما لتلك الموضوعات. ويلاحظ كذلك أن الشخصيات الإنسانية من مختلف الفئات العمرية، غير أن الأطفال الأقل حظا بين تلك الفئات، فلم ترد شخصية الطفل سوى في ثلاث حكايات.[١٧]

أما الشخصيات الشابة فأكثرها من الخدم والعبيد، كغلام سهل بن هارون[١٨]، وغلام قثم ابن جعفر الذي كان صغير السن،[١٩] والغلام السِّندي.[٢٠]

وتشكل الجواري الشّواب وغالبية الشخصيات الذكرية في حكايات الحب والجنس السواد الأعظم لها، فالعاطفة متدفقة والشهوة متأججة في دماء الشباب، أكثر من الشيوخ، فبفعل

---

(١) الجاحظ ، **الحيوان**، مصدر سابق ، ج ٤، ص ٣٦٩ - ٣٧٥.
(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٦.
(٣) المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٥٧.
(٤) جمع هربذ: وهو خادم نار المجوس، وقيل: الرئيس من رؤساء المجوس. المصدر نفسه، ص ٤٧٩-٤٨١.
(٥) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣.
(٦) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٧٦.
(٧) المصدر السابق، ج ٤، ص ١١٤.
(٨) المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٥١.
(٩) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢٠.
(١٠) المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٦٢.
(١١) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢١.
(١٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٨.
(١٣) الذي ينشد الضالة أو يعرف بها. ج ٦، ص ٤٩٠-٤٩٣.
(١٤) المصدر السابق، ج ٤، ص ١٤٧ - ١٤٩. ج ٧، ص ٢٤٩.
(١٥) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٣.
(١٦) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢٨.
(١٧) المصدر نفسه، ص ١٥٥. ج ٤، ص ٢٥١، ج ٧، ص ٢٢٥.
(١٨) المصدر السابق، ج ٢,ص٣٧٤
(١٩) المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٨٨.
(٢٠) المصدر نفسه، ص ٤٨٩.

المراهقة الجامحة، والقلق الجنسي قامت تلك الشخصيات بسلوكيات وتصرفات يستبعد صدورها عن الكهول.

ومن الشخصيات الشابة أحمد بن المثنى الذي ارتكب جناية في عنفوان شبابه،[١] والشلب المليح الذي اشترى الجارية التي هربت من قاسم التمار،[٢] وسعيد بن مسلم وصحبه.[٣]

وأما الكهول والشيوخ فجاءت شخصياتهم على ضربين:

إما عارفة، نتيجة لخبراتها وتجاربها في كثير من الأمور، فنجد أبا المبارك الصابي أربى على المائة ويدلي بخلاصة أفكاره وتجاربه حول قوة الشهوة وانجذاب الرجل للمرأة، ويحاور في ذلك الحاضرين.[٤]

وحين لدغت أفعى عروسا سقيَ لبن أربعين عنزا ظنا منهم بأن ذلك يخلصه من السم، فخالفهم شيخ من تلك القرية وتنبأ بأن المصاب لن يجني نفعا من ذلك العلاج، بناء على تجربته وخبرته في هذا الأمر كما يبدو، وبالفعل جاءت النتيجة موافقة لما ذهب إليه الشيخ، ولم يلبث إلا أياما وفارق الحياة.[٥]

وإما جاهلة خرفة، كالشيخ الذي كان أصفر هزيلا، فاحتجم ليتعافى في جو من البرد الشديد، على الرغم من معرفته بضُر ذلك.[٦]

وكذلك الشيخ الذي تمكنت زوجته من استغفاله والاستخفاف بعقله، فأوهمته حين رأى الرجل الذي واعدته ليلا كامنا بجانب البيت بأنه شيخ من الجان، وقد أوصله جهله إلى أن رجاه الابتعاد عنه وعدم إيذائه، ثم غطى رأسه ونام، فخرجت إلى عشيقها.[٧] والشيخ المديني الذي كان يعتقد بطول عمر الذباب ففي ظنه أنه قد يصل إلى خمس عشرة سنة.[٨]

ب- شخصيات حيوانية :

احتلت تلك الشخصيات حيزا فسيحا في حكايات هذا الكتاب، فهي ليست أقل حضورا من

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، ج ٢، ص ٢١٧.
(٢) المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٦٢.
(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٢.
(٤) المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٦.
(٥) المصدر السابق، ج ٤، ص ١٢٧.
(٦) المصدر السابق، ج٣، ص ٣٢.
(٧) المصدر سابق، ج٦، ص ١٦٨.
(٨) المصدر السابق، ج٣، ص ٣٩٩.

الشخصيات الإنسانية، بل إن بعضها كان له وجود في أكثر من حكاية، ولعل الذي أكسبها ذلك لكونها تمثل أجناسا من الحيوانات، لا حيوانا بعينه، وإذا ما نظرنا إلى كل واحد منها نجد تغيرا مستمرا في صورة الشخصية وفعلها من حكاية لأخرى، وقد تأتى ذلك لعدد من الحيوانات التي من أهمها: الذباب،(١) والبعوض،(٢) والكلب،(٣) والفيل،(٤) والأفعى،(٥) والحمام.(٦)

وإذا ما استثنينا شخصية الجاحظ الذي كان طرفا في مجموعة من الحكايات، فإن حضور الشخصيات الإنسانية وتكرار بعضها، كالنظام(٧) وثمامة بن أشرس،(٨) لم يصل إلى كثافة الشخصيات الحيوانية سالفة الذكر.

ومن الشخصيات الحيوانية الأقل حظا في الحكايات العصفور،(٩) والدجاج،(١٠) والديك،(١١) والظبي،(١٢) والظليم،(١٣) والضب،(١٤) والذئب،(١٥) والفأر،(١٦) والعقرب(١٧)

ج – شخصيات عجيبة غريبة:

وبدت كذلك إما لتركيبها، أو لفعالها وتصرفاتها، ومما يلفت النظر أن الحكايات الخرافية وخاصة حكايات الحيوان، تعجُّ بهذا النوع من الشخصيات، فهي خارقة، تقوم بأفعال مدهشة، تجاوزت بها قدرتها وطبيعتها، فتنين إنطاكية يهدم بذنبه الجزء الأعلى من منارة المسجد،(١٨) والضب والضفدع يتخاصمان أيهما أشد احتمالا للظمأ، فلا يصمد الضفدع طويلا، فيرد الماء

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق،، ج٣، ص٣٢٠، ٣٢٤، ٣٤٣، ٣٤٦، ٣٤٩، ٣٥٦، ٣٨٥، ٣٩٩.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٨٥. ج ٥، ص ٣٩٣، ٣٩٧، ٣٩٩.
(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨١، ٣٧٠، ٣٧٣، مجموعة حكايات. ج ٢، ص ١٢٠، ١٢٢، ١٢٨، ١٢٩، ١٥٥. ج ٥، ص٤٢١
(٤) المصدر السابق، ج ٧، ص ٨٠، ١٧٩، ٢٠١، ٢٠٥، ٢٢٥.
(٥) المصدر السابق، ج ٤، ص١٠٧، ١٢٢، ١٢٧، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٤، ٢٥١.
(٦) المصدر السابق، ج ٢، ص١٥٦. ج ٣، ص ٢٨٤، ٢٨٧، ٢٩٤.
(٧) المصدر السابق، ج ١، ص٢٨١. ج ٣، ص ٤٥١.
(٨) المصدر السابق، ج ٣، ص٣٢. ج ٥، ص ٢٥٠.
(٩) المصدر السابق، ج ٢، ص٣٣١.
(١٠) المصدر نفسه، ص٣٥٧.
(١١) المصدر نفسه، ص٣٧٤.
(١٢) المصدر السابق، ج ٤، ص٤٢٣.
(١٣) المصدر نفسه، ص٤٥٧، ٤٥٩.
(١٤) المصدر السابق، ج ٦، ص١١٩.
(١٥) المصدر السابق، ج ٢، ص٢١٧.
(١٦) المصدر السابق، ج ٥، ص٢٥٠
(١٧) المصدر نفسه، ص٣٦٧-٣٦٨.
(١٨) المصدر سابق، ج ٤، ص ١٥٤.

أولاً، ويلحق به الضب، فيقطع ذنبه.[١]

ومن الشخصيات الغريبة شخصية الجان، كرقية بنت ملحان،[٢] والشِّق الذي ظهر لعلقمة بن صفوان،[٣] وجان العِشْرة،[٤] وعُمّار المكان،[٥] ومنها المَلَك الذي زعم مسيلمة أنه سينزل عليه.[٦]

ومن الشخصيات البشرية الخارقة محمد بن عبد الله الذي كان يبلع الحجر والحديد إذا أحمرا كالجمر.[٧]

وأما بنية الشخصية الحكائية في الكتاب فهي مسطحة، فالحكايات في الغالب لا تبين إلا مظهرا ،ولا ترسم إلا بعدا واحدا للشخصية، ويكون ثابتا، لأنها لا تركز إلا على زاوية هامة فيه، ترتبط ارتباطا عضويا مع موضوع الحكاية ومغزاها، مما لا يتيح لتلك الشخصيات النمو والتطور، فهي تدخل الحكاية وتخرج منها محافظة على سمتها، فالخيرة تبقى خيرة، والشريرة تظل كذلك، ولا تصبح السلبية إيجابية، ولا العكس، ولا الجاهلة عالمة، ولا العالمة جاهلة.

أما البطولة: فمن خلال مفهومها العام نجد عددا من الشخصيات البطولية.

فمنها شخصيات خيرة تحب الخير، وتعمل على ترسيخه، وتكره الشر وتحاربه، ويمكن أن نعدها من نماذج البطولة الإيجابية، ومن أبرزها: العنبري الأسير الذي استطاع إنقاذ قومه من الأعداء وهو في قبضتهم، فأرسل معلومات كافية عن تحركاتهم بوساطة رسول منهم، جنب بها قومه ملاقاتهم، وكفاهم مؤونة الحرب، فحين توجهوا لطلبهم لم يجدوهم.[٨]

ولعبت شخصيات حيوانية دور البطولة الإيجابية –إن جاز التعبير– في حكايات عديدة، فقد أنقذ الكلب صاحبه من الموت المحتم حين خرج إلى الجبان فإذا أعداء يطلبونه بطائلة لهم عنده، فضربوه وجرح، فهرب عنه أخوه وجاره، فألقوه في بئر غير بعيدة القعر، وهالوا عليه التراب حتى طمروه. فلما انصرفوا أسرع الكلب إلى صاحبه، حيث كان متتبعا له، ومراقبا لما يجري من بعيد، فأخذ ينبح ويزيح التراب عنه حتى تكشف رأسه. فلفت بفعله من مروا فجاءوا إلى الكلب ليستطلعوا غايته من الحفر، فوجدوا الرجل على حاله، فأزاحوا عنه التراب، ثم أوصلوه إلى أهله.[٩]

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق ، ج٦، ص ١٢٥.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٧٠.
(٣) وهو جنس من الجن نصفه على صورة إنسان، له يد ورجل وعين. المصدر نفسه، ص ٢٠٦.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٦٨.
(٥) المصدر السابق، ج٣، ص ٣٨٥.
(٦) المصدر السابق، ج٤، ص ٣٧٣ – ٣٧٤.
(٧) المصدر نفسه، ص ٣٢٠.
(٨) المصدر السابق، ج٣، ص ١٢٤–١٢٥.
(٩) المصدر السابق، ج٢، ص ١٢٢–١٢٣.

واستطاعت الذبابة تلقين قاضي البصرة درسا في التواضع من خلال إلحاحها عليه ومضايقتها له، فقد دفعته إلى التخلي عن وقاره المتكلف، والخروج عن جموده وتغيير هيئته وصورته، التي كان يبدو من خلالها متكبرا ومتميزا عن البشر، فحرك يده وحك أنفه.(١)

وكانت الأفعى هي التي انتقمت للأطفال الثلاثة الأبرياء من المرأة التي ألقت بهم في التنور، لتخفي زناها، فنهشتها وقضت عليها.(٢)

ولعل الجاحظ يريد بهذه الحيوانات الاستدلال على الخالق، فمع أنها غير مكلفة ولا عاقلة، إلا أنها ساهمت بفعالها النابعة من الإلهام الرباني، في التغيير الإيجابي، إلى جانب الشخصيات البشرية التي لم تقل فاعلية عنها، بل فاقتها في بعض الأحيان، فكما لاحظنا الكلب ينقذ صاحبه من الموت في الوقت الذي تخلى عنه أخوه وجاره، وفي الوقت الذي لم يجرؤ أحد على تذكير القاضي بالتواضع قيض الله له الذبابة، وهي مخلوق حقير للقيام بذلك.

ومنها شخصيات شريرة يمكن أن تعد من نماذج البطولة السلبية، فهي مجبولة على الغش والخداع، وتسعى لتحقيق أهدافها بطرق ملتوية غير مشروعة، ومن أهمها مسيلمة الكذاب، الذي استطاع بدهائه وحيله الماكرة تضليل قومه والاستخفاف بعقولهم، فأجرى مجموعة من الخدع أمامهم ليبدو شخصية خارقة تظهر عليها علامات النبوة، فصدقوه وآمنوا به.(٣)

ومنها أيضا ذلك الرجل الذي تخلص من ديونه بحيلة لم تخطر لأحد على بال، فأخذ ينبح على مطالبيه، فرفعوه إلى الوالي، فلم يزد الرجل على ذلك شيئا فحوله إلى القاضي ليرى أمره، فلما رأى منه ذلك وضع عليه مراقبين، وحينٌ تأكد القاضي من حاله دعا غرماءه وأمرهم بالكف عنه لإصابته بالجنون، وبعد حين أتى غريمه الذي أرشده إلى تلك الحيلة، ليقبض حقه فلم يزد له على النباح، فيئس منه وانصرف.(٤)

٦- النهاية:

حازت النهاية على اهتمام كبير من الجاحظ، فتركت بصماته الفنية أثرا واضحا فيها، فلم تأت متكلفة ولا متعسفة، وأخذت أشكالا متنوعة تناسبت مع موضوع الحكاية وهدفها.

فأقفل الكثير من الحكايات الفكاهية بعبارة مشعة بالابتسامة ومثيرة للضحك، ومن تلك الحكايات احتجاج طيب كوفي للتسمية بمحمد، يقول الجاحظ: "حدثني محمد بن عباد بن كاسب قال : قال لي الفضل بن مروان شيخ من طياب(٥)الكوفيين وأغبيائهم: إن ولد لك مائة ذكر فسمهم كلهم محمدا، [وكنهم بمحمد]، فإنك سترى البركة. أو تدري لأي شيء كثر مالي ؟ قلت: لا والله

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٣، ص ٣٤٣.
(٢) المصدر السابق، ج ٤،ص٤٥١.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٧١ - ٣٧٤.
(٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٧١ - ١٧٢.
(٥) الطياب: جمع طيب، مثل جيد وجياد، والطيب: الفكه المزاج.

ما أدري. قال: إنما كثر مالي لأني سميت نفسي فيما بيني وبين الله محمد ! وإذا كان اسمي عند الله محمدا فما أبالي ما قال الناس!"[١]

وحماقة مولاة عيسى بن علي، يقول: "وكانت لعيسى بن علي مولاة عجوز خراسانية تصرخ بالليل من ضربان ضرس لها، فكانت قد أرقت الأمير إسحاق، فقلت له: إنها مع ذلك لا تدع أكل التمر! قال: فبعث إليها بالغداة، فقال لها: أتأكلين التمر بالنهار وتصيحين بالليل؟ فقالت: إذا اشتهيت أكلت وإذا أوجعني صحت!"[٢]

وتشكل القفلة في تلك الحكايات العقدة التي تشد نسيج الحكاية فلولاها لما تمكنت من تقديم موقف فكاهي متكامل، يتسم بروح فكاهية عالية، قادرة على إدخال السرور على نفسية المتلقي، ونزع الابتسامة منه.

ويستطيع القارئ معرفة نهاية بعض الحكايات من أسطرها الأولى، فسياقها ومنطقها لا يقوده إلا إلى نهاية محددة، ومتوقعة، مثل هذه الحكاية: "كان واحد يسخر بالناس، ويدعي أنه يرقي من الضرس إذا ضرب على صاحبه، فكان إذا أتاه من يشتكي ضرسه قال له إذا رقاه: إياك أن تذكر إذا صرت إلى فراشك القرد، فإنك إن ذكرته بطلت الرقية! فكان – إذا أوى إلى فراشه – أول شيء يخطر على باله ذكر القرد، ويبيت على حاله من ذلك الوجع، فيغدو إلى الذي رقاه فيقول له : كيف كنت البارحة ؟ فيقول : بت وجعا ! فيقول : لعلك ذكرت القرد!

فيقول: نعم! فيقول: من ثم لم تنتفع بالرقية!"[٣]

وكذلك حكاية شرب المسموم للبن،[٤] وحكاية ظئر سليمان بن رياش والعقرب.[٥]

واختتمت بعض الحكايات بنهاية مفاجئة وغير متوقعة، غير أنها تبدو منطقية لإمكانية حدوثها، فهي منتزعة من الواقع لا من الخيال، فيدخل في تلك الحكايات عامل خارجي، يؤثر على مسار الأحداث، كشخصية لم تكن في بداية الحكاية أصلا، أو حدث طارئ ومفاجئ غير مبني على سابقه من الأحداث، يوجه النهاية في تلك الحكايات إلى السير بخلاف ما يتوقع، كما في الحكاية التالية: "نهش رجل من أهل البادية كثير المال، فأشفى على الموت، فأتاهم رجل، فقال: أنا أرقيه، فما تعطوني ؟ فشارطوه على ثلاثين درهما، فرقاه وسقاه أشياء ببعض الأخلاط، فلما أفاق قال: الراقي والمداوي: حقي! قال الملدوغ: وما حقه، قالوا: ثلاثون درهما، قال أعطيه من مالي ثلاثين درهما في نفثات نفثها، وحمض سقاه! لا تعطوه شيئا!"[٦]

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣١.
(٣) المصدر السابق، ج ٤، ص ٦٥.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٢٧.
(٥) المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٦٧ – ٣٦٨.
(٦) المصدر السابق، ج ٤، ص ١٤٦.

فلا يمكن أن يتوقع المتلقي أن ثريا مثل هذا الأعرابي لا يكافئ من أنقذه من الموت، بمبلغ زهيد من ماله الوافر، بل المتوقع أن يضاعف له المبلغ أضعافا مضاعفة.

وكان ما آل إليه الخصي من أشد النهايات إثارة وفجاءة، فحين رآه سيده يكوم شاة نفضته حمى، تسببت في موته.(١)

فمثل هذه النهاية المأساوية لا تخطر على البال، فإن النتيجة المتوقعة لفعل هذا الخصي هو العقاب الدنيوي فقط. ومن الحكايات التي اختتمت بنهاية مفاجئة وغير متوقعة كذلك حكاية الجاحظ والكلاب،(٢) وحكاية معاوية وجاريته الخراسانية.(٣)

وبقي أن نشير فيما يتعلق بالنهاية إلى أن الجاحظ ذيل العديد من الحكايات بتعليق لطيف يهدف إلى التعجب والنقد، فحين انصرفت الجارية إلى البيت الذي تواعدت به مع داود بن المعتمر اعترضه رجل في الطريق فأخره عن اللحاق بها، فقضت حاجتها مع من في البيت، ثم ذهبت، ولم تنتظره، وحين أتى إلى البيت لم يجدها، فهم باللحاق بها وسأل عن إمكانية تقفي أثرها والنيل منها، فقال لهم: "فإن عدوت في أثرها حتى أقوم على مجامع الطرق أتروني ألحقها؟ قالوا: [لا]، والله ما تلحقها !، قال: فقد فاتت الآن ؟ قالوا: نعم. قال: فعسى أن يكون خيرا !"،(٤) فعلق الجاحظ على قوله هذا بعبارة لطيفة هادفة حيث قال: "فلم أسمع قط بإنسان يشك أن السلامة من الذنوب خير [غيره]".(٥)

وعندما ذهب المأمون إلى حانات قُطربل، وبينما كان يضحك من السكارى تغفله سعيد بن جابر وأزاح قملة سقطت على ثوبه، فرآه وسأله ما الذي تناولت، فقال له : قملة دبت على ثوبك من هؤلاء. فقال له: أرنيها، فقد والله سمعت بها! فتعجب سعيد بن جابر من فعله هذا حيث قال: فتعجب يومئذ من المقادير كيف ترفع رجالا في السماء وتحط آخرين في الثرى!"(٦)

وذيل بعض الحكايات التي يكتنفها شيء من الغموض، وتحمل أمرا غريبا بعبارة مفسرة أو شارحة لها، تخضع لرأيه الشخصي في كثير من الأحيان، كحكاية المرأة التي لدغتها الأفاعي، وقضت عليها بطريقة ملفتة للنظر، فلبيان أن ما جرى عقاب من الله تستحقه لما

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ١، ص ١٧٢ - ١٧٣.
(٢) المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٢١.
(٣) المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٥٢.
(٤) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٦ - ٣٧.
(٥) المصدر نفسه، ص ٣٧.
(٦) المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٨١ - ٣٨٢.

اقترفت من جرائم. يقول على لسان الراوي : "فقلت لجارية كانت لها: ويحك! أخبريني عن هـذه المرأة. قالت: بغت ثلاث مرات، كل مرة تأتي بولد، فإذا وضعته سجرت التنور، ثم ألقته فيه".(١)

وبعد أن ساق حديث أبي المبارك الصابي، حول خصيه لنفسه، وقوة الشهوة أدلى بتعليـق لطيف : "فإن كان – حفظك الله – قد صدق علـى نفسه في تلك الحال، بعد أن اجتمعت فيه هـذه الخصال، فما ظنك بهذا قبل هذا الوقت بنحو سـتيـن سـنة أو سـبعين سـنة ؟! وما ظنك بـه قبل الخِصاء بساعة ؟! وليس في الاستطاعة ولا في صفة الإمكان أن يحتجز عن إرادة النسـاء، ومعه من الحاجة إليهن والشهوة لهن هذا المقدار ! الله تعالى أرحم بخلقه وأعدل على عباده، مـن أن يكلفهم هجران شيء قد وصله بقلوبهم هذا الوصل، وأكده هذا التأكيد".(٢)

ولما انتهى من حكاية الرضيع الملهم جاء بعبارة مركزة ودالة، علل فيها سر التناغم بين الكلبة وذلك الرضيع، مع اختلاف جنـسـيهما، يقول : "والذي ألهم هذا المولود مـص إبهامـه ساعة يولد من بطن أمه، ولم يعرف كيفية الارتضاع، هو الذي هداه إلى الارتضاع مـن أطبـاء الكلبة، [ولو] لم تكن الهداية شيئا مجعولا في طبيعته، لما مص الإبهام وحلمة الثدي، فلمـا أفـوط عليه الجوع واشتدت حاله، وطلبت نفسه وتلك الطبيعة فيه، دعته تلك الطبيعة وتلك المعرفة إلـى الطلب والدنوّ، فسبحان من دبر هذا وألهمه وسواه ودل عليه !!"(٣)

ومن الحكايات التي علق عليها أيضا قول أبي لقمان الممرور،(٤) وحكايةإلهام الحمـلم،(٥) وحكاية الأفعى التي تحتال لاصطياد الطيور.(٦)

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٤، ص ٢٥١.
(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٨.
(٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٦.
(٤) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٧ – ٣٨.
(٥) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٦ – ١٥٧.
(٦) المصدر السابق، ج ٤، ص ١٠٧ – ١٠٨.

ب- **أسلوبها:**

١- التقنيات السردية:

تتنوع الأساليب السردية من حكاية لأخرى، لكنها لا تخرج عن إطار التقنيات التقليدية، ونلمس من دراسة الحكايات مدى براعة الجاحظ في انتقاء الجماليات السردية المناسبة للعديد منها لغاية فنية وفكرية، ومن أهم التقنيات السردية التي نسجت بها الحكايات:

أ- الضمائر:

يلمح الدارس تنوع الضمائر في الحكايات عموما، فقلما يعثر على واحدة منها تستخدم ضميرا معينا بمفرده.(١) ومن الضمائر التي استخدمتها الحكايات:

١- **ضمير الغائب:** تعمد الحكايات إلى هذه التقنية عند الحديث عن شخصيات حيوانية بشكل خاص كما في حكاية خبث الثعلب، يقول صديق الجاحظ : "هجمت على ثعلب في مضيق، ومعي بُنيّ لي، فإذا هو ميت منتفخ، فصددت عنه، فلم ألبث أن لحقتني الكلاب، فلما أحس بها وثب كالبرق، بعد أن تحايد عن السَنَنّ، فسألت عن ذلك فإذا ذلك من فعله معروف، وهو أن يستلقيَ وينفخ خواصره ويرفع قوائمه، فلا يشكُّ من رآه من الناس أنه ميت منذ دهر، وقد تزكر(٢) بالانتفاخ بدنه، فكنت أتعجب من ذلك، إذ مررت في الزقاق الذي في أصل دار العباسية ومنفذه إلى مازن، فإذا جرو كلب مهزول سيئ الغذاء، قد ضربه الصبيان وعقروه ففر منهم ودخل الزقاق، فرمى بنفسه في أصل أسطوانة وتبعوه حتى هجموا عليه، فإذا هو قد تماوت فضربوه بأرجلهم فلم يتحرك فانصرفوا عنه، فلما جاوزوا تأملت عينه فإذا هو يفتحها ويغمضها، فلما بعدوا عنه وأمنهم عدا، وأخذ في غير طريقهم فأذهب الذي كان في نفسي للثعلب، إذ كان الثعلب ليس فيه إلا الروغان والمكر، وقد ساواه الكلب في أجود حيله".(٣)

وتلجأ إليها الحكايات كثيرا في رسم الشخصية السلبية لتحرمها من الحديث عن نفسها كي لا تزيف الحقائق أو تخفي ما يخجلها أو يسيء إليها، فتبدو لنا من خلال هذه التقنية واضحة بجانبيها المظلم والمشرق، كشخصية اللوطي عبد العزيز فإنه "كان له مال، وكان

---

(١) من الحكايات التي انفردت بضمير الغائب: الخناقون، الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٧٠. وحكاية سجود الفيل للملك، ج٧، ص٢٠٥. ومن الحكايات التي انفردت بضمير المتكلم: النظام، ج٣، ص٤٥١. وحكاية عمر الضب، ج٦، ص١١٩.

(٢) تزكر: عظم وتتضخم .

(٣) المصدر السابق، ج ٢، ص٢٩٠. وانظر كذلك المصدر نفسه، ص ١٥٥، ١٥٦.

إذا جاء وقت الزكاة وجاء القواد بغلام مؤاجـــَر،[١] قال : يا غلام ألك أمٌّ ؟ ألك خالات؟ فيقـول الغلام: نعم. فيقول : خذ هذه العشرة الدراهم – أو خذ هذه الدنانير – من زكاة مـــالي، فادفعـها إليهن، وإن شـئـت أن تُبركني[٢] بعد ذلك على جهة المكارمـــة، [فـافعل]، وإن شـئـــت أن تنصرف فانصرف. فيقول ذلك وهو واثق أن الغلام لا يمنعه بعد أخذ الدراهم، وهو يعلم أنه لـــن يبلغ من صلاح طباع المؤاجرين أن يؤدوا الأمانات، فغبر بذلك ثلاثين سنة وليس لـــه زكـــاة إلا عند أمهات المؤاجرين وأخواتهم وخالاتهم".[٣]

ومن تلك الشخصيات أيضا الخناقـــون،[٤] والمكي،[٥] ومشتـــهي ريح الكرياس.[٦]

٢– **ضمير المتـــكـــلم** : وهو السرد المباشر، وقد سيطرت هذه التـــقنية علـــى أســـاليب الحكايات الذاتية، التي كان الجاحظ طرفا فيها، مثل الحكاية التي ينقل لنا فيها جسامة الفيل كمـــا شاهده، "قال أبو عثمان: خرجت يوم عيد، فلما صـــرت بعيـــساباذ إذا بتـــل مجلـــل بقطـــوع ومقطعات، وإذا رجال جلوس، عليهم أسلحتهم فـــسألت بعض من يشهد العيد فـــقـــلت: ما بـــال هذه المسلحة في هذا المكان وقد أحاط بذلك التل ؟ فقال [لي]: هذا الفيل! فقصدت نحوه وما لـــي هم إلا النظر في أذنيه [فرجعت عنه بعد طول تأمل وأنا أتوهم عامة أعضائه بل جميع أعضائـــه إلا أذنيه]، وما كانت لي في ذلك علة إلا شغل قلبي بكل شيء هجمت عليه منه، وكله كان شاغلا [لي] عـــن أذنه التي إليها كان قصدي".[٧]

وتســـتخدمه الحكايات عندما تحمل خبرا غريبا طريفا، قد لا يلقى القبول عند المتـــلقي، فتفسح المجال للشخصية لتـــتـــحدث إلى القارئ مباشرة دون وساطة الراوي، ولعل ذلـــك أشـــد إقناعـــا لـــه، كمـــا فـــي حديـــث شـــيخ الخريبـــة عـــن تخلـــق الذبـــاب مـــــن البـــــاقلاء، يقول الجاحظ: "وحدثني بعض أصحابنا عن شيخ من أهل الخريبة، قال: كنـــت أحـــب البـــاقلاء، وأردت، إما البصرة وإما بغـــــداد – ذهب عني حفظه – فصرت في سفينة حملها باقلاء، فقلـــت في نفسي: هذا والله من الحظ وسعادة الجَد، ومن التوفيق والتسديد ولقد أربع من وقع له مثل هـــذا الذي [قد] وقع لي: أجلس في هذه السفينة على هذا الباقلاء، فآكل منه نيـــا ومطبوخـــا، ومقلـــوا، وأرضُّ بعضه وأطحنه، وأجعله مرقا وإداما، وهو يغذو غذاء صالحا، ويسمن، ويزيد في البـــاه. فابتدأت فيما أمّلته، ودفعنا السفينة، فأنكرت كثرة الذبان، فلما كان الغد جاء منه ما لم أقدر معه

---

(١) لفظة عباسية، يقصد بها من يســتأجره اللاطة.
(٢) يقال أبركه:أي جعله يبرك، وكنى هنا بقوله.
(٣) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٦.
(٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٦٥، ٢٧٠.
(٥) المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٦٧.
(٦) المصدر نفسه، ص ٤٦٨.
(٧) المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٠١. وانظر كذلك ج ٣، ص ٣٤٦. ج ٥، ص ٤٢١.

على الأكل والشرب، وذهبت القائلة، وذهب الحديث، وشغلت بالذّب، على أنهن لم يكنّ يبرحن بالذب، وكن أكثر من أن أكون أقوى عليهن، لأني كنت لا أطرد مائة حتى يخلفها مائة مكانها، وهن في أول ما يخرجن من الباقلاء، كأن بهن زَمانة[١] فلما كان طيرتهن أسوأ [كان أسوأ] لحالي، فقلت للملاح: ويلك! أي شيء معك حتى صار الذبان يتبعك! قد والله أكلت وشربت! قال: [أ] وليس تعرف القصة ؟ قلت: لا والله ! قال: [هي والله] من هذه الباقلاء، ولولا هذه البلية لجاءنا من الركاب كما يجيئون إلى جميع أصحاب الحمولات، وما ظننته إلا ممن قد اغتفر [هذا] للين الكراء، وحب التفرد بالسفينة، فسألته أن يقربني إلى بعض الفُرُرض[٢]، حتى أكتري من هناك إل حيث أريد، فقال لي : أتحب أن أزودك منه ؟ قلت: ما أحب أن ألتقي أنا والباقلاء في طريق أبدا!"[٣]

وكذلك حكاية النظام التي قدمت لنا صورة غير متوقعة عن ذلك الرجل وهو صديق الجاحظ ومن أعلام المعتزلة. فلتفادي الحرج وتوخي الموضوعية انتقى الجاحظ ضمير المتكلم كتقنية محايدة لسرد هذه الحكاية، فتركه يروي تجربته القاسية مع الفقر ويصف حالة من عدم التوازن التي تمكنت منه، حتى أنه تطير إذ ذاك على الرغم من اعتزاله.[٤]

واستخدمت حكايات قليلة جدا ضمير المتكلمين، مثل حكاية أبي المبارك،[٥] وحكاية النظام مع الكلاب.[٦]

ب – الحوار:

يعد الحوار من أشكال السرد الهامة التي لجأ إليه الكثير من الحكايات، فهو أداة تواصل بين الأفراد، ويساعد على تطور الأحداث وخلق المواقف، فيبعث الحركة في الحكاية، فتبدو نابضة وأشد إثارة، وتركز الحوار في أساليب الحكايات الفكاهية والفكرية، لأنه يساعد في الكشف عن طبيعة الشخصية، ومستواها وطريقة تفكيرها، فمن خلاله تندر في العديد من شخصيات الأغبياء والحمقى والمجانين، فتجلى سقم منطقهم وغرابة تفكيرهم كما في حكايته مع أبي خزيمة، يقول الجاحظ: "وكان عندنا حارس يكنى أبا خزيمة، فقلت يوما –وقد خطر على بالي–: كيف اكتنى هذا العلج الألكن بأبي خزيمة ؟ ثم رأيته فقلت له: خبرني عنك، أكان أبوك يسمى خزيمة ؟ قال: لا . قلت: فجدك أو عمك أو خالك ؟ قال: لا. قلت: فلك ابن يسمى خزيمة؟ قال: لا. قلت: فكان لك مولى يسمى خزيمة ؟ قال: لا قلت: فكان في قريتك رجل صالح أو فقيه

---

(١) زمانة: العاهة والافة.
(٢) الفرض: محط السفينة.
(٣) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٥٦ – ٣٥٧.
(٤) المصدر نفسه، ص٤٥١. وانظر كذلك جواب نوفل عريف الكناسين، المصدر نفسه، ص١٣. واحتجاج مدني وكوفي، المصدر نفسه، ص١٦. وجواب الزبادي، المصدر نفسه، ص٢٨.
(٥) المصدر السابق ، ج١، ص ١٢٦.
(٦) المصدر نفسه، ص ٢٨١.

يسمى خزيمة ؟ قال: لا. قلت: فلم اكتنيت بأبي خزيمة، وأنت علج ألكن، وأنت فقير، وأنت حارس ؟ قال: هكذا اشتهيت. قلت : فلأي شيء اشتهيت هذه الكنية من بين جميع الكنى ؟ قال: ما يدريني. قلت: فتبيعها الساعة بدينار، وتكتني بأي كنية شئت؟ قال: لا والله، ولا بالدنيا وما فيها!"[١]

وثمة حكايتان جرى فيهما حوار حول مسائل طريفة غريبة، بين أبي يوسف القاضي وأحد المجانين،[٢] وبين أبي سيف الممرور والحضور في أحد المساجد.[٣]

وكان الحوار سبيلا لإظهار بطلان معتقدات وزيغ أفكار العديد من الشخصيات التي فارقها في الفكر والمذهب بموضوعية تامة، فالشخصية من خلال هذه التقنية هي التي تتحدث عن نفسها.

فقد تمكن الجاحظ من خلال التحاور مع خشنام بن هند –وكان من الغالية–، إماطة اللثام عن شخصيته العفنة، والمنفصمة عما تؤمن به، يقول: "وكان له بني يتبعه، فكان يزني أمه عند كل حق وباطل، وعند كل جد وهزل، قلت له يوما ونحن عند بني ربعي: ويحك، بأي شيء تستحل أن تقذف أمه بالزنا؟ فقال: لو كان علي في ذلك حرج لما قذفتها! قلت: فلم تزوجت امرأة ليس في قذفها حرج؟ قال: إني قد احتلت حيلة حتى حل لي من أجلها ما كان يحرم. قلت: وما تلك الحيلة ؟ قال: أنا رجل حديد، وهذا غلام عارم، وقد كنت طلقت أمه فكنت إذا افتريت عليها أثمت، فقلت في نفسي : إن ارغتها وخدعتها حتى ... مرة واحدة حل لي بعد ذلك افترائي عليها، بل لا يكون قولي حنيئذ فِرية، وعلمت أن زنية واحدة لا تعدل عشرة آلاف فِرية. فأنا اليوم أصدق ولست أكذب. والصادق مأجور. إني والله ما أشك أن الله إذا علم أني لم أزن بها تلك المرة إلا من خوف الإثم إذا قذفتها أنه سيجعل تلك الزنية له طاعة، فقلت: أنت الآن على [يقين] أن زناك طاعة لله تعالى؟ قال : نعم".[٤]

ومن خلاله كشف عن تدني فهم أبي لقمان، وأصول تفكيره حيث كان متشيعا،[٥] وعن تعنت الشيخ الإباضي وضآلة علمه.[٦]

وأسهم الحوار في شرح المعلومة وإيصالها للمتلقي في العديد من الحكايات بشكل عام والتعليمية منها بشكل خاص . فمن خلال الحوار مع من كانوا في مجلسه استطاع الصابي شرح

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٣، ص٢٨
(٢) المصدر نفسه، ص ١١.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٦٠.
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٠ – ٢١.
(٥) المصدر ذاته، ص٣٧.
(٦) المصدر السابق، ص ٩، ٢٢.

العديد من القضايا المتعلقة بالشهوة لهم.[١]

واستطاع كسرى من خلال الحوار إفحام الأعرابي، وإفهامه وإعلامه عن قوة الفيل وقدرته على حمل الأثقال وتفوقه في ذلك على سائر الحيوانات.[٢]

وجاءت البنية السردية متماسكة في الحكايات، فبدا السرد متتابعا ومتدفقا دون انقطاع، غير أن بعض الحكايات كان السرد فيها مفككا ومتقطعا في مواضع عديدة منها بعامل الوصف والاستطراد الذي يجمد العملية السردية بقصد تنبيه القارئ إلى أمر ما، أو للشرح والإيضاح، وكان الوصف طبيعيا في معظمها، فرضته الضرورة الفكرية أو الفنية فيها، إلا أنه أخل بإطنابه الزائد بالبنية السردية في بعضها.

وقد تجلى ذلك في حكاية مسيلمة الكذاب، فقد توقف السرد مرارا بتعليقات واستطرادات من الجاحظ، "قال: ... فخرج وقد أحكم من ذلك أمورا. فمن ذلك أنه صب على بيضة من خل قاطع،[٣] -والبيض إذا أطيل إنقاعه في الخل لان قشره الأعلى، حتى إذا مددته استطال واستدق وامتد كما يمتد العلك، أو على قريب من ذلك- قال: فلما تم له فيها ما حاول وأمل، طوَها ثم أدخلها قارورة ضيقة الرأس، وتركها حتى جفت ويبست. فلما جفت انضمت، وكلما انضمت استدارت، حتى عادت كهيئتها الأولى، فأخرجها إلى مُجَّاعة، وأهل بيته، وهم أعراب، وادعى بها أعجوبة، وأنها جعلت له آية. فآمن به في ذلك المجلس مُجَّاعة. وكان قد حمل معه ريشا في لون ريش أزواج حمام، وقد كان يراهن في منزل مجاعة مقاصيص. فالتفت، بعد أن أراهم الآية في البيض إلى الحمام، فقال لمجاعة: إلى كم تعذب خلق الله بالقص؟! ولو أراد الله للطير خلاف الطيران لما خلق لها أجنحة، وقد حرمت عليكم قص أجنحة الحمام! فقال له مجاعة كالمتعنت: فسل الذي أعطاك في البيض هذه الآية أن ينبت لك جناح هذا الطائر الذكر الساعة!.

فقلت لسهم: أما كان أجود من هذا وأشبه أن يقول: فسل الذي أدخل لك هذه البيضة فم هذه القارورة أن يخرجها كما أدخلها، قال: فقال: كأن القوم كانوا أعرابا، ومثل هذا الامتحان من مجاعة كثير. ولعمري إن المتنبئ ليخدع ألفا مثل قيس بن زهير، قبل أن يخدع واحدا من آخر المتكلمين، وإن كان ذلك المتكلم لا يشق غبار قيس بيما قيس بسبيله.

قال مسيلمة: فإن أنا سألت الله ذلك، فانتبه له حتى يطير وأنتم ترونه، أتعلمون أني رسول الله إليكم؟ قالوا : نعم. قال : فإني أريد أن أناجي ربي ، وللمناجاة خلوة ، فانهضوا عني، وإن شئتم

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ١، ص ١٢٦.
(٢) المصدر السابق، ج ٧، ص ١٩٤.
(٣) أي شديد الحموضة.

فأدخلوني هذا البيت وأدخلوه معي، حتى أخرجه إليكم الساعة وافي الجناحين يطير، وأنتم ترونه ولم يكن القوم سمعوا بتغريز الحمام، ولا كان عندهم باب الاحتياط في أمر المحتالين، وذلك أن عبيدا الكيس، فإنه المقدم في هذه الصناعة، لو منعوه الستر والاختفاء. لما وصل إلى شيء من عمله جل ولا دق، ولكان واحدا من الناس. فلما خلا بالطائر أخرج الريش الذي قد هيأه، فأدخل طرف كل ريشة مما كان معه، في جوف ريش الحمام المقصوص، من عند المقطع والقص، وقصب الريش أجوف، وأكثر الأصول حداد وصلاب، فلما وفى الطائر ريشه صار في العين كأنه برذون موصول الذنب، لا يعرف ذلك إلا من ارتاب به. والحمام بنفسه قد كان له أصول ريش، فلما غُرِّزت تمت فلما أرسله من يده طار. وينبغي ألا يكون فعل ذلك بطائر قد كان قصوه بعد أن ثبت عندهم. فلما فعل ذلك ازداد من كان آمن به بصيرة وآمن به آخرون لم يكونوا آمنوا به، ونزع منهم في أمره كل من كان مستبصرا في تكذيبه.

قال: ثم إنه قال لهم – وذلك في مثل ليلة منكرة الرياح مظلمة في بعض زمان البوارح– إن الملك علَى أن ينزل إلي، والملائكة تطير، وهي ذوات أجنحة، ولمجيء المَلك زجل وخشخشة وقعقعة، فمن كان منكم ظاهرا فليدخل منزله، فإن من تأمل اختطف بصره ! ثم صنع راية من رايات الصبيان التي تعمل من الورق الصيني، ومن الكاغد، وتجعل لها الأذناب والأجنحة، وتعلق في صدورها الجلاجل، وترسل يوم الريح بالخيوط الطوال الصلاب.

قال: فبات القوم يتوقعون نزول المَلك، ويلاحظون السماء، وأبطأ عنهم حتى قام جل أهل اليمامة، وأطنبت الريح وقويت، فأرسلها، وهم لا يرون الخيوط، والليل لا يبين عن صورة الرق، وعن دقة الكاغد، وقد توهموا قبل ذلك الملائكة، فلما سمعوا ذلك ورأوه تصارخوا وصاح: من صرف بصره ودخل بيته فهو آمن! فأصبح القوم وقد أطبقوا على نصرته والدفع عنه.

فهو قوله:

ببيضةِ قارور وراية شادنٍ وتوصيل مقصوص من الطير جادفِ.

فقلت لسهم : ....".[١]

ومن الحكايات التي بدا فيها الاستطراد طويلا أيضا، حكاية سكر الشطرنجي.[٢]

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٤، ص٣٧٠–٣٧٤

(٢) المصدر ذاته، ص١٤٧–١٤٩

٢- الصورة:

أقلت الحكايات من الصور القائمة على البلاغة الشكلية، واتجهت نحو الصور المنبعثة من الحس المرهف والذوق الرفيع والفكر المستنير، فشكلت الصور في الحكايات بعبارة سهلة الفهم، قوية النظم، ذات طاقة إيحائية عالية ومؤثرة.

ومن تلك الصور الجميلة التي تجلت فيها براعة الجاحظ صورة ذلك الحارس وهو يكوم كلبة، فقد رسمها بأسلوب إشاري متدفق، بعيد عن الزخرف اللفظي، فبدت نابضة بالحركة، ومعبرة موحية، "وخبرني من لا أرد خبره، أنه أشرف من سطح له قصير الحائط، فإذا هو بسواد في ظل القمر في أصل حائط، وإذا أنين كلبة، فرأى رأس إنسان يدخل في القمر، ثم يرجع إلى موضعه من ظل القمر، فتأمل في ذلك، فإذا هو بحارس .....".(١)

(وللجاحظ طريقة خاصة في التصوير، فسواء أكان المُصَوَّر حسيا أم معنويا، يكرر الصور الجزئية لذلك الشيء إن كان يحتمل التكرار، حتى تكتمل صورته الكلية وتبدو واضحة وأكثر إثارة للمتلقي).(٢)

وقد عمد إلى هذا الأسلوب في رسم صور عديدة، فقد ألح في تصوير شعور الكلب بقدوم صاحبه وسروره بذلك، "قال فبينما أنا جالس في الدار إذ سمعت من قِبل باب الدار نباحه، فلم أر شكل نباحه من التأنب والتعثيث والتوعد، ورأيت فيه بصبصة السرور، وحنين الإلف. ثم لم ألبث أن رأيت الخادم طالعا علينا، وإن الكلب ليلتف على ساقيه، ويرتفع إلى فخذيه، وينظر في وجهه، ويصيح صياحاً يستبين فيه الفرح ولقد بلغ من إفراط سروره أني ظننت أنه عُرض. ثم كان بعد ذلك يغيب الشهرين والثلاثة، أو يمضي إلى بغداد ثم يرجع إلى العسكر بعد أيام، فأعرف بذلك الضرب من البصبصة، وبذلك النوع من النباح، أن الخادم قدم. حتى قلت لبعض من عندي : ينبغي أن يكون فلان قد قدم، وهو داخل عليكم مع الكلب".(٣)

وحين صور شدة إلحاح الذباب عليه لم يترك موضعا يضايقه به إلا أشار إليه، ولا أسلوبا لإبعاده يخطر على بال الإنسان في ذلك الزمان إلا ذكره، " ... فمررت في عشب [أشب] ونبات ملتف كثير الذبان، فسقط ذباب من تلك الذبان على أنفي، فطردته، فتحول إلى عيني [فطردته، فعاد إلى موق عيني]، فزدت في تحريك يدي فتنحى عني بقدر شدة حركتي وذبي عن عيني - ولذبان الكلإ والغِياض والرياض وقع ليس لغيرها - ثم عاد إلي فعدت عليه، ثم عاد [إلي]

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٧١.
(٢) أبو الرب، **الحكاية في أدب الجاحظ**، مرجع سابق، ص ١٥٠.
(٣) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٢٨ - ١٢٩.

فعدت بأشد من ذلك، فلما عاد استعملت كمي فذببت به عن وجهي، ثم عاد، وأنا في ذلك أحث السير، أؤمل بسرعتي انقطاعه عني فلما عاد نزعت طيلساني من عنقي فذببت به عني بدل كمي، فلما عاود ولم أجد له حيلة استعملت العدو، فعدوت منه شوطا [تاما] لم أتكلف مثله مذ كنت صبيا، فتلقاني الأندلسي فقال لي : مالك يا أبا عثمان! هل من حادثة؟

قلت : نعم، [أكبر الحوادث]، أريد أن أخرج من موضع للذبان علي فيه سلطان! فضحك حتى جلس. وانقطع عني، وما صدقت بانقطاعه عني حتى تباعد جدا".(١)

وقد رسم شخصية القاضي عبد الله من خلال تكرار الصور الجزئية التي بين بها فعاله، ليؤكد للمتلقي ما وصف به من التصلب والوقار المتكلف.(٢)

وإذا كان المُصَوَّر لا يحتمل التكرار والإلحاح في الصور الجزئية فإنه يرسمه بصورة أحادية المسار، وغالبا ما تكون من الصور البيانية الرائعة، التي منها صورة ديك سهل ابن هارون الذي كان بخيلا، يقول : "فأتانا بقصعة فيها مرق، فيه لحم ديك [عاس هرم] ... لا تحز فيه السكين، ولا تؤثر فيه الأضراس".(٣)

وكذلك الصورة المنتزعة من الطبيعة لتخثر اللبن الذي سقيه المسموم، "وسقوه في تلك الليلة لبن أربعين عنزا، كلما استقر في جوفه قعب من ذلك اللبن قاء فخرج منه كأمثال طلع(٤) الفحال الأبيض(٥)، فيه طرائق من دسم تعلوه خضرة".(٦) ومنها الصورة المعبرة التي رسمت بها حركة انفعال عبد الله بن خازم حينما رأى جرذا. "وإذا عبد الله تضاءل حتى صار كأنه فرخ، واصقر حتى صار كأنه جراد ذكر".(٧)

وللجاحظ طريقتان في رسم الشخصية وتقديمها: الأولى: التركيز على جانب بارز من جوانب المظهر الخارجي للشخصية، فيبين القسمات الرئيسية أو العلامات الفارقة فيه مستعينا بالوصف المباشر الذي غالبا ما يعطي رأيه من خلاله في تلك الشخصية، كشخصية عبد الله بن سوار(٨) وبالإيحاء أحيانا.(٩)

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٤٦ –٣٤٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٤٣ – ٣٤٦.
(٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٧٤.
(٤) طلع: نور النخل ما دام في الكافور، أي الغلاف .
(٥) الفحال، كرمان: الذكر من النخل. والأبيض صفة للطلع لا للفحال.
(٦) الجاحظ ، **الحيوان** ،مصدر سابق، ج ٤، ص ١٢٧.
(٧) المصدر السابق، ج ٧، ص ١٣٦.
(٨) المصدر السابق، ج ٣، ص٣٤٣.
(٩) أبو الرب، **الحكاية في أدب الجاحظ**، مرجع سابق، ص ١٥٢.

وقدم العديد من الجواري والنساء بهذه الطريقة "والله إني لجالس على باب داري في بني صبير، إذ أقبلت امرأة لم أر قط أتم حسنا وملحا وجسما منها، ورأيت في مشيتها تأودا، ورأيتها تتلفت...".[١]

وأما الطريقة الثانية في رسم الشخصية تقديمها من الداخل دون إبداء أي رأي فيها، ويعتمد في هذه الطريقة على تصوير جانب من سلوكها أو طريقة تفكيرها بأسلوب إيحائي على الأغلب، وآثر الجاحظ هذه الطريقة على سابقتها في رسم أكثر الشخصيات.[٢]

ومن خلال هذه الطريقة رسم الجاحظ أكثر الشخصيات العلمية، كأبي يوسف القاضي،[٣] والمذهبية فكشف عن بعدها الأيديولوجي من خلال عرضه لأسلوب تفكيرها وكشفه عن أصول معتقداتها كشخصية أبي لقمان الممرور،[٤] والراهبين من الزنادقة،[٥] والشيخ الإباضي.[٦]

وتظهر ملكة الجاحظ العالية في التصوير من خلال تصويره الحي لحركة العديد من الشخصيات وأقوالها بعيداً عن الوصف التقريري، ففسح المجال لمنطق الأحداث وسلوك الشخصية وانفعالاتها لصياغة صورتها وأبعادها . فمن خلال هذا الأسلوب يمكن معرفة ملامحها، أو نفسيتها، أو ما تؤمن به أو المجتمع الذي تنتمي إليه، دون حاجة إلى التصريح.

ومن الشخصيات التي رسمت بهذا الأسلوب الملك الفارسي،[٧] وخشنام بن هند،[٨] والمكي.[٩]

وتجلت موهبته أيضا من خلال إصابته في تقدير متى تقتضي الضرورة الفنية لرسم الشخصية وإظهارها ومتى تغيب صفاتها وهيأتها. وقد تجلى ذلك من خلال حكايتين متجاورتين، الأولى حكاية قاسم التمار والجارية.[١٠] والثانية حكاية عيسى بن مروان ومليحته.[١١]

فقد رسم في الأولى البعد المادي للجارية التي اشتراها، ثم فرت منه، فأظهر حسنها

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق،ج ٥، ص ٥٦٦-٥٦٧. وانظر كذلك ج٦، ص ٢٦٢.
(٢) أبو الرب، **الحكاية في أدب الجاحظ**، مرجع سابق، ص ١٥٧.
(٣) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٣، ص١١.
(٤) المصدر نفسه ، ٣٧.
(٥) المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٥٧.
(٦) المصدر السابق، ج ٣، ص٢٢.
(٧) المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٠.
(٨) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٠.
(٩) المصدر السابق، ج ٥، ص٤٦٧.
(١٠) المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٦٢.
(١١) المصدر ذاته، ص٢٦٣.

"كأنها جان، وكأنها خوط بان،[١] وكأنها جدل عنان، وكأنها الياسمين نعمة وبياضا،"[٢] ولعل السبب في ذلك تبرير شغف قاسم بها وتعلقه فيها فبعد أن هربت من بيتها تناسى كرامته فدفعه جمالها إلى اللحاق بها عند بيت النخاس، في حين لم تأت الحكاية على صورته وملامح هيأته.

وفي الثانية أبدى اهتماما كبيرا بمظهر عيسى بن مروان فألح في وصف قبح أنفه "وكان أقبح خلق الله تعالى أنفا حتى كان أقبح من الأخنس، ومن الأفطس، والأجدع"[٣] ليعلل تمنع المرأة عنه ونفورها منه على الرغم من مغازلته لها وتبذله في إقناعها في الوقت الذي لم تأبه الحكاية بشيء من ملامحها.

وإذا نظرنا إلى الشخصيات من خلال المفهوم المرن للصورة، يمكن أن نلمس صورة عامة لبعضها، تشكلت من صور جزئية في مجموعة من الحكايات.

فقد برزت للمرأة صورتان إحداها حسية لأن الحكايات عنيت عناية فائقة بإظهار شكلها وبيان مفاتنها في المقام الأول، فبدت جميلة فاتنة فيها، توقظ بحسنها مشاعر من يراها، فقد فتن جمال إحداهن داود بن المعتمر، فتبعها وترك الجاحظ دون استئذان.[٤] واستأثر جمال إحدى الجواري باهتمام قاسم فاشتراها دون غيرها.[٥] وشد انتباه رتبيل حسن المرأة التي مرت أمامه.[٦]

والأخرى بدت فيها سلبية لأنها لم تتسام بجمال جسدها إلى جمال نفسها وخلقها فكانت نظرتها للرجل شهوانية بحتة لا تفكر إلا بشكله.[٧]

وقدمت الحكايات صورة الحمام بصورة خيرة، فهو لا يؤذي أحدا ومظهره محبب، ويود نفعا للإنسان. فقد وجدنا إلفا وتعاونا فيما بينه،[٨] وأفاد منه الإنسان بالمراسلات،[٩] وألان تزاوجه وهديله قلب المرأة العصية على زوجها.[١٠]

---

(١)الخوط: الغصن الناعم .
(٢)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٦،ص٢٦٢.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٦٣.
(٤) المصدر السابق، ج ٣، ص٣٥.
(٥) المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٦٢.
(٦) المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٥٦.
(٧)انظر الحكايات، المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٣.
(٨)المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٦.
(٩) المصدر نفسه، ص ٢٨٤.
(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٨٧.

٣- اللغة:

جاءت الألفاظ في الحكايات مناسبة لمقتضى الحال، إذ تفنن الجاحظ بانتقائها سواء أكانت من جهة الشخصية أم من جهة الموضوع، فجرت الألفاظ على ألسنة الشخصيات مناسبة لأفكارها ومستوياتها ولهجاتها حتى وإن جنحت عن الفصحى.

ففي حكاية قال ملك لعبده بعد عودته من مهمة التحري عن ابنه التي كلفه بها مهيم. وهي كلمة يمانية مفادها ما أمرك وما شأنك؟[١] وفي أخرى تلفظت الجارية بكلمة عامية مكشوفة علق الجاحظ عليها فقال :"فلم أسمع بكلمة عامية أشنع ولا أدل على ما أرادت، ولا أقصر من كلمتها هذه".[٢]

وركبت عجوز جملا فلما سار بها خضها فلما تأذت منه ،" قالت بلسانها – وهي سندية أعجمية – أخزى الله هذا الذمل. فإنه يذكر بالسر! تريد أخزى الله هذا الجمل فإنه يذكر بالشر".[٣]

وقد استخدم بعضها ألفاظا أعجمية إن كان بها شخصية غير عربية لتتناسب معها كما في حكاية معاوية وجاريته الخراسانية، فلما تحول عنها إلى غيرها غضبت منه، وأجابته حين سألها عن الأسد بالفارسية " كفتار، فخرج وهو يقول ما الكفتار؟ فقيل له: الكفتار الضبع، فقال: قاتلها الله أدركت بثأرها، والفرس إذ استقبحت وجه الإنسان قالت : روي كفتار أي وجه الضبع".[٤]

وإذا كان المتكلم أعرابيا فإنه يراعي مستوى لغته فيجري على لسانه ألفاظا وعبارات تتسم بالفصاحة والرصانة وقوة السبك .فبعد أن قسم أعرابي الدجاج بينه وبين من أنزلوه عندهم واستأثر بنصيب الأسد قال: "اللهم لك الحمد أنت فهمتنيها".[٥]

ونلمس الفصاحة كذلك من الحوار الذي جرى بين الأعرابي وزوجه، " قال لامرأته: يا هنتاه[٦] إن إنسانا ليطالعنا من العشرة ! قالت: مه يا شيخ، ذاك جان العشرة! إليك عني

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٧، ص٢٦١.
(٢) المصدر السابق، ج ٦، ص٢٦١.
(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص٢٩٢.
(٤) المصدر السابق، ج ٦، ص٤٥٢.
(٥) المصدر السابق، ج ٢، ص٣٥٩.
(٦) يا هنتاه: كناية عن المنادى المؤنث الذي لا يراد التصريح باسمه.

وعن ولدي !! قال الشيخ : وعني يرحمك الله!...".[١]

وتفاوتت الألفاظ من حيث الجزالة والسلاسة في الحكايات من موضوع لآخر ومن حالة لأخرى انطلاقا من دعوة الجاحظ إلى تناسب الألفاظ مع الأغراض، فهو يرى أن لكل مقام مقال، "ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء: فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح والكناية في موضع الكناية والاسترسال في موضع الاسترسال. وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك وملهٍ، وداخل في باب المزاح والطيب، فاستعملت فيه الإعراب انقلب عن جهته، وإن كان في لفظه سخف وأبدلت السخافة بالجزالة، صار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس يكربها، ويأخذ بأكظامها".[٢]

فكان الجاحظ يختار اللفظ ليعبر عن الحالة المناسبة له فألفاظه المستخدمة في التعبير عن حالة الغضب غير ألفاظه المعبرة عن حالة الحزن والألفاظ التي تعبر عن حالة الألم غير تلك التي تعبر عن الفرح والبهجة، والألفاظ التي تومئ بالترغيب غير التي تومئ بالترهيب، وإن الألفاظ المستخدمة في الحديث عن قاض أو عالم غير التي يتحدث بها عن سكير أو شاذ.[٣]

ويتضح ذلك جليا في حديث عروة بن مرثد للكلب الذي حسبه لصا. "قال:... إيه يا ملأمان![٤] أما والله إنك بي لعارف، وإني بك أيضا لعارف، فهل أنت إلا من لصوص بني مازن، شربت حامضا خبيثا، حتى إذا دارت الأقداح في رأسك منتك نفسك الأماني وقلت دور بني عمرو، والرجال خلوف، والنساء يصلين في مسجدهن، فأسرقهن! سوءة والله، ما يفعل هذا الأحرار! لبئس والله ما منتك نفسك! ?فاخرج وإلا دخلت عليك فصرمتك مني العقوبة! لايم الله لتخرجن أو لأهتفن هتفة مشؤومة عليك، يلتقي فيها الحيان: عمرو وحنظلة، ويصير أمرك إلى تباب، ويجئ سعد بعدد الحصى ويسيل عليك الرجال من ها هنا وها هنا!! ولئن فعلت لتكونن أشأم مولود في بني تميم: فلما رأى أنه لا يجيبه أخذه باللين وقال: اخرج يا بني وأنت مستور إني والله ما أراك تعرفني، ولو عرفتني لقد قنعت بقولي واطمأننت إلي، أنا عروة بن مرثد أبو الأعز المرثدي، وأنا خال القوم وجلدة ما بين أعينهم لا يعصونني بأمر وأنا لك بالذمة كفيل خفير، أصيرك بين شحمة أذني وعاتقي لا تضار، فاخرج فأنت في ذمتي، وإلا فإن

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٦، ص١٦٩.
(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٩.
(٣) عبد الله باقازي، ، **القصة في أدب الجاحظ**، مرجع سابق، ص١٣٣.
(٤) أي يا لئيم.

قوصرتين[١] إحداهما إلى ابن أختي البار الوصول، فخذ إحداهما فانتبذها حلالا من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.وكان الكلب إذا سمع الكلام أطرق، وإذا سكت وثب يريغ المخوج، فتهافت الأعرابي، أي تساقط ثم قال: يا ألأم الناس وأوضعهم، ألا يأن لك أنا منذ الليلة في واد وأنت في آخر إذا قلت السوداء والبيضاء تسكت وتطرق، فإن سكت عنك تريغ المخرج؟! والله لتخرجن بالعفو عنك أو لألجن عليك البيت بالعقوبة!"[٢]

فنلاحظ اختلافا في ألفاظ ذلك الحديث، وتباينا في وتيرته فحين كان يتهدد ويتوعد كانت قوية وجافة، ولكنها لانت حين أخذ يرغبه لعله يستسلم له، ثم عادت إلى قوتها وخشونتها حين عاد يتهدده ويتوعده من جديد.

ونلمس اختلافا كبيرا بين ألفاظ الحكايات التي تتناول موضوعا عاطفيا وبين التي تتناول موضوعا فكريا أو علميا – على سبيل المثال – فحكايات الحب والجنس تتسم ألفاظها بالرقة والسهولة والوضوح، وهي مكشوفة قد يصل بعضها إلى حد الفحش.[٣]

ودرأ عن نفسه الشبهة والتمس العذر لاستخدامه مثل هذه الألفاظ حيث أشار إلى أن الذي يبتعد عن مثلها عندما يطرق موضوعا عاطفيا أو جنسيا يكون وقاره متكلفا ولفظه متصنعا، ولا يعطي الدلالات الحقيقية، وقد دعم رأيه بقوله أن بعض الأئمة تسمح في ذكر مثل هذه الألفاظ، وساق شواهد عديدة من أقوالهم تدل على ذلك.[٤]

بينما اتسمت ألفاظ الحكايات العلمية والفكرية بالقوة والجزالة لأنها تخاطب العقل وتتصف بالجدة في العادة،[٥] على خلاف سابقاتها.

وكانت الألفاظ في الحكايات معبرة في دلالاتها وموحية في جرسها. فثمة حكاية تناولت ذلك الرجل المريض الذي ابتلي بشم ريح الكرياس، فهو يذهب إليه ويخرقه بآلة حادة، "ويضع منخره عليه، حتى يقضي وطره".[٦] فلو نقبنا عن عبارة لوصف حال ذلك الرجل، وشدة شهوته الغريبة تلك، لما وجدنا أنسب من تلك العبارة (حتى يقضي وطره).

ووصفت أخرى القاضي عبد الله الذي كان جامدا، وزمتا، وساكنا لا يتحرك أمام الناس

---

(١) القوصرة: وعاء من قصب يجعل فيه التمر .
(٢) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٢،ص٢٣٢-٢٣٣.
(٣) المصدر السابق، ج ١، ص٣٧١. ج٣، ص٢١. مجموعة حكايات ج٦، ص٢٥٩ – ٢٦٤، ص٤٥٩. ج٧ ،ص٢٣٧.
(٤) المصدر السابق، ج٣، ص ٤٠-٤٢.
(٥) يراجع الموضوعات العلمية، والفكرية في الرسالة، ص١٢-٢١.
(٦) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٥، ص٤٦٨ – ٤٦٩.

"بالصخرة الصلبة، والبناء المبنى".[١] تعميقا للدلالة على حالته تلك.

وأما الجمل فجاءت في الحكايات على أضرب متنوعة ساهمت في إضفاء الحيوية على بنيتها السردية، فلوحظ وجود الجمل الاعتراضية وخاصة الوصفية منها في العديد من الحكايات، لتحمل القارئ إلى دلالات أخرى، فهي تعمل على بسط النص وتوضيحه للمتلقي.

وكان للجمل الدعائية حضور مكثف فيها: "اللهم اجعل لنا من هذا فرجا ومخرجا."[٢] "أستغفر الله".[٣] "عليه لعنة الله."[٤] "وعني يرحمك الله."[٥]

وبرزت كذلك جملة القسم لتؤكد الخبر حتى تزيد المتلقي طمأنينة به وثقة في مصدره، فحكاية عمر الضب التي أشارت إلى أنه قد يصل إلى ثلاثين عاما احتوت على أربع جمل من القسم لتؤكد ما ذهبت إليه. "ثم إني والله كررت راجعا إلى بلدي، والله لأعلمن اليوم علمه، فإذا والله أنا به محرنبئا، وفاتني والله الذي لا إله إلا هو".[٦]

وجاءت الجمل فيها متناسقة في تركيبها، ومنظومة في بنيتها فاتسمت بالقصر والتسلوي، حتى أنها تكاد تتعادل في مقاطعها.

ونلمس موسيقى ونغما في بعض الحكايات نتيجة استخدامها أسلوب السجع، والازدواج في الجمل. كما في الحكاية التالية" بينما أبو أيوب المورياني جالس في أمره ونهيه، إذ أتاه رسول أبي جعفر فانتقع لونه، وطارت عصافير رأسه، وأذن يوم بأسه، وذعر ذعرا نقض حبوته.[٧] واستطار فؤاده ثم عاد طلق الوجه فتعجبنا من حاله وقلنا له إنك لطيف الخاصة، قريب المنزلة، فلم ذهب بك الذعر واستفرغك الوجل...؟"[٨]

وكذلك أسلوب التكرار الذي يعمل على تأكيد المعنى في نفس المتلقي، ويحدث نغما في سمعه فقد لجأت بعض الحكايات إلى التكرار في الحروف، كما في حجة الشيخ الإباضي في كراهية الشيعة فحين سأله الجاحظ عن سبب كرهه للتشيع قال: "أنكرت منه مكان الشين في أول

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٣، ص٣٤٣.
(٢)المصدر ذاته،ص٣٠.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٤٥.
(٤) المصدر السابق، ج ٦،ص٤٨٩.
(٥) المصدر نفسه، ص ١٦٩.
(٦) المصدر نفسه، ص١١٩.
(٧) أصل الحبوة أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ،وكذلك كانوا يفعلونها في جلوسهم، ولا ينقضونها إلا لأمر هام.
(٨) المصدر السابق، ج ٢، ص٣٦٢.

الكلمة،لأني لم أجد الشين في أول كلمة قط إلا وهي مسخوطة."[١] فكرر حرف الشين في الحكاية سبعا وأربعين مرة ليؤكد كراهة ذلك الرجل.

ومنها ما لجأ إلى تكرار الألفاظ أيضا ففي حكاية النظام الذي كان ضعيف اليد حين حاصره الفقر كررت لفظة الطيرة ومشتقاتها ست مرار لتؤكد الحالة التي وصل إليها في حينه.[٢]

وكذلك في حديث أبي عمران وإسماعيل بن غزوان الذي ينبئ عن تكرار الأحداث معهما بفعل القدر، كررت مجموعة من الأفعال لتؤكد هذا الأمر وحدوثه في أذهاننا فقد تكرر فعل لزم مرتين، وانحرف اثنتين، وعاد ثماني مرات، وأهوى مرتين، ونحى أربع مرات.[٣]

لقد تفاوتت لغة الحكاية من حيث الألفاظ، إلا أنها صيغت بتراكيب تناسبت مع تلك الألفاظ أيا كان مستواها فقد تواءمت الألفاظ مع الجمل فأعطت معنا واضحا بصيغة لغوية مكثفة راعت الفوارق الموضوعية، والشخصية فيها.

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج ٣،ص٢٢.
(٢) المصدر ذاته، ص٤٥١.
(٣) انظر الرسالة ص ١١٨-١١٩، حيث ذكرت الحكاية هناك.

الخصائص العامة لأسلوبها:

١- لقد جاءت الحكايات في كتاب الحيوان بأسلوب مكثف بدا تأثيره على صيغتها اللغوية، وتركيبتها الفنية.

فلغتها تتسم بالإيحاء والاختصار الشديدين والوصول إلى الغاية بأقرب المسافات وأقل الكلمات، فتكاد تخلو من الاستطراد، والإغراق في الجزئيات، وحشو الكلام.

وهي تختزل الأحداث، وتبتعد عن التفاصيل، وتكتفي بالخطوط العريضة.

ولطالما جاءت الأحداث مكثفة فيها فالزمن مختصر ومجمل فيها كذلك، مما جعل حركة السرد سريعة تتناسب مع إيقاع تلك الأحداث، وتطورها من حيث الطول والقصر في ظل غياب التجميد المخل للعملية السردية.

وأثر أسلوبها المكثف على التصوير والشخصيات فيها، حيث جاءت غائمة لا تمتلك صورا متكاملة الأبعاد.

٢- لقد تأثر أسلوب الحكايات في كتاب الحيوان بالنزعة الكلامية، فلم تتكئ على البلاغة الشكلية إلا نادرا، بل اعتمدت على الحس المرهف، والفكر الراقي، والعبارة المتينة.

٣- لقد اتسم أسلوب الحكايات بالتشويق والإمتاع، فقد حملت الفكاهية منها نوادر وأخبارا مسلية ومشوقة كان لها الأثر البالغ في الترويح عن نفسية المتلقي. ونقلت الخرافية منها أخبارا غريبة، ومعلومات عجيبة شدت انتباه القراء. وبعضها جاء مطلعه متأزما ومثيرا يشد المرء إلى المضي معها حتى النهاية.

ثانيا- المثل

أ- بناؤه:

يتسم شكل المثل في كتاب الحيوان بالتماسك والاختصار والجمود النسبي، فالأغلبية الساحقة من الأمثال بسيطة البنية تتكون من جملة واحدة وخاصة تلك التي جاءت على صيغة أفعل التفضيل نحو:

"أجرأ من الليث، وأجبن من الصفرد، وأسخى من لافظة، وأحذر من عقعق".(١)

ومن الأمثال بسيطة البنية أيضا: "كل ضب عند مرداته،"(٢) و "إنما أنفه في أسلوب"،(٣) و"داهية الغبر".(٤)

والجدير بالذكر أن هذه البنية شكلت السواد الأعظم من الأمثال، حيث وصل عددها إلى ما يقرب من مئتين وعشرين مثلا، والذي أكسبها ذلك الإيجاز، وصيغة أفعل التفضيل التي نسجت ما يقرب من مئة وخمسين منها.

ومنها أمثال مركبة البنية تتكون من جملتين فأكثر. نحو: "العنز تبهي ولا تبني"،(٥) و"جسم البغال وأحلام العصافير".(٦)

وهناك أمثال قياسية وخرافية قد يصل طول بعضها إلى ثلاث جمل فأكثر فطبيعتها اللغوية وتركيبتها الفنية تستدعي ذلك فهي تعنى بالشرح والتوضيح.

فمن الأمثال القياسية: "كالكلب يربض في الآري فلا هو يأكل ولا يدع الدابة تعتلف"،(٧) و "إنما أنت نعامة، إذا قيل لها احملي قالت: أنا طائر، وإذا قيل لها طيري قالت أنا بعير".(٨)

ومن الأمثال الخرافية قول الجاحظ: "وفي المثل أن شيخا نصب للعصافير فخا، فارتبن به وبالفخ، وضربه بالبرد، فكلما مشى إلى الفخ وقد أنضم على عصفور فقبض عليه ودق جناحه

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص٢٢٠.
(٢) المصدر السابق، ج٦، ص ٤٣.
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص٣٠٦.
(٤) المصدر السابق، ج٤، ص١٤٥.
(٥) المصدر السابق، ج٥، ص٤٦٠.
(٦) المصدر نفسه، ص ٢٢٩.
(٧) المصدر السابق، ج١، ص٢٩١.
(٨) المصدر السابق، ج٤، ص٢٢٣.

وألقاه في وعائه، دمعت عينه مما كان يصك وجهه من برد الشمال قال: فتوامرت العصافير بأمره وقلن لا بأس عليكن فإنه شيخ صالح رحيم رقيق الدمعة، قال: فقال عصفور منها: لا تنظروا إلى دموع عينيه ولكن أنظروا إلى عمل يديه!"(١)

وأما مواقع الأمثال، فهي لا ترد في العادة إلا في سياق موضوع معين تبدو متناسبة ومتناسقة معه لأنها تزيد في شرحه وتوضيحه.

ونلمح كذلك تركزها بكثافة في أماكن محددة من هذا الكتاب، فقد أورد الجاحظ الأغلبية الساحقة منها بالجملة وقلما نعثر على مثل أوحد فيه، ولعل السبب في ذلك عائد إلى الهدف والدور الذي أراده الجاحظ من الأمثال في (الحيوان).(٢)

ومن أهم زوايا البناء في الأمثال الشخصيات والنماذج المثالية التي سندرسها في الصفحات القادمة إن شاء الله.

الشخصية:

استمدت الأمثال شخصياتها من فئات مختلفة اتخذتها نماذج تمثلت بصفاتها وطباعها وأجزائها، أو بنسبة الحيوان لها. ومن أهم تلك الفئات وأبرزها:

١- الحيوان:

فقد حققت الشخصية الحيوانية بحضورها رقما قياسيا في الأمثال العربية بشكل عام، وأمثال هذا الكتاب بشكل خاص. فقد شكل الحيوان منبعا غزيرا استقى الأعراب منه نماذج كانت مضربا للأمثال.

وثمة عوامل ساعدت على استئثار الذهنية العربية به، وتقديمه على الإنسان في أكثر الأمثال، ومن أهمها:

أ- إن مخالطتهم له ومعرفتهم الكثيرة عنه لفتت أنظارهم إليه فحاولوا التعلم منه، والاتعاظ به فجنوا من ذلك فوائد جمة، وخبرات متنوعة، وأمورا مختلفة كان لها الأثر في حياتهم وتمثلوا بها في أمثالهم، فذكروا الحسن منها ليحضوا عليه، وأوردوا القبيح فيها لينفروا منه.

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٥، ص ٢٣٨.

(٢) من الأماكن التي توجد فيها الأمثال مجتمعة في كتاب الحيوان على سبيل المثال لا الحصر: ج١، ص٢٢٠-٢٢١، تسعة وعشرون مثلا. ج٢، ص٢٥٥-٢٥٧، عشرة أمثال. ج٤،ص ١٣٤، خمسة أمثال. ج٥، ص٥٢٨-٥٢٩، عشرة أمثال. ج٧، ص١٠، تسعة وعشرون مثلا.

ب- لقد اجتمعت صفات الإنسان وطباعه في صنوف الحيوان، بل برزت بوضوح شديد فيه، فهي لا تقبل الخفاء والمواربة الأمر الذي جعل منها نموذجا ومضربا قابلا للمماثلة مع الإنسان.

يقول الجاحظ عن تسمية الإنسان بالعالم الصغير: "إنما سموه العالم الصغير سليل العالم الكبير، لما وجدوا فيه من جمع أشكال ما في العالم الكبير، ووجدنا له الحواس الخمس ووجدوا فيه المحسوسات الخمس، ووجدوه يأكل اللحم والحب، ويجمع بين ما تقتاته البهيمة والسبع، ووجدوا فيه صولة الجمل ووثوب الأسد، وغدر الذئب، وروغان الثعلب، وجبن الصفرد، وجمع الذرة، وصنعة السرفة وجود الديك، وإلف الكلب، واهتداء الحمام. وربما وجدوا فيه مما في البهائم والسباع خلقين أو ثلاثة، ولا يبلغ أن يكون جملا بأن يكون فيه اهتداؤه وغيرته، وصولته وحقده، وصبره على حمل الثقل، ولا يلزم شبه الذئب بقدر ما يتهيأ فيه من مثل غدره ومكره، واسترواحه وتوحشه، وشدة نكره، كما أن الرجل يصيب الرأي الغامض المرة والمرتين ولا يبلغ ذلك المقدار أن يقال له داهية وذو نكراء أو صاحب بزلاء، وكما يخطئ الرجل فيفحش خطاؤه في المرة والمرتين والثلاث، فلا يبلغ الأمر به أن يقال له غبي وأبله ومنقوص...."[١]

وفضلا عن ذلك فقدرته فاقت ملكة الإنسان وقوته في بعض الأحيان، فقد فطره الله على أفعال يعجز الإنسان عن القيام بها.[٢]

جـ- وفي تمثلهم بالحيوان وتجنبهم الإنسان إيغال بالرمز، ودفع للحرج، إذ يتسنى لهم نسج الأمثال بأريحية مطلقة دون خوف أو وجل أو عتاب أو تكلف.

ويمكن حصر الحيوانات التي ورد ذكرها في أمثال هذا الكتاب وفق الجدول التالي:

اسم الحيوان	عدد الأمثال التي ورد فيها
الحيوانات الأليفة	
الكلب، لعوة.	٢٠
العير، الجحش، الحمار، الفراء.	١٢
الفرس.	٣
الإبل، النافجة، لقوة، قبيص.	٣
العنز، الماعز، التيس، النقد، النوق.	٩

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص ٢٠٢-٢٠٣.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٥-٣٦.

النعجة، الكبش.	٢
الهرة.	١
المجموع:	٥٠

الحيوانات البرية	
النعام، الظليم، الهيق.(ق)	٦
الغزال.	١
الأروى.	١
القنفذ، الدلدل.	٣
القرد، رباح، قشة.	٣
الجرذ، الزبابة	٢
المجموع:	١٦

الحيوانات المفترسة	
الليث، الأسد.	٥
الذئب، جهيزة، السمع.	٩
الثعلب.	٣
المجموع:	١٧

الحشرات	
الذرة.	٤
الذباب.	٢
النملة.	٢
الفراشة.	٣
الجراد	٣
القــراد، البرام، حــلمة	٤
الظربان.	٣
السرفة.	١
الخنفساء، فالية الأفاعي، فاسية.	٣
العقرب.	٢
المجموع:	٢٧

الزواحف	
الحية، الأفعى.	١٠
الضب.	١١
الورل.	١
المجموع:	٢٢
الطيور	
الغراب.	١٢
العصفور.	٣
الحمام، فاختة.	٤
الدجاج، الديك.	٢
العقاب، فرخ العقاب.	٤
الهدهد.	١
القطا.	٥
الصفرد.	٢
الرخمة، الأنوق.	٢
العندليب.	١
الكركي.	١
ابن تمرة.	١
الحبارى	٥
الحجل.	١
العقعق.	٢
المجموع:	٤٦

ونستخلص من الإحصائية السابقة عدة ملاحظات أهمها:

أ- بلغ عدد الحيوانات التي وردت في الأمثال أربعة وأربعين حيوانا وفي مقدمتها الطيور، حيث وصل عددها إلى خمسة عشر طيرا، ثم يليها الحشرات حيث بلغت عشرا، ثم الحيوانات الأليفة التي كانت سبعة، وأما البرية فستة، وجاءت الأمثال بثلاثة حيوانات من الزواحف، ومثلها من المفترسة.

ب- أما من حيث عدد الأمثال التي ضربت بها كل فئة من تلك الحيوانات فقد احتلت

الأليفة منها مكان الصدارة، ثم تبعها الطيور، فالحشرات، فالزواحف، وكان آخرها البرية والمفترسة.

وهذا الترتيب يدل على أن عدد الأمثال المضروبة بالحيوانات القريبة من الإنسان زاد على ما نسبته ٥٥% من مجموع الأمثال المتصلة بالحيوان. فقربها يتيح له التعرف عليها وتلمس صفاتها وطباعها بخلاف الحيوانات البرية والمفترسة فهو منقطع عنها لأنه يخشاها ويحذرها مما جعل نصيبها قليلا في الأمثال بشكل عام وأمثال هذا الكتاب بشكل خاص.

ونجد في بعض الأمثال اشتراك عدد من الحيوانات ببعض الطباع والصفات.

ففي الضلال قالوا: "أضل من حمار أهلي، وأضل من ورل، وأضل من ضب، وأضل من الحية".(١)

وقد قيل في الظلم: "أظلم من صبي"،(٢)ويقولون: "أظلم من ورل كما يقولون: أظلم من حية، وكما يقولون،: أظلم من ذئب". (٣)

وقالت العرب في الشم: "أشم من نعامة، وأشم من ذرة، وأشم من هيق"،(٤) و "أشم من كلب".(٥)

وفي حدة البصر قالوا: "أبصر من غراب، وأبصر من فرس، وأبصر من هدهد، وأبصر من عقاب".(٦)

وقد اجتمعت في الأمثال صفات متعددة للحيوان الواحد كالضب الذي قيل فيه إنه: "لأحيى من ضب"(٧)و "أخب من ضب"، و "أخدع من ضب، (٨)"وأروى من ضب"،(٩) و "أعق من الضب"،(١٠) و"أضل من ضب".(١١)

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص٢٢١.
(٢) المصدر السابق، ج٣، ص٤٧١.
(٣) المصدر السابق، ج٤، ص١٥٠.
(٤) المصدر السابق، ج٤، ص ٤٠٢.
(٥) المصدر السابق، ج٢، ص٣٥٢.
(٦) المصدر السابق، ج٧، ص١٦.
(٧) المصدر السابق، ج٦، ص٦٤.
(٨) المصدر السابق، ج٦، ص٤٣.
(٩) المصدر نفسه، ص١٢٨.
(١٠) المصدر السابق، ج١، ص ١٩٦.
(١١) المصدر نفسه، ص٢٢١.

وكذلك العقعق فقد قيل فيه: "أحذر من عقعق"، و"أحمق من عقعق".[١]

وقد قيل في الغراب: "أزهى من غراب"،[٢] و"أصح بدنا من غراب، وأصفى عينا من غراب، وأبصر من غراب"،[٣] ويقال: "إنه لأحذر من غراب،" و "أشد سوادا من غراب،"[٤] و"أغرب من غراب".[٥]

ولعل تعدد صفات الحيوان الواحد وطباعه في الأمثال يوحي بأن الأعراب كانوا عارفين بادق تفاصيله سواء كانت سلبية أو إيجابية ومحيطين بمظهره وباطنه.

٢- الإنسان:

استمدت الأمثال نماذج بشرية تميزت بصفات وطباع محمودة أو مذمومة، فقد عرف الحلم في معاوية والأحنف، وقيس بن عاصم فضربوا بهم الأمثال في ذلك فقالوا: "ما هو إلا في حلم معاوية، وأحلم من الأحنف، وأحلم من قيس بن عاصم".[٦]

واشتهر سحبان بن وائل بالفصاحة والبلاغة، وعلى خلافه عرف باقل بالعي والتلكؤ، فقيل فيهما: "أبين من سحبيان وائل، وأعيى من باقل".[٧]

وأما كليب وائل وعوف -وهما من ربيعة- فقد عرفا بالعز والمجد وعلو المنزلة، فقيل فيهما ما لم يقل بأحد من العرب وهو قولهم: "أعز من كليب وائل،" والآخر: "لا حر بوادي عوف".[٨]

وذكرت الأمثال أعلاما أضافت لهم حيوانات كانوا يمتلكونها اشتهرت بصفات وطباع مختلفة لفتت الأنظار.

فكان لسعيلة بن أعزل حمار عمر طويلا فدفع عليه بأهل الموسم أربعين عاما فكان مثالا للصبر.[٩] فضربوا به المثل حيث قالوا: "أصبر من عير أبي سيارة".[١٠]

وزعم بنو حمان أن تيسا كان لهم قفط سبعين عنزا، وفريت أوادجه، فتمثلوا به في

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٣، ص١٨٠.
(٢) المصدر السابق، ج١، ص٢٢٠.
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص٤٢١.
(٤) المصدر نفسه، ص٤٢٥.
(٥) المصدر نفسه، ص٤٥٩.
(٦) المصدر السابق، ج٢ص ، ٢٩.
(٧) المصدر السابق، ج١ ص ٩٣،
(٨) المصدر نفسه، ،ص٢٩١، ٣٢٠.
(٩) المصدر نفسه، ص ١٣٩
(١٠) المصدر السابق، ج٢ص ، ٢٥٧

الغلمة وشدة الشهوة فقالوا: "أغلم من تيس بني حمان".[١] واتخذت حومل –وهي امرأة يبدو أنها كانت وحيدة– كلبة للحراسة فكانت تربطها في الليل دون أن تطعمها وتفلتها في النهار لتلتمس رزقها، ولما طال بها ذلك أكلت ذنبها من شدة الجوع.[٢] فقيل فيها: "أجوع من كلبة حومل".[٣]

٣– النبات:

واستقى بعضها من النبات نماذج تمثل بها، بإضافة حيوان لها إما أن يكون ألف المكوث بجوارها، أو اعتاد على أكلها وقد أشتهر في ذلك، وبذا يزداد المثل وضوحا ودلالة على المعنى والمضرب، ومن تلك الأمثال[٤] قولهم: "ذئب الخمر".[٥] و"شيطان الحماطة"،[٦] و"أرنب الخلة،[٧] و" تيس الربل".[٨] وضب السحا".[٩]

وامتدح العرب المرخَ والعفار، وهما شجرتان تشتعلان بسرعة ودون عناء كباقي النباتات، ولهذا ضربوا بهما المثل للشيء المتفوق على غيره فقالوا: "في كل الشجر نار واستمجد المرخ والعفار".[١٠]

٤– البلدان والأماكن:

واستعانت بعض الأمثال في البلدان التي كانت متميزة واكتسبت شهرة عالية فأضيف إليها عدد من الحيوانات كمكة –على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم– فمن المعروف حرمة صيد حيواناتها فهي في حالة أمان دائم، لأنها لا تعادى ولا يهددها الخطر. ولذلك قيل: "آمن من حمام مكة، وآمن من غزلان مكة".[١١]

واستخدمت الأمثال مدنا بعيدة ذهب إليها بعضهم على سبيل الكناية كمرو، وسجستان، فقالوا: "حتى يرجع نشيط من مرو، وحتى يرجع مصقلة من سجستان".[١٢]

ومن الأماكن التي وردت في الأمثال جبل رضوى الذي قيل فيه: "ما قام رضوى في

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٥، ص ٥٠٢.
(٢) الميداني، **مجمع الأمثال**، مصدر سابق، ج١، ص١٨٦.
(٣) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١،ص٢٩١.
(٤) المصدر السابق، ج٦، ص ١٢٣.
(٥) الخمر بالتحريك ما واراك من شجر وغيره.
(٦) الحماطة بالفتح واحدة الحماط، وهو شجر التين الجبلي. والشيطان هنا: الحية.
(٧) الخلة بالضم ما فيها حلاوة من المرعى.
(٨) الربل: ضرب من الشجر إذا برد الزمان عليها وأدبر الصيف تقطرت بورق أخضر من غير مطر.
(٩) السحى بالفتح واحدة السحاء وهو شجرة شابكة وثمرتها بيضاء، وهذا النبت يأكله الضب.
(١٠) أستمجد: طلب المجد والشرف، الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٤، ص ٤٦٦.
(١١) المصدر السابق، ج٣، ص١٩٢.
(١٢) المصدر السابق، ج٢، ص٣١٨.

مكانه".[١]

٥- الطبيعة:

واستقت مجموعة من الأمثال نماذجها من الطبيعة كقولهم:" أمتع من النسيم".[٢] و"الشمس أرحم بنا،"[٣] و"ما بل البحر صوفة،"[٤] و"لا تتراءى نارها،"[٥] و"حتى يجمع بين النار والماء وحتى تقع السماء على الأرض،"[٦]و"هل يضير السحاب نباح الكلاب".[٧]

يتضح مما تقدم هيمنة النماذج الحيوانية على الأمثال، فقد زادت عن ٧٥% من مجموعها في كتابنا وهذا طبيعي فالحيوان مادته الرئيسية، ثم يليها الجمادات، فالإنسان.

وقد تناولت الأمثال أكثر من جانب لبعض الشخصيات الحيوانية، في حين اقتصرت على جانب واحد للإنسان.

---

(١) رضوى: جبل في المدينة، الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق ، ج٤،ص٤٧٠.
(٢) المصدر السابق، ج١، ص٢٣٢.
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص٣٦٥.
(٤) المصدر السابق، ج٤، ص٤٧٠.
(٥) المصدر السابق، ج٢، ص٢٥٢.
(٦) المصدر السابق، ج٥، ص٥٢٨.
(٧) المصدر السابق، ج١، ص١٣.

ب: أسلوبه

١- الصورة:

حفلت الأمثال العربية بشكل عام بصور بيانية رائعة أسهمت في إصابتها المعنى وجمالها في المبنى. ويمكن عد الأمثال بشكل عام من الاستعارة التمثيلية التي أساسها تشبيه حالة بحالة أو هيئة بأخرى، أي تشبيه المضرب بالمورد، وفيها يستعار التركيب بالكامل ليدل على معنى غير المعنى الحقيقي الذي قيل فيه "وهذه الاستعارة أقوى أساليب البيان، وأعلاها كعبا في البلاغة، لأنها تجسد المعاني المعقولة وتشخصها وتخرجها في صورة حسية تزخر بالحركة والألوان والحياة".(١)

وقد تنوعت الأساليب البيانية التي نسجت من خلالها الأمثال في هذا الكتاب.

فمنها ما جاء على أسلوب التشبيه كقولهم:" إنما هو عبد عين"،(٢)و" فلان ماعز من الرجال"،(٣)و"سواس كأسنان الحمار"،(٤) و" مات كمد الحبارى"(٥)و"أعدى من الثؤباء"،(٦) و"أدهى من الثعلب".(٧)

ومنها ما جاء بأسلوب الاستعارة المكنية كقولهم:" شرب الدهر عليهم وأكل"،(٨)و"إذا جاء القدر عمي البصر".(٩)

ومنها ما جاء على أسلوب الكناية نحو: "إنما انفه في أسلوب"،(١٠)و"جحيش وحده، وعبير وحده"(١١) و"بكل واد بنو سعد".(١٢)

وقد يجتمع أكثر من لون بلاغي في المثل الواحد فمن الممكن أن نجد تشبيها وكناية في مثل ما، أو استعارة وكناية في آخر، لأن التشبيه يختص باللفظ، والاستعارة تعنى باللفظ والتركيب، أما الكناية فهي تقتصر على المعنى.

---

(١) عبد المجيد قطامش، **الأمثال العربية القديمة**، مرجع سابق، ص٢٥٣.
(٢) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٣، ص٨٥.
(٣) المصدر السابق، ج٥، ص٤٧٩.
(٤) المصدر السابق، ج٦، ص١٠٧.
(٥) المصدر السابق، ج ٥، ص٤٤٥.
(٦) المصدر السابق، ج٢، ص١٤٠.
(٧) المصدر السابق، ج٦، ص٣١٣.
(٨) المصدر السابق، ج٥، ص٢٨.
(٩) المصدر السابق، ج٣، ص٥١٣.
(١٠) يضرب للمتكبر،المصدر ذاته، ص٣٠٦.
(١١) يقال للمنطوي على نفسه ولا يخالط الناس، المصدر السابق، ج٢، ص٢٥٧.
(١٢) المصدر السابق، ج١،ص٣٥٨.

فنجد مثلا في قولهم:" فلان حية الوادي"[١] تشبيها بليغا، ويمكن أن يفهم كذلك من هذا المثل بأنه كناية عن الدهاء.

ونلمس استعارة وكناية في المثل القائل "حتى يشيب الغراب"[٢] فقد أبقى المشبه وهو الغراب، وحذف المشبه به وهو الإنسان وأبقى شيئا من لوازمه وهو الشيب، فهو على سبيل الاستعارة المكنية. وربما نظرنا إلى هذا المثل من زاوية أخرى وهو كناية عن استحالة حدوث الشيء ونيل المراد.

وبعد استقراء الأمثال في"الحيوان" تبين أن الأغلبية العظمى منها جاءت على أسلوب التشبيه، ولعل الذي ساعد على بروزه فيها صيغة أفعل التفضيل التي شكلت ما يقرب من مئة وخمسين منها في هذا الكتاب ثم يليه أسلوب الكناية، فالاستعارة اللذان كانا أقل وجودا بكثير من سابقهما.

٢- اللغة:

وجاءت ألفاظ الأمثال سهلة مألوفة، وإن بدا بعضها غامضا شيئا ما، لأنها منتزعة من مفردات اللغة السائرة، وهي بعيدة عن الغرابة لدرجة أن بعضها جاء مكشوفا ليوائم المعنى بشكل تام، فأتسم تركيبه بفحش العبارة ومجون الكلمة كما في قولهم:

"أغلم من تيس بني حمان"،[٣] و"أفسى من الظربان".[٤] و"العير يضرط والمكواة في النار".[٥]

واستعانت بعض الأمثال بتآلف الألفاظ وجرسها في تصوير الأفكار وإيصال المعاني والدلالة عليها فبدت جميلة في التعبير قوية في التأثير.

فمنها ما يداعب أسماعنا بنسيم جرسه ورقة لفظه كقولهم: "ألذ من السلوى، وأمتع من النسيم"،[٦] و"ألطف من ذرة".[٧]

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٤، ص٢٣٤.
(٢) المصدر السابق، ج٥، ص٥٢٨.
(٣) المصدر ذاته، ص٥٠٢.
(٤) المصدر السابق، ج١، ص ٢٤٨
(٥) المصدر السابق، ج٢، ص٢٥٧، وانظر كذلك نفسه، ص ٢٥٦. ج٣، ص ٤٢.
(٦) المصدر السابق، ج١، ص٢٣٢.
(٧) المصدر السابق، ج٤، ص١٦.

فنلمس أن هذه الأمثال تحمل معانيا محببة إلى النفس تلـــوط بـــالقلب بســـهولة ويســـر، فألفاظها خفيفة رقيقة، وحروفها لينة تتناسب مع روح المعاني التي جاءت بها.

ومنها ما يحدث دبيبها دويا في آذاننا نحو قولهم: "ما هو إلا صل أصلال"،(١) و"صمـــت حصاة بدم".(٢) فمعانيهما منفرة تسأمها النفس السوية، فالأول يعني القوة في الدهاء، والثاني يعنـــي القوة في البطش وسفك الدماء. وكلاهما يطالعنا بعبارة قوية في جرسها، شديدة في وقعها علـــى السامع، فقد تكونت من ألفاظ قوية تتناسب مع قوة معناها وحدته.

وإذا تأملنا حروفها أيضا فمعظمها من الانفجارية التي زادت بقوة جرسها وشدة وقعـــها على المتلقي.

وأما الجمل في الأمثال فهي متناسقة ومتتالية تتسم بالقصر والطاقة الإيحائية العالية، فقـــد صيغت بأساليب لغوية تناسبت مع الخصائص العامة لأسلوب الأمثال، مما أضفى عليـــها قيمـــا جمالية كان لها الأثر البالغ في تركيبها.

ومن أبرز تلك الأساليب صيغة أفعل التفضيل التي شكلت ما يقارب من مئـــة وخمســـين مثلا في الكتاب، ومنها:

"أحذر من عقعق، وأزهى من غراب، وأصنع من سرفة، وأظلم من حية، وأغـــدر مـــن الذئب، وأشد عداوة من عقرب، وأروغ من ثعلب، وأحمق من حباري، وأهدى من قطاة".(٣)

وإلى جانب ذلك المبتدأ والخبر نحو: "اليوم ظلم"،(٤) و"حرة تحت قرة".(٥)

ومنها أسلوب الشرط، مثل قولهم: "من ارتاد لسره فقد أشاعه"،(٦) و"من استودع الذئـــب ظلم"،(٧) و"إذا جاء الحين غطى العين".(٨)

ومنها كذلك أسلوب الأمر، "قال رسول الله صلى الله عليـــه وســـلم لبعضـــهم: اعقلـــها وتوكل"،(٩) وقولهم: "خل درج الضب".(١٠)

---

(١) الجاحظ ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٤ ، ص ٢٣٤.
(٢) المصدر السابق، ص٣٩٢.
(٣) المصدر السابق، ج١، ص٢٢٠.
(٤) المصدر السابق، ص٣٣١.
(٥) المصدر السابق، ج٥، ص١٠٦. ويمكن عد الأمثال التي جاءت على صيغة أفعل التفضيل في سياق هذا الأسلوب.
(٦) المصدر السابق، نفسه، ص١٨١.
(٧) المصدر السابق، ج٤، ص١٥٠.
(٨) المصدر السابق، ج٣، ص٥١٣.
(٩) المصدر السابق، ج٢، ص١١٥.
(١٠) المصدر السابق، ج٦، ص١٣٦.

وكذلك أسلوب النفي، نحو قولهم: "لا ينتطح فيها عنزان"،[١] "وما قام رضوى في مكانه"،[٢] "ولا تلد الحية إلا الحية".[٣]

ومنها أيضا أسلوب التوكيد كقولهم: "ما هو إلا غراب نوح،[٤] و"إن الجماح يمنع الأذى"،[٥] و"إنما هو عبد عين".[٦]

واستخدمت بعض الأمثال أسلوب الحوار كقولهم: "إنما أنت نعامة إذا قيل لها احملي، قالت: أنا طائر، وإذا قيل لها طيري، قالت: أنا بعير".[٧]

وغلبت الجمل الاسمية على أمثال كتابنا بشكل كبير جدا بالمقارنة مع الجمل الفعلية، فقد تصدرت ما يقرب من ٧٥% من مجموعها.

ولعل السبب في ذلك اهتمام الأمثال الكبير بالشخصيات والصفات في المقام الأول، فهي في الغالب تبنى عليها.

ورافقت العديد من الأمثال أنغام موسيقية وإيقاعات صوتية تضافرت على إيجادها مجموعة من العوامل وفي مقدمتها التساوي في الجمل والمعاني فقد اتسم العديد من الأمثال بتعادل المقاطع والفقرات وحسن التقسيم الذي بدت من خلاله كأنها شطر من بيت منظوم مما يكسبها إيقاعا موسيقيا يلامس آذان السامع، وقد تجلى ذلك بوضوح في الأمثال التي تتكون من جملتين فأكثر، نحو:

"خالف تذكر،[٨]و"تمرد مارد، وعز الأبلق"،[٩] و"بغضاء السوق موصولة بالملوك".[١٠]

وللسجع أهمية كبرى في صياغة الأمثال لما يحدث من نغم موسيقي وائتلاف صوتي بين الكلمات فيها فتبدو بصورة بلاغية مؤثرة.

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص٣٣٥.
(٢) المصدر السابق، ج٤، ص٤٧٠.
(٣) المصدر السابق، ج٥، ص٤٦٩.
(٤) المصدر السابق، ج٢، ص٣٢١.
(٥) المصدر السابق، ج٣، ص٩٩.
(٦) المصدر نفسه، ص ٨٥.
(٧) المصدر السابق، ج٤، ص ٣٢٣.
(٨) المصدر سابق، ج٢، ص١٠٠.
(٩) المصدر السابق، ج١، ص ٧٢.
(١٠) المصدر السابق، ج٧، ص ٩٦.

ومن الأمثال المسجوعة في "الحيوان":

"إذا جاء القدر، عمي البصر"،[١] و"صاحبي تئق، وأنا مئق"،[٢] و"العنوق بعد النوق".[٣]

واستعان بعضها بأسلوب التكرار الذي يحدث نغما موسيقيا، ويقرب المعنى من ذهن المتلقي ويؤكده.

فمنها ما لجأ إلى التكرار في الألفاظ ليؤكد المعنى الذي ذهب إليه عن طريق الاشتقاق ومن ذلك:

"ضربناهم ضرب غرائب الإبل"،[٤] و"ضبح ضبحة الثعلب وقبع قبعة القنفذ".[٥]

وقد كرر بعضها اللفظ في الإفراد والجمع نحو:

"ما هو إلا نعجة من النعاج"،[٦] و"إنما فلان كبش من الكباش". و"إنما هو تيس من التيوس".[٧]

وأما المعاني في الأمثال فقد تفاوتت من حيث الغموض والوضوح من واحد لآخر فمنها ما يسهل فهمه لمجرد سماعه، وذلك لشفافية كنايته ووضوح مقصده.

ومن أبرزها الأمثال التي جاءت على صيغة أفعل التفضيل، فمعانيها مشعة وجلية، كقولهم: "أسمع من فرس"، و"أكسب من ذئب" و" أسرع من سمع"، و"أكذب من فاختة".[٨]

ومن الأمثال الواضحة كذلك: "فلان ماعز من الرجال"،[٩] و"القرد قبيح لكنه مليح".[١٠]

ومنها ما جاء مبهما يكتنفه بعض الغموض، فيصعب فهمه، ويعسر هضمه دون الاستعانة بالمعاجم اللغوية والمؤلفات التي تشرح الأمثال. ولعل إحساس الجاحظ بذلك هو الذي دفعه إلى تفسير وشرح بعضها ليقربها من ذهن القارئ. ومن تلك الأمثال:

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٣، ص٥١٣.
(٢) المصدر السابق، ج١، ص ٢٨٧.
(٣) المصدر السابق، ج٥، ص ٤٦٢.
(٤) المصدر السابق، ج٤، ص ٤١٧.
(٥) المصدر السابق، ج٧، ص ٥٩
(٦) المصدر السابق، ج٥، ص٤٧٩.
(٧) المصدر نفسه، ص٤٥٦-٤٥٧.
(٨) المصدر السابق، ج٧، ص١٠.
(٩) المصدر السابق، ج٥، ص٤٧٩.
(١٠) المصدر السابق، ج٤، ص٩٩.

"أحرص من لـــعوة، وهي الكلبة وجمعها لعاء".(١) وقولهم: "رماه الله بأفعى حارية، وهـي التي تحرى، وكلما كبرت في السن صغرت في الجسم".(٢)

"ويقال في المثل للذي يعطي عطية لا يعود في مثلها: كانت بيضة الديـــك، فـــإن كـــان معروفا له قيل: بيضة العقر".(٣)

وعلل بعض الأمثال ليزيد توضيحها للقارئ ومن ذلك:

"يقولون أحمق من نعامة، كما يقولون: أشرد من نعامة. قالوا ذلك لأنها تـــدع الحضـــن على بيضها ساعة الحاجة إلى الطعم، فإن هي في خروجها ذلك رأت بيض أخرى قـــد خرجـــت للطعم، حضنت بيضها ونسيت بيض نفسها، ولعل تلك أن تصاد فلا ترجع إلى بيضـــها بـــالعراء حتى تهلك".(٤)

"وفي المثل: ما يجمع بين الأروى والنعام، لأن الأروى تسكن في الجبـــال ولا تســـهل، والنعامة تسكن السهل ولا ترقى في الجبال".(٥)

"وتقول العرب: أروى من ضب، لأن الضب عندهم لا يحتاج إلى شرب الماء، وإذا هـوم اكتفى ببرد النسيم، وعند ذلك تغني رطوبته فلا يبقى فيه شيء من الدم، ولا مما يشبه الدم".(٦)

ونلمس من الأمثال السابقة، أن الأعراب لم ينطقوا بمثل واحد إلا وكانوا حريصين علـــى صحة المعنى فيه.

ومهما تباعدت المسافة بين الأمثال ومواردها، تبقى سهلة الفهم وإن اعترى بعضها شيء من الغموض.

وتعددت الروايات لبعض الأمثال فطرأ عليها تغير بصور عدة.

فمنها ما حلت فيه كلمة مكان أخرى تؤدي معناها كقولهم: "على أهلها دلت براقـــش"،(٧) وفي رواية أخرى: "على أهلها جنت براقش".(٨)

---

(١) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج١، ص٢٧١.
(٢) المصدر السابق، ج٤، ص٢٤٤.
(٣) المصدر السابق، ج٢، ص٣٤٣.
(٤) المصدر السابق، ج١، ص١٩٨ - ١٩٩.
(٥) المصدر السابق، ج٤، ص٣٥٢.
(٦) المصدر السابق، ج٦، ص١٢٨ - ١٢٩.
(٧) المصدر السابق، ج١، ص٢٦٠.
(٨) المصدر السابق، ج٢، ص٢١.

وقولهم: "لا يضير السحاب نباح الكلاب"،[١] وفي رواية أخرى: هل يضير السحاب نباح الكلاب".[٢] وقولهم: "أصرد من حية"، وفي أخرى: "أعرى من حية".[٣]

وأبدلت كلمة بأخرى بسبب تقارب مخارج حروفها، كقولهم: "حتى يجيء نشيط من طبرستان"،[٤] وفي رواية أخرى: "حتى يجيء نشيط من سجستان".[٥]

وقد طرأ على صيغ بعضها تقديم وتأخير نحو: "يضرب ما بين الكركري إلى العندليب"،[٦] وفي رواية أخرى: "يضرب ما بين العندليب إلى الكركري".[٧] وأصاب بعضها زيادة في اللفظ كقوله: "هذا فصده"،[٨] وجاء في أخرى: "هذا فصدي إنه".[٩]

وكذلك: "ماله سبد ولا لبد"،[١٠] وذكر في أخرى: "ماله عندي سبد ولا لبد".[١١]

وجرى على بعضها تغيير في بنية الكلمة كما في المثلين التاليين: "أجبن من الصفرد"،[١٢] وفي أخرى: "أجبن من صفرد".[١٣] وكذلك قولهم: "أضل من الضب"،[١٤] وفي أخرى: "أضل من ضب".[١٥]

فقد ذكر هذين الحيوانين معرفين في رواية، ومنكرين في أخرى.

وبعد فلغة الأمثال سهلة سلسة، فهي لغة الشعب تؤخذ من كافة طبقات المجتمع، وتجري في لغة التخاطب اليومي بعيدا عن التعقيد، وهي لغة معبرة وموحية ومكثفة، فقد صيغت بألفاظ مشعة خفيفة، وانتظمت بعبارات قصيرة مقتضبة بلغت الوصول.

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص١٣.
(٢) المصدر نفسه، ص٧٣.
(٣) المصدر السابق، ج٦، ص٥٥.
(٤) المصدر السابق، ج٢، ص٣١٨.
(٥) المصدر السابق، ج٥، ص٥٢٨.
(٦) المصدر ذاته، ص١٥٠.
(٧) المصدر السابق، ج٦، ص٤٠٩.
(٨) المصدر السابق، ج٤، ص٢٧٣.
(٩) المصدر السابق، ج٥، ص٣٣.
(١٠) المصدر ذاته، ص٤٧٩.
(١١) المصدر نفسه، ص٥٢٢.
(١٢) المصدر السابق، ج١، ص٢٢٠.
(١٣) المصدر السابق، ج٧، ص١٠.
(١٤) المصدر السابق، ج١، ص١٩٦.
(١٥) المصدر ذاته ، ص١٩٧.

الخصائص العامة لأسلوبه:

وبعد استقراء تعريفات بعض العلماء للأمثال يمكن استلهام مجموعة من ملامحها الأسلوبية التي من أهمها:

١- الإيجاز:

تميل الأمثال في العادة إلى الإيجاز والاختصار، فهي تعنى بزبدة الأفكار، وملاك الأمور، وتلمح عن ذلك بومضة سريعة خاطفة.

فالكثير منها يستند إلى قصص، أو أحداث، أو تجارب اختزلها بعبارة مقتضبة ودالة قد لا تتجاوز الكلمتين أو الأربع. وعلى الرغم من ذلك فهي تحمل معانيا جمة، وأفكارا نيرة، وأصولا متفرقة تصلح أن تكون نبراسا في الحياة.

وجاء الإيجاز في الأمثال على صورتين: فمنها ما تعادل لفظه مع معناه، فلا يزيد عنه ولا ينقص.(١) وقد ظهرت هذه الصورة في معظم الأمثال وخاصة تلك التي ترتبط بقصة أو حادثة ما.

فقولهم: "شرابون بأنقع"،(٢) ورد في رواية أخرى "شراب بأنقع"، وهو المعاود للأمور مرة بعد أخرى، وأصله الحذر من الطير لا يرد المشارع، لكنه يأتي المناقع يشرب منها، فكذلك الرجل الكيس الحذر لا يقتحم الأمور".(٣)

وكذلك قولهم: "كل مجر في الخلاء يسر"(٤) وأصله "أن رجلا كان له فرس يقال له (الأبيلق) وكان يجريه فرادا ليس معه أحد، وجعل كلما مر به طائر أجراه تحته، أو رأى إعصارا أجراه تحته، فأعجبه ما رأى من سرعته فقال: لو راهنت عليه، فنادى قوما فقال: إنني أردت أن أراهن عن فرسي هذا، فأيكم يرسل معه؟ فقال لبعض القوم: إن الحلبة غدا، فقال: إنني لا أرسله إلا في خطار، فراهن عنه، فلما كان الغد أرسله فسبق، فعند ذلك قال: كل مجر في الخلاء يسر".(٥)

وقولهم: "خالف تذكر، فأصله ما قالوا: ولسقوط الخامل من عيون الناس قالت الإعرابية

---

(١) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، (ت: ٤٥٦هـ، ١٠٦٤م) **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، ط٣، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٦٤، ج١، ص٢٥٠ .
(٢) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص١٤٨.
(٣) الميداني، **مجمع الأمثال**، مصدر سابق، ج١، ص٣٦٠.
(٤) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص ٨٨.
(٥) الميداني، **مجمع الأمثال**، مصدر سابق، ج٢، ص ١٣٥.

لابنها: إذا جلست مع الناس، فإن أحسنت أن تقول كما يقولون فقل، وإلا فخالف تذكر".[١]

وأما الصورة الثانية للإيجاز في الأمثال فهي الحذف في مواضع يستغنى عنها دون إخلال بالمعنى، وهو ما يسمى بالاكتفاء.[٢]

وقد برزت هذه الصورة بكثرة في الأمثال التي نسجت على صيغة أفعل التفضيل. فقد تكرر فيها حذف المشبه لفظا، مع أنه قائم في الذهن نحو قولهم: "أسأل من فلحس"،[٣] و"أصرد من جرادة"،[٤] و"أصدق من قطاة، وأهدى من قطاة".[٥]

فالتقدير فلان أسأل من فلحس، وفلان أصرد من جرادة، وفلان أصدق من قطاة، وأهدى من قطاة.

ومن الأمثال ما حذف فيه المضاف لتحققه في الذهن، كقولهم: "داهية الغبر"،[٦] و"أرنب الخلة، وتيس الربل، وذئب الخمر".[٧]

فالتقدير أن تتصدر مثل هذه الأمثال صيغة تضم المشبه المحذوف لفظا، الموجود ذهنا. كأن يقال: ما هو إلا داهية الغبر، وما هو إلا أرنب الخلة، أو فلان تيس الربل، وذئب الخمر.

فنلاحظ أن هذه الأمثال عبرت عن معانٍ متعددة ومضارب متنوعة بألفاظ قليلة طوت في ثناياها كماً هائلاً من الأحداث والوقائع والمعلومات التي يحتاج شرحها إلى عبارات مطولة، وتفصيلها إلى كتابات موسعة.

٢- إصابة المعنى:

لم تأت الأمثال من فراغ، ولم تكن وليدة عمل إبداعي محض، بل تشكلت من مستخرجات التأمل والملاحظة، وثمار التجارب والخبرات العريقة في مناح الحياة المختلفة. فلهذا هي دائما تصيب كبد المعاني التي تقبل التجدد والتكرار على المدى.

فلو أمعنا النظر في أقوالهم: "لكل مقام مقال، ولكل زمان رجال، ولكل ساقطة لاقطة،

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٢، ص١٠٠.
(٢) ابن رشيق القيرواني، **العمدة**، مصدر سابق، ج١، ص ٢٥٠.
(٣) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص ٢٥٧.
(٤) المصدر ذاته، ج٥، ص٥٥٢.
(٥) المصدر نفسه ، ص ٥٧٣.
(٦) المصدر السابق، ج٤ص ،٥٤١.
(٧) المصدر نفسه، ص٤٣١.

ولكل طعام أكله".[١] و"سمن كلبك يأكلك"،[٢] و"من استرعى الذئب ظلم"،[٣] و "كل طائر يصيد على قدره"،[٤] لوجدناها تقدح بمعان صحيحة نابعة عن نظرة عميقة، أو تجربة وخبرة.

٣- حسن التشبيه:

يعد التشبيه بمفهومه العام من الملامح الأسلوبية البارزة والهامة في أسلوب الأمثال، فهي برمتها تشبيه المضرب بالمورود، وهذا ما اصطلح على تسميته البلاغيون بالتشبيه التمثيلي، وهو أرفع أساليب البيان وأرقاها. (فهو يكسو المعنى أبهة، ويكسبه منفعة ويرفع قدره، ويضاعف قواه في تحريك النفوس له).[٥]

كيف لا (وهو يخرج المتلقي من خفي إلى جلي، ويأتيه بصريح بعد مكنا، وينقله من العقل إلى الإحساس، وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع....).[٦]

والتشبيه بشكل عام يزيد المعنى وضوحا ويؤكده في ذهن المتلقي "فهو يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين، حتى يختصر ما بين المشرق والمغرب، ويجمع ما بين المشئم والمعرق، وهو يريك للمعاني الممثلة بالأوهام شبها في الأشخاص الماثلة، والأشباح القائمة، ينطق لك الأخرس، ويعطيك البيان من الأعجم، ويريك الحياة في الجماد ويريك التئام عين الأضداد، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين، والماء والنار مجتمعين".[٧]

ومن المناسب هنا عرض عدد من الأمثال وتحليلها لبيان حسن التشبيه وبلاغته فيها.

فقولهم : "حتى تقع السماء على الأرض".[٨] المشبه في هذا المثل هو الأمور التي لا يكتب لها الحدوث أو التمام. والمشبه به حالة المثل الأصلية وهي وقوع السماء على الأرض، وهذا أمر محال لا يمكن وقوعه بأي شكل من الأشكال.

والمثل: "أشد عداوة من عقرب"[٩] يقال للرجل المعتدي والشرير، وهو المشبه، وأما المشبه به فهو العقرب الذي يتسم بسلوك عدواني عجيب، لذلك قيل في المثل العامي: (عند

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص٢٠١.
(٢) المصدر نفسه، ص١٩١.
(٣) المصدر السابق، ج٤، ص١٥٠.
(٤) المصدر ذاته، ج٦، ص٤٠٩.
(٥) أبو بكر عبد القاهر بن العبدالرحمن الجرجاني، (ت: ١٠٨٨/٤٧١م)، **أسرار البلاغة**، تحقيق محمد رشيد رضا، ط٦، مكتبة القاهرة، مصر، ١٩٥٩، ص٨٤.
(٦) المصدر ذاته، ص٩٤.
(٧) المصدر ذاته، ص١٠٣.
(٨) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٥، ص٥٢٨.
(٩) المصدر السابق، ج١، ص٢٢٠.

العقرب لا تقرب، وعند الحية أفرش ونام).

والمثل "حرة تحت قرة"[١]يضرب للرجل المنافق، الذي يظهر خلاف ما يبطن، وهو في حالة من التناقض الدائم، وهي المشبه. أما المشبه به فهي حالته الأصلية التي أبان عنها الجاحظ بقوله: "وإذا ذكرت العرب برد الماء، وسخونة الجوف، قالت: حرة تحت قرة".[٢]

٤- جودة الكناية:

لم تصرح أكثر الأمثال عن مرادها، فهي تعبر عن معانيها بألفاظ مغايرة لها، يستدل بها عليها بإشارة خفية تقود إلى ذلك.

فالكناية هي: (أن تتكلم بشيء وتريد غيره).[٣] ومن المفيد هنا ذكر عدد من الأمثال وتحليلها لنتلمس مدى إجادتها في التكنية عن مضاربها.

"كل الصيد في جوف الفرا".[٤]

يضرب هذا المثل للرجل الذي يتفوق على أقرانه بالفهم والعلم، أو القدر، أو القدرة. (وقد تمثل به الرسول صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان، فحين أخر السماح له بالدخول عليه وبدى عنه الناس، قال له: كل الصيد في جوف الفرا، ليؤلف قلبه).[٥] فقد أخفى هذا المعنى وراء ألفاظ المثل الأصلية، وكنى عنه بتفوق الحمار الوحشي على صغار الحيوان في جمع الطعام والصيد.

وأما قولهم: "العنز تبهي ولا تبني، لأنها تصعد على ظهور الأخبية وتقطعها بأظلافها".[٦] يعرض من خلال هذا المثل بالخريب الذي اعتاد إفساد الأمور ولا يصلحها أبدا، فقد أصبح الدمار جزء من كيانه تماما كالعنز.

٥- الذيوع والسيرورة:

لقد تفاوتت الأمثال من حيث الشهرة والرواج، فمنها ما طبق الآفاق ودار على ألسنة الناس على مر الزمان في بلاد مختلفة.

ومنها ما كان أقل حظا فقد انحصر في بلد ما، أو عصر دون غيره. ولربما كان لاختلاف البيئات والمجتمعات، وتطور الزمان، والموضوعات التي تناولتها، وصياغتها وخفة ألفاظها الأثر البالغ في ذلك.

وإذا استعرضنا الأمثال في الحيوان نجد أن كثيرا منها أقل نجمه من سماء هذا العصر

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٥ ، ص١٠٦.
(٢) المصدر ذاته.
(٣) ابن منظور، **اللسان**، مصدر سابق، مادة كنى.
(٤) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٥٦.
(٥) الميداني، **مجمع الأمثال**، مصدر سابق، ج٢،ص١٣٦.
(٦) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٥، ص٤٦٠.

وخاصة تلك التي تتصل ببعض الحيوانات، فلم تعد مستعملة بين الناس نحو قولهم: "رماه الله بأفعى حارية"،[١] و"أغنى من التفة عن الرفة"،[٢] و"لهو أهون علي من الأعراب على عركوك"،[٣] و"يضرب ما بين الكركي إلى العندليب".[٤]

إلا أن بعضها لم يزل معمرا في أفواه الناس يستخدمونه في أحاديثهم، وتلهج به ألسنتهم، نحو قولهم: "كمثل الحمار يحمل أسفارا،[٥] و "لا يلسع المؤمن من جحر مرتين"،[٦] و "إياك أعني واسمعي يا جارة"،[٧] و "لا تلد الحية إلا الحية".[٨]

ونبه الجاحظ إلى عدد من الأمثال السائرة بين الناس في كتابنا فقال: "والناس يقولون "آمن من حمام مكة، ومن غزلان مكة، وهذا شائع على جميع الألسنة لا يرد ذلك أحد ممن يعرف الأمثال والشواهد".[٩] "والمثل السائر: إنما فلان كبش من الكباش، وإذا هجوه قالوا: إنما هو تيس من التيوس... وإذا أرادوا الغاية في الغباوة قالوا: ما هو إلا تيس في سفينة".[١٠]

٦- سهولة الحفظ:

الأمثال من النصوص التي تعلق بالذاكرة بسهولة ويسر فقد اجتمع لها خصائص فنية ساعدت على ذلك كالإيجاز الشديد، وكثرة السجع، والتساوي بين الجمل.

تلك أهم الخصائص التي اتسم بها أسلوب المثل، وقد وصل بها إلى قمة البلاغة، وذروة البيان، وأجمع على ذلك عدد من العلماء، فالنظام يرى ما اجتمع له من خصائص نهاية البلاغة.[١١]

وعده الفارابي من أبلغ الحكمة "لأن الناس يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة، أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النفاسة".[١٢]

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٤، ص٢٤٤.
(٢) المصدر السابق، ج٦، ص٣٥٢
(٣) المصدر ذاته، ج١، ص٣٢٣.
(٤) المصدر السابق، ج٥، ص١٥٠.
(٥) المصدر السابق، ج٢، ص٢٥٥.
(٦) المصدر ذاته، ج١، ص٣٣٥.
(٧) المصدر السابق، ج٣، ص١٢٢.
(٨) المصدر السابق، ج٥، ص٤٦٩.
(٩) المصدر السابق، ج٣، ص١٩٢.
(١٠)المصدر السابق، ج٥، ص٤٥٦-٤٥٧.
(١١) الميداني، **مجمع الأمثال**، مصدر سابق، ج١، ص٦.
(١٢) السيوطي، **المزهر**، مصدر سابق، ج١، ص ٤٨٦.

ثالثا: المناظرة

أ- بناؤها:

يبدو التضخم على بناء المناظرة في كتاب الحيوان فهي تميل إلى التوسع والإطالة من حيث الحجم الذي تفاوتت فيه من مناظرة لأخرى تبعاً لاهتمام الجاحظ بالحيوانات التي تناولها فيها، فهي تقع في إطار الشكل الموسع، والحجم المطول، ولهذا فقد شغلت بمجموعها مساحة واسعة من هذا الكتاب فقد احتلت مناظرة الكلب والديك زهاء المجلد والنصف، في حين استغرقت كل من مناظرة الحمام، والفيل ثمانين صفحة، وامتدت مناظرة الضأن والماعز إلى خمس وثلاثين صفحة،، وأما مناظرة السنور فوقعت في ثلاثين صفحة، وجاءت مناظرة الغراب في خمس وعشرين صفحة.(١)

ولعل الذي أسهم في امتدادها إلى هذا الحد الأسلوب المرسل الذي صيغت به وخاصة الأدلة والبراهين التي شكلت نسبة كبيرةً فيها اختلفت من مناظرةٍ لأخرى فتراوحت بين ٥٠ و٧٠% من حجمها.

وتتخذ المناظرات الشكل الانسيابي الحاد لتماسها الشديد مع المتن المعرفي الذي أحاط بها من الخارج وتغلغل فيها من الداخل فشكلا معاً مادةً معرفية كبيرة تمتد إلى عدة أبواب، وتستغرق عشرات بل مئات الصفحات في بعض الأحيان الأمر الذي جعلها عصية على التحديد، حيث يواجه القارئ صعوبة بالغة في رسم حدودها. فمثلاً مناظرة الحمام تقع في أربعة أبواب على امتداد مائة وأربع وخمسين صفحة(٢)جمعت أشتاتها في ثمانين صفحة. وجاءت مناظرة الضأن والماعز في بابين على تسع وستين صفحة(٣)هذبتها في خمس وثلاثين صفحة.

وتراوح بناء المناظرات بين التماسك والتفكك، فإذا مضينا مع واحدة منها نرى تلاصق أجزائها في مواقع وتباعدها في أخرى لمسافات قد تطول لعشرات الصفحات من خلال الاستطرادات المتنوعة والتي غالباً ما تخل في بنيتها، وتشتت معناها، فلو تتبعنا أياً منها لبدا ذلك جليا.(٤)

وأما مواقع المناظرات فهي موزعة على أجزاء الكتاب ما عدى الرابع والسادس اللذين

---

(١) هذه الإحصائية بعد التهذيب.
(٢) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٣، ص ١٤٤ - ٢٩٨.
(٣) المصدر السابق، ج٥، ص٤٥٥ - ٥٢٤.
(٤) مثلاً مناظرة السنور تبدأ المصدر ذاته ص ٢٧٥ - ٢٧٦ ... ٢٩٠ - ٢٩١... ٣١١ - ٣٢٩... ٣٣٦ - ٣٤٧.

استعاض عنها فيهما بنصوص صاغها على منوالها[١]، وربما يأتي هذا الترتيب ليريح القارئ من عناء المتابعة مع هذا الفن فينتقل من مناظرة لأخرى دون كلل أو ملل لبقائه في حالة من النشاط والانتباه الدائم التي يحتاجها لفهم هذا الفن أكثر من غيره. بالإضافة إلى أن عددا منها أتى في سياق الأبواب التي تناولت الحيوانات التي تمحورت حولها نحو مناظرة في السنور،[٢] ومناظرة في الفيل وغيره من الحيوانات.[٣]

وفي بدء كتاب الحيوان بمناظرة الكلب، واختتامه بمناظرة الفيل دلالة كبيرة على مدى حرص الجاحظ على هذا الفن ومكانته الرفيعة في أدبه.

مكوناته:

قام بناء المناظرات في كتاب الحيوان على أعمدة فنية متعددة، نجملها فيما يلي:-

١- البداية والنهاية:

لقد تنوعت مطالع المناظرات فجاءت على ضربين:

أ- بداية متأزمة:

يبدو طابع الصراع والتأزم الدائم على بعض المناظرات أكثر من غيرها منذ أسطرها الأولى، فقد صيغت افتتاحياتها بأساليب مثيرة وعبارات ساخنة تشد القارئ للمواصلة معها حتى النهاية خاصة وأنها تحمل في ثناياها هجوما للخصم. فقد استهلت مناظرة الكلب والديك بعرض لجانب من تهم صاحب الثاني تجاه الكلب الذي وصفه بقلة القدر وخبث الطبع، والجهل، وهو من الخلق الملفق ليس سبعا تاما ولا بهيمة تامة.[٤] وافتتحت مناظرة السنور بهجوم شديد من صاحب الكلب عليه حيث أشار إلى أن الناس يرجمون الموتى به.[٥]

ب- بداية ملحة على عرض مفاخر حيوان ما أو صفاته على لسان صاحبه، وغلب هذا النوع من البدايات على مطالع المناظرات في كتابنا، لكنه أقل إثارة من سابقه.

فقد تصدر مناظرة الحمام حديث صاحبه عنه إذ أفاض في تعداد صفاته ومناقبه، فذكر أنه من أجناس مختلفة تفاوتت في الصفات لكن هذا التفاوت لا يخرجه من طائفة الحمام فهو

---

(١) مثال ذلك: جملة القول في القرد والخنزير، الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٤، ص٣٦ وما بعدها. وبحث في صم النعامة والأفعى، نفسه، ص١٧٨-١٨٥، ٣٨٣-٤٢٠، والقول في رؤوس الشياطين واسترق السمع، ج٦، ص٢١١-٢١٧، ٢٣٠-٢٣١، ٢٦٤-٢٨١، ٤٩٦ -٥٠١.

(٢) المصدر السابق، ج٥، ص٢٧٥-٣٥٣.

(٣) المصدر السابق، ج٧، ص٧١-٢٣٩.

(٤) المصدر السابق، ج١، ص١٠٣-١٠٦، ١٩٠-١٩٣.

(٥) المصدر السابق، ج٥، ص٢٧٥-٢٧٦.

موجود بين أجناس حيوانات النوع الواحد كالدجاج والإبل.[١] وافتتحت مناظرة الضأن والماعز بتقديم صاحب الأول شواهد تبين فضله على الثاني.[٢]

ويشار إلى أن مطالع مناظرة الغراب، ومناظرة الفيل تنتمي إلى هذا النوع من البدايات. وأما خواتيم المناظرات فهي تجتمع على منح فرصة دفاعية أخيرة لأحد الخصمين يقدم خلالها الأدلة والبراهين، أو الطعون على أقوال خصمه، معلنة بذلك نهاية المناظرة دون الإشارة إلى الطرف المنتصر.

فقد انتهت مناظرة الكلب والديك بطعن صاحب الديك في الكلب، ورد صاحب الأخير عليه.

"قال صاحب الديك: ذكر محمد بن سلام عن يحيى بن النضر، وعن أبي أمية عبد الكريم المعلم قال: كان الحسن بن إبراهيم يكره صيد الكلب الأسود البهيم. فأنشد صاحب الكلب قول أحمد بن زياد بن أبي كريمة في صفة صيد الكلب قصيدة طويلة مطلعها:

وغب غمام مزقت عن سمائه　　شامية حصاء جون السحائب

مواجه طلق لم يردد جهامه　　تذاؤب أرواح الصبا والجنائب."[٣]

واختتمت مناظرة الغراب بدفاع طويل لصاحبه استغرق عدة صفحات[٤]

٢- المناظرون:

ينبغي التأكيد في هذا المضمار على نسبة المناظرات إلى الجاحظ، فهي برمتها من صنعه الخالص، وما هؤلاء المناظرون سوى أسماء وشخصيات لا وجود لها إلا في ذهن الجاحظ الذي استعان بها في بناء تلك المناظرات، وقد عرف بنزوعه إلى توليد الشخصيات والمواقف.

وقامت المناظرات على أكتاف قطبي المناظرة اللذين لهما حضور واضح ودور بارز وفاعل فيها أكثر من غيرهما، فهما يتسلمان الحوار بشكل دائم. وقامت المناظرات في كتابنا على هذه الثنائية ما خلا واحدة، فكل طرف في المناظرة ينتصر لحيوان بعينه فيفتخر بمحامده المختلفة ويدافع عنه أمام خصمه باذلا وسعه في إدخال النقص على أقواله.

---

(١)الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٣، ص١٤٤-١٤٥.
(٢) المصدر السابق، ج٥، ص٤٥٥-٤٥٦.
(٣)المصدر السابق، ج٢، ص٣٦٧-٣٦٨.
(٤) المصدر السابق، ج٣، ص٤٤٤-٤٥٨.

وقد نسب كل من المتناظرين للحيوان الذي ينتصر له، أو أضيف إليه، فجرت واحدة بين شيخين من كبار المعتزلة وهما أبو اسحق إبراهيم بن سيار النظام وكان صاحب الكلب، ومعبد صاحب الديك.(١) وثانية بين صاحب الحمام،(٢) وصاحب الديك(٣)وثالثة بين صاحب الغراب،(٤) وصاحب الديك.(٥) ورابعة بين صاحب الكلب،(٦) والمحتج للسنانير.(٧) وخامسة بين صاحب الضأن، (٨)وصاحب الماعز.(٩) وسادسة بين صاحب الفيل وهو نفسه صاحب الهند والمعبر عن خصال الفيل،(١٠) وبين خصمه المجهول الذي لم يصرح الجاحظ بشخصيته ولم يذكر اسمه، بل اكتفى بقوله: قال من يعارض صاحب الفيل،(١١) وقال بعض خصماء الهند،(١٢) وقال بعض من يخالف الهند.(١٣)

وشذت هذه المناظرة عن سابقاتها إذ برزت فيها أطراف ثانوية ظهرت بشكل عرضي ومؤقت قامت بدور هامشي، وطرحت أفكاراً جزئية كانت نقطة تواصل في حوار تلك المناظرة، فقد تحدث بعض من ينتصر للأسد في بضعة أسطر دافع عنه فيها أمام صاحب الفيل الذي ادعى غلبة الأخير عليه.(١٤) وظهر كذلك صاحب الفرس وخصمه المجهول لغاية مشابهة.(١٥)

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص٣٥٦، ج٢، ص١٥٣.
(٢) المصدر السابق، ج٣، ص١٤٤، ٢٠١.
(٣) المصدر نفسه، ص١٨٩، ٢٠٠.
(٤) المصدر نفسه، ص٤٤٤.
(٥) المصدر نفسه، ص٤١١.
(٦) المصدر السابق، ج٥، ص٢٧٥.
(٧) المصدر نفسه، ص٣٢٨.
(٨) المصدر نفسه، ص٤٥٥.
(٩) المصدر نفسه، ص٤٧٦.
(١٠) المصدر السابق، ج٧، ص١٠٥، ١٣٩.
(١١)المصدر ذاته، ص١٠٥.
(١٢) المصدر نفسه، ص١٨٦.
(١٣) المصدر نفسه، ص ١٩١.
(١٤) المصدر نفسه، ص ١٣٨-١٣٩.
(١٥) المصدر السابق، ج٧، ص١٤٠-١٤٧.

٣- النماذج التي تمحورت حولها المناظرات:

تكاد الحيوانات تهيمن على هذه النماذج إذا ما استثنينا النموذج البشري الذي يظهر قليلاً في بعضها. ويمكن تقسيم هذه النماذج إلى:

أ- نماذج محورية رئيسية:

وهي الحيوانات التي لم يغادر ظلها المناظرة من بدايتها إلى نهايتها، ويتمثل معظمها بحيوان واحد تدور حوله تلك المناظرة كما هو الحال مع الحمام، والغراب، والسنور، والفيل. حيث استأثر كل واحد منها بمناظرة مستقلة.

وفي بعضها الآخر يتقاسم الشخصية الرئيسية حيوانان كالكلب والديك، والضأن والماعز. ويكون الحديث عنهما سلباً وإيجاباً من خلال المقارنة بينهما بعرض متساوٍ نسبياً من حيث الطول في المناظرة الواحدة.

ب- نماذج ثانوية:

وهي الشخصيات التي تظهر بشكل عرضي ومؤقت لتسهم في الكشف عن خصائص الشخصيات الرئيسية وصفاتها في المناظرات.

ففي مناظرة الكلب والديك جيء بالأسد ليسهم في الكشف عن كرم الكلب وفضله من خلال عرض صاحب الأخير أوجهاً من التشابه بينهما.(١)

وفي مناظرة أخرى قام بدور مماثل بالتعاون مع البعير والفرس تجاه الفيل من خلال الحديث عن مغالبته له مع أنه من أشرف السباع وأقواها.(٢) وفضل بذلك العديد من الحيوانات من هذه الجهة، وخاصة البعير، (٣)والفرس(٤)اللذين لا يقويان على الأسد، بالإضافة إلى تفوقه عليهما في مناح عديدة.(٥)

وشكل الكلب وسيلة للافتخار بالسنور، وبيان محاسنه من خلال المقارنة بينهما في العديد من النواحي.(٦) وتحققت له الفائدة نفسها من الفأر أيضاً.(٧)

وفي مناظرة الحمام أبان صاحبه عن مناقبه بمقايسته مع الكلب والديك في مواضع

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص٢٢٨. ج٢، ص٥٥، ٢١٥.
(٢) المصدر السابق، ج٧، ص١٣٤-١٤٠.
(٣) المصدر نفسه، ص١٤٤.
(٤) المصدر نفسه، ص١٤١-١٤٢.
(٥) المصدر نفسه، ص١١٩-١٢٠، ١٨٢- ١٨٤.
(٦) المصدر السابق، ج٥، ص ٢٣٦-٢٣٨.
(٧) المصدر نفسه، ص٣١٩.

عديدة[١]

وإلى جانب الشخصيات الثانوية من الحيوانات، ظهر النموذج البشري بدور ثـــانوي، إلا أنه كان هاما جدا بالنسبة للشخصية المحورية، إذ وقف في صفها بشكل دائم. فقـــد أعـــان فـــي الافتخار للكلب،[٢] والحمام،[٣] والسنور،[٤] والماعز.[٥] لوجود تشابه بينها وبينه في أمر ما.

وفي المقابل شكلت بعض الحيوانات عاملا مساعدا علـــى بيـــان مســـاوئ الشـــخصيات المحورية ومعايبها، ووسيلة ناجعة للطعن بها في العديد من المناظرات. فقد طعن صاحب الكلـب في الديك ووصفه بالجهل وعدم المعرفة من خلال السنور الذي يعرف ربه، وبيته وأولاده.[٦]

وفي موضع آخر من المناظرة ساوى بين صياح الديك المبني على العلم فـــي الوقـــت، وبين نهيق الحمار الذي يحدث في أوقات معينة مع أنه أجهل الخلق، ولم يقف صـــاحب الكلـــب عند هذا الحد بل فضله عليه لبعد صوته وحسن هدايته، ولأنه المضروب به المثل في العديد مـــن الصفات.[٧]

ولابد من الإشارة إلى اجتماع النمطين لبعض الحيوانات، فقد بدا الكلب والديك بشـخصية محورية في واحدة، غير أنهما ظهرا بشخصيات ثانوية في مناظرتي الحمام، والسنور.

٤- الأدلة:

تشكل الأدلة والبراهين زاوية هامة في بناء المناظرات، حيـــث عملـــت علـــى نموهـــا وامتدادها إلى هذا الحد، بالإضافة لكونها عنصر تكويني هام في بنيتها، فلا وجـــود لـــهذا الفـــن بدونها.

وجاءت الشواهد والبراهين عقلية ونقلية غـــير أن الأخـــيرة كـــانت الأكـــثر لاعتمـــاد المتناظرين عليها بشكل رئيسي، فحفلت المناظرات من خلاله بمادة وافرة من الموروث الأدبـــي، والقرآن والسنة.

---

(١)الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٣، ص١٤٨، ٢١٤، ٢٥٣.
(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٥٥، ٢١٥.
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص١٦٣، ١٧٧، ٢١١.
(٤) المصدر السابق، ج٥، ص٢٩٠.
(٥) المصدر نفسه، ص٤٨٣، ٥٢٣-٥٢٤.
(٦) مناظرة في الكلب والديك، المصدر السابق، ج٢، ص٢٦٢، ٢٦٣.
(٧) المصدر نفسه، ص٢٥٥-٢٥٨.

ب- أسلوبها:

كان لاستئثار المناظرة بمكانة خاصة في عقل الجاحظ وقلبه دون الفنون الأخرى الأثر البالغ في أسلوبها، الذي حظي باهتمام خاص من الجاحظ أعمل فيه مزاجه الفني المنبعث من قريحته الأدبية الرفيعة وملكته الفنية العالية.

١- الحوار:

لقد تراوحت بدايات الحوار في المناظرات بين الغموض والوضوح، فمنها ما جاء بأسلوب صريح، ينسب إلى المناظر الذي يكون في العادة أحد المنتصرين لحيوان ما أو أحد خصومه نحو: قال صاحب الحمام،(١) وقال صاحب الديك،(٢) وقال صاحب الكلب،(٣) وقال المحتج للسنانير،(٤) وقال صاحب الهند والمعبر عن خصال الفيل، وقال من يعارضهم.(٥)

ومنها ما جاء منكرا بضمير الغائب بصيغة المفرد، أو الجمع، مما يلبس العبارة في المناظرة أحيانا لولا معاودة النظر في سياقها. فجاء على لسان صاحب الكلب: "قالوا ... وإناث السنانير إذا هجن للسفاد آذين بصياحهن أهل القبائل ليلا ونهارا ...".(٦)

وفي صيغة مشابهة ذكر رد للمحتج للسنانير، "قالوا: وقلتم في الاشتقاق من أن اسم الكلب كليب وكلاب ومكلبة...، وقد يقولون للسنور هر والأنثى هرة...،"(٧) وورد قول على لسان صاحب الضأن: "قالوا والضأن أحمل للبرد والجمد والمطر...، وقالوا ومن مفاخر الضأن على الماعز التمثيل الذي كان عند كسرى ... .(٨)

واتخذت بدايات الحوارات الدفاعية والردود على الخصوم في المناظرات نسقا آخر، فمنها ما استهل بالفعل الماضي المتصل بضمير المخاطب أو المخاطبين، وهذه الصيغة توحي إلى وجود ترابط دائم في الحوار بين المتناظرين، وترداد لأقوال الخصوم في كثير من الأحيان. "وقال صاحب الكلب: ذكرت عيوب الكلب فقلت: الكلب إذا كان في الدار..."(٩)

---

(١) الجاحظ، **الحيوان، مصدر سابق**، ج٣، ص١٤٤.
(٢) المصدر نفسه، ص١٨٩.
(٣) المصدر السابق، ج٥، ص٢٧٥.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٢٨.
(٥) المصدر السابق، ج٧، ص١٠٥.
(٦) المصدر السابق، ج٥، ص٣١٢.
(٧) المصدر نفسه، ص٣٤٢ -٣٤٣.
(٨) المصدر نفسه، ص٤٧٢.
(٩) المصدر السابق، ج١، ص٣٦٦.

وقال صاحب الديك: "فخرتم علينا بصيد الكلب وهجوتم الديك إذ كان مما لا يصيد ولا يصاد به وقد وجدنا العرب يستذلون الصيد ويحتقرون الصياد...".(١)

وتصدر حرف الاستفتاح أما عددا منها: "قال صاحب الكلب أما ترك الاعتراض على اللص الذي أطعمه أياما وأحسن إليه مرارا...، وأما سماحة الصوت...، وأما عوائه من وطء الدابة وسوء جزعه من ضرب الصبيان...".(٢) وقال صاحب الديك لصاحب الحمام: "وأما ما ذكرتم من أن الحمام معطوف على فراخه ما دامت محتاجة إلى الزق، فإذا استغنت نزعت منها الرحمة، فليس ذلك كما قلتم. الحمام طائر ليس له عهد...".(٣)

وقد تفاوت الحوار في المناظرات من حيث الطول والقصر إلا أن معظمه إلى الإطالة أميل، فقد امتد بضعة صفحات بل إلى العشرات في بعض الأحيان، مما يفقد المناظرة الحيوية والإثارة فهو عبارة عن سرد طويل لأحد المتناظرين يقدم فيه أفكارا جزئية عديدة تدور حول محاسن أو مساوئ حيوان ما يعرضها بتواصل فلا تواجهه مقاطعة أو رد أو طعن أو اعتراض حتى نهايتها.

وقد تجلى هذا النوع من الحوار في مناظرة السنور التي قامت على حوارين رئيسين، فأما الحوار الأول فكان لصاحب الكلب الذي عدد من خلاله معايب السنور ومساوئه من خلال مقارنته مع الكلب في غير صفة.(٤)

وأما الثاني فكان دفاعا شاملا وردا طويلا لصاحب السنور.(٥)

غير أن هناك حوارات في المناظرات تميل إلى القصر وهي أقل حجما من سابقاتها إذ لا تتعدى الصفحة أو الاثنتين، لكنها أشد إثارة منها، فمن خلالها ينكسر الجمود، وينبعث النقاش ويحدث التماس والاحتكاك المباشر بين المتناظرين، فهو يحمل فكرة جزئية وردا عليها، أو طعنا بها، على العكس من الحوار الطويل الذي لا نلمس فيه علاقة واضحة ومباشرة بين المتناظرين. ومن تلك الحوارات:

"قال صاحب الضأن: فخرتم على الضأن بأن الإنسان ذو شعر، وأنه بالماعز أشبه، فالإنسان ذو إلية، وليس بذي ذنب فهو من هذا الوجه بالضأن أشبه.

---

(١)الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٢، ص٣٠٩.
(٢) المصدر السابق، ج١، ص٢٨٨.
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص٢٥٤.
(٤) المصدر السابق، ج٥، ص٢٧٥-٢٧٦، ٣١١-٣١٨. وانظر كذلك مناظرة في الضأن والماعز، نفسه، ص٤٥٥.
(٥) المصدر نفسه، ص٣٢٨-٣٤٦.

قال صاحب الماعز: كما فخرتم بقوله: { ثمانية أزواج من الضأن اثنين }[١] وقلتم: فقد قدمها، فقال الله: { يا معشر الجن والإنس}[٢]. فإن وجب لضأنك التقديم على الماعز بتقديم هذه الآية وجب للجن التقديم بتلك الآية".[٣]

وتأثر الحوار في المناظرات بالنزعة الكلامية، فظهر فيها الحوار الافتراضي الذي يجريه أحد المتناظرين على لسان خصمه. نحو قول صاحب الديك على لسان صاحب الحمام: "فإن زعمتم أن الحمام والقمري واليمام والفواخت والشفانين والوراشين حمام كله، قلنا أنا نزعم أن ذكورة التداريج، وذكورة القبج، وذكورة الحجل ديوك كلها. فإن كان ذلك كذلك، فالفخر بالطوق نحن أولى به".[٤]

وفي موضع آخر قال على لسان صاحب الحمام: "فإذا قلت: إنه يشتد عليه ويمنعه إذا جثمت له وأراد أن يعلوها، فكل ذكر وأنثى هنالك يفعل ذلك، وليس من الذكر الغريب من طريق الغيرة، ولكنه ضرب من البخل ومن النفاسة...".[٥]

٢- الاستدلال والتنقيب:

يقوم أسلوب المناظرة على الحوار والنقاش لإثبات وجهة نظر، ونفي أخرى. وقد سلّح الجاحظ المناظرين بمواد معرفية متنوعة ليُمكن كلّ منهم التنقيب عن الأدلة وحشد أكبر قدر ممكن منها لهذا الغرض.

وأجرى على ألسنة المتناظرين الأدلة الصحيحة، والفاسدة القليلة، وكأن المناظرة وقعت فعلا بين أطراف تصيب القول وتخطئه.

ومن الأدلة الفاسدة ما استند إليه صاحب الضأن بطعنه في العنز، فذكر أن الضأن تلد مرة في السنة، والعنز قد تضع المرتين والثلاث، والبركة والنماء في عدد الضأن، فالخنزيرة كثيرة الخنانيص ولا نماء فيها.[٦]

واستدل صاحب الماعز بقوة الماعز وكثرة أولادها بقول أبي عبدالله الذي زعم: "أن التيس

---

(١) سورة الأنعام (آية ١٤٣).
(٢) سورة الرحمن (آية ٣٣).
(٣) الجاحظ، **الحيوان**، ج٥، ص٥٢٣-٥٢٤. وانظر كذلك في مناظرة الفيل، ج٧، ص١١٦-١١٧.
(٤) المصدر السابق، ج٣، ص٢٠١.
(٥) المصدر نفسه، ص٢٥٤.
(٦) المصدر السابق، ج٥، ص٤٥٦.

المشراطي قرع في يوم واحد نيفا وثمانين قرعة"[١].

ومنها كذلك ما ساق صاحب الديك من أحاديث موضوعة، من أبرزها ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الديك الأبيض صديقي وعدو عدو الله، يحرس دار صاحبه وسبع دور.[٢]

ولون المناظرون في الأدلة فاستدلوا على الفكرة الواحدة بأدلة متعددة مستلهمة من العقل ومستقاة من النقل. فقد دفع صاحب الغراب الشبهة القائلة بأن الغراب مقدم في الشؤم على غيره من الحيوانات، بقوله: الغراب وغير الغراب في ذلك سواء. واستدل على ذلك بأشعار متعددة ثم ذكر أن النابغة قد تطير من الجرادة التي كانت على ثوبه، وأشار إلى أن هناك أناسا ينكرون الطيرة أصلا، كالمرقش والحارث بن حلزة والنظام. وأضاف أن العامة إذا صاح الغراب صيحة واحدة تطيرت منه، وإذا ثنى تفاءلت به[٣].

وأدخل صاحب الكلب النقص على السنور من خلال الأخبار،[٤] وأشار إلى بعض مساوئه مستندا على العقل، فهو لص لئيم يتوارى بما يقدم له، من الناس، وشره خؤون يأكل خبايا الأرض التي تتسبب بمقتله في كثير من الأحيان،[٥] بالإضافة إلى أكله أولاده،[٦] ومن خلال الشعر بخس بثمنه.[٧]

لكن صاحب السنور تسلح بأدلة متنوعة في دفاعه عن حيوانه، بدأها بالمثل القائل: " أبر من هرة"،[٨] واستعان في اللغة بافتخاره حيث عرض أسماء السنور القائمة بذاتها، ثم عدد جانبا من محاسنه مدللا عليها من العقل،[٩] ثم روى حكاية تدل على التجارة بالسنانير والربح فيها.[١٠]

٣- اللغة:

لقد تجلت قدرة الجاحظ الفائقة على انتقاء الألفاظ في المناظرات فبدت موافقة لمقتضى الحال سهلة سلسة وبعيدة عن التعقيد والغموض.

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٥، ص٤٧٦.
(٢)المصدر السابق، ج٢، ص ٢٥٨-٢٥٩.
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص٤٤٣-٤٦١.
(٤) المصدر السابق، ج٥، ص٢٧٥-٢٧٦.
(٥) المصدر نفسه، ص ٣١١-٣١٢.
(٦) المصدر نفسه، ص ٣١٧.
(٧) المصدر نفسه، ص ٣١٥.
(٨) المصدر نفسه، ص ٣٢٨.
(٩) المصدر نفسه، ص ٣٣٦-٣٣٩.
(١٠) المصدر نفسه، ص ٣٣٩-٣٤١.

فقد استخدم لفظ زعم أحد المتناظرين إشارة إلى الطعن بقول خصمه. فلو تتبعنا الفقرات والأقوال التي تبدأ بهذا اللفظ لوجدناها تحمل خبرا مشكوكا به، أو فكرة زائفة، أو قولا مغلوطا. فقد قال صاحب الكلب لصاحب الديك: وزعمت أن الكلب في ذلك كالخنثى...، وزعمت أنه يصير كالنبيذ الذي يفسده إفراط الحر...،[١] وقالوا: قد أخطأ من زعم أن الديكة تتجاوب... .[٢]

وفي سياق حديثه عن إلف الناس للحمام قال صاحبه:" والحمام مع عموم شهوة الناس له ليس شيئا مما يتخذونه هم أشد شغفا به، ولا أشد صبابة منهم بالحمام...".[٣]

فلو نقبنا عن كلمة تعبر عن شدة حب الناس للحمام وتعلقهم به لما وجدنا أنسب من كلمة (الشهوة) التي استخدمها المناظر بقوله.

وتقاسمت صياغة المناظرات الأساليب الخبرية والإنشائية غير أن الأولى كان لها نصيب الأسد، حيث هيمنت على صياغة الأغلبية الساحقة من جمل المناظرات. ومن الأساليب الإنشائية التي شاعت في المناظرات أسلوب الاستفهام الذي تراوح بين الإنكار والتقرير.

ففي معرض دفاعه عن الكلب، قال صاحبه لخصمه: "فما ترى الناس يعافون تسميد بقولهم قبل نجومها وتفتق بذورها ولا بعد انتشار ورقها...؟"[٤]

وتوجه صاحب الديك بالقول لخصمه ".... فإن كان كما تقولون فلما وصف الشعراء الفرس وشبهوه بضروب من الخلق، وكذلك الأعضاء وغير ذلك من أمره وتركوا الكلب في المنسأ لا يلتفت أحد لفته؟"[٥]

وأنكر صاحب الديك المعرفة للحمام فقال: "وكيف يكون للحمام من المعرفة والفطنة ما تذكرون وقد جاء في الأثر كونوا بها كالحمام؟"[٦]

وقال صاحب الفيل: "وأي حجة على الفيل في أن يرى سنورا فينفر منه؟!"[٧]

وتوجه صاحب الديك إلى صاحب الغراب بالقول:" فالغراب اكثر من جميع ما يتطير به

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج١، ص١٠٥.
(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٢٥١.
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص١٤٧.
(٤) المصدر السابق، ج١، ص٢٤٤.
(٥) المصدر نفسه، ص٢٧٢.
(٦) المصدر السابق، ج٣، ص١٨٩.
(٧) المصدر السابق، ج٧، ص١٣٧.

في باب الشؤم. ألا تراهم كلما ذكروا مما يتطيرون منه شيئا ذكروا الغراب معه؟!"[١]

ومنها أسلوب الأمر الذي يفيد الندب والتمني. نحو: "ففكر في هذا الشعر وقف على فصوله"،[٢] فهلا ذكرتم... .[٣]

وأكثرت المناظرات من أساليب التوكيد ولونت فيها لتؤكد على إقرار المتناظرين وانكارهم: "قال صاحب الكلب قد يموت الناس بكل شيء...".[٤] وقالوا: "إنه ليبلغ من تعظيم الحمام لحومة البيت الحرام أن أهل مكة يشهدون عن آخرهم أنهم لم يروا حماما قط سقط على ظهر الكعبة إلا من علة عرضت له".[٥]

"والعنز هي التي ترضع من خلفها وهي محفله حتى تأتي على أقصى لبنها، وهي التي تنزع الوتد".[٦] .

"وقال بعض من ينتصر للأسد إن الأسود في الهند أضعف بل هي ضعيفة جدا".[٧] "ولو لم يكن في الفيلة من العيب إلا إن عدة أيام حملها كعمر بعض البهائم لكان ذلك عيب".[٨]

وإلى جانب ذلك ظهر في بعض المناظرات أسلوب التكرار في المعنى الذي أكد على بعض الأفكار وذكر بها من حين لآخر. (وغالبا لا يكون ذلك التكرار بحتا بل يتضمن في العادة عنصرا جديدا يتم المعنى السابق).[٩] فقد تحدث صاحب الكلب عن صياح الديكة عن علم في وقت معين، وتجاوبها لطبيعة فيها في موضعين ليزيد في نفي هذه الحقيقة وإبطال ذلك الإدعاء بالأدلة والبراهين المختلفة.[١٠]

في حين تعرض لأوجه التشابه بين الكلب وبين الأسد والإنسان مرتين في نفس المناظرة ليرفع من شأن ذلك الحيوان. فقد أشار إلى أن عضة الأسد يشبه دواءها عضة الكلب، ويشبه الكلب الأسد بانطباق أسنانه، والنهم، فضلا عن أن رجع الأسد شبيه برجع الكلب، بالإضافة إلى أن من أسماء الأسد الكلب لقرابة ما بينه وما بين الكلب. والكلب يشبه الإنسان ويلتقي معه من

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٣، ص٤٤٣.
(٢) المصدر السابق، ج٢، ص١٩.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٢٩.
(٤) المصدر السابق، ج١، ص٢٦٠.
(٥) المصدر السابق، ج٣، ص١٩٣.
(٦) المصدر السابق، ج٥، ص٤٦٩، ٤٧٠.
(٧) المصدر السابق، ج٧، ص١٣٨.
(٨) المصدر نفسه، ص١٩٤.
(٩) فكتر شلحت، **النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ**، مرجع سابق، ص١١٧.
(١٠) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٥١، ٢٩٣.

جهة أن ذكَرَ كليهما ظاهر، ويشبه التحامه مع أنثاه الإنسان ساعة الوطء.[١]

واستأنف قائلا: "ومما أشبه فيه الكلب الإنسان والأسد أن كل واحد من هذه الأجناس لـــه بطن واحد."[٢]

وتحدث صاحب الحمام عن نسب ذلك الطائر في موضعين من المناظرة.[٣]

واستخدمت المناظرات صيغة أفعل التفضيل كثيراً، لتؤكد على صفات الحيوانات،وتحقـق المقايسة والمفاضلة بينها بشكل تام: "والفيل أشرف مراكب الملوك، وأكثرها تصرفـا"[٤] والفيـل أعظم من جميع الحيوانات جسماً وأكثرها أكلا"،[٥] "والضأن أحمل للبرد والجمـد"،[٦] "والغـراب أكثر جميع ما يتطير به في باب الشؤم".[٧]

وعمدت المناظرات إلى التفريع بالمعنى، "قال صاحب الديك: قال صاحب الكلب يصفـه بالسرعة في الحضر، وبالصبر على طول العدو، وبسعة الإهاب، وإنه إذا عدا ضبع وبسط يديـه ورجليه حتى يمس قصصه الأرض، وحتى يشرط أذنيه بشبا أظفاره وأنه لا يحتشي ريحاً مع مـا يصيب الكلاب من اللهث".[٨]

وقال صاحب الحمام: "ومن كرم الحمام الإلف والأنس والنزاع والشوق وذلك يدل علـى ثبات العهد، وحفظ ما ينبغي أن يحفظ، وصون ما ينبغي أن يصان وإنه لخلق صدق في بنـي آدم فكيف إذا كان ذلك الخلق في بعض الطير".[٩]

ولم تعتمد المناظرات على الصور البيانية والمحسنات البلاغية إلا نادراً فـي أسـلوبها، (فإن عناية المتناظرين بالفكرة قللت من عنايتهم بتجميل الأسلوب لهذا جاء مرسلاً بعيداً عن

---

(١) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٢، ص٥٥.
(٢) المصدر ذاته ، ص ٢١٥.
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص١٤٤، ٢٠٩.
(٤) المصدر السابق، ج٧، ص١٨٢.
(٥) المصدر نفسه، ص١٨٤.
(٦) المصدر السابق، ج٥، ص٤٧٢.
(٧) المصدر السابق، ج٣، ص٤٤٣.
(٨) المصدر السابق، ج١، ص٢٧٢.
(٩) المصدر السابق، ج٣، ص٢٢٧.

الزخرف اللفظي).[١] إلا أن هذا لا يعني خلوها من الصور البيانية التي جاءت كضرورة طبيعية لتوضيح الأفكار والإقناع بها.

فقد لوحظت صور من التشبيه فيها:

ففي مناظرة الكلب والديك ذكر باباً كاملاً تحت عنوان ما يشبه الكلب وليس هو منه.[٢]

وفي موضع آخر قال صاحب الديك: "إن شرار عباد الله من قتل أولاد رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم ولم نجد شعراء الناس شبهوا أولئك القائلين بشيء سوى الكلاب. قال أبو نضلة الأبار، في قتل سلم بن أحوز المازني، صاحب شرطة نصر بن سيار الليثي، يحيى بن زيد، وأصحابه، فقال:

ألم تر ليثاً ما الذي ختمت به ... لها الويل في سلطانها المتخاذل

كلاب تعاوت لا هدى الله سُبلها ... فجاءت بصيد لا يحلُ لآكل

بنفسي وأهلي فاطميٌ تقنصوا ... زمان عمى من أمةٍ وتخاذل[٣]

وافتخر صاحب الضأن قائلاً: "وإذا وصفوا أعذاق النخل العظام قالوا : كأنها كباش. وقال الشاعر:

كأن كباش الساجسية علقت ... دوين الخوافي أو غراير تاجر".[٤]

وأما المعاني فجاء بعضها سطحياً لا يقدم سوى معلومات عادية، والبعض الآخر جاء عميقاً، فمع أنه يبدو عكس ذلك للوهلة الأولى، فإذا أمعنا النظر في أفكار تلك المناظرات وسبرنا غورها تكشف عمق معانيها ورفعة مضامينها، فهي تحمل همسات إيمانية ربما لامست فؤاد القارئ فتزيده إيماناً واطمئناناً، وتنقل معلومات فكرية ثرة تشحذ العقل وتزيده تدبراً وتبصراً.

ويلاحظ على المعاني تفرقها وتقطعها، فلم تأتِ متسلسلة في المناظرات إلا نادراً بعامل الاستطراد المخل، والحوار المطول الذي تتداخل فيه أقوال المتناظرين مما يُشكل على المتلقي فهمها والإلمام بها.

---

(١) أحمد مصطفى، **المناظرات في الأدب العربي إلى نهاية القرن الرابع**، مرجع سابق، ص٢٢١.
(٢)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٢، ص١٦٦.
(٣) المصدر السابق، ص٢٩١.
(٤) المصدر السابق، ج٥ ، ص٤٧٣.

وثمة نماذج قليلة من السجع فيها نحو: "قال صاحب الكلب: فالذي قيل فيه مـــن الخـــير أكثر، ومن الخصال المحمودة أشهر".(١)

ولقيت لغة المناظرات عناية خاصة تناسبت مع اهتمام الجاحظ الخاص بهذا الفـــن فـــي أدبياته المختلفة، فجاءت بألفاظ انتقائية لكنها سهلة ومعبرة عن المراد وفـــق أســلوب متناســق ومؤثر.

(١) الجاحظ، **الحيوان**،مصدر سابق، ج٢، ص٨٦.

الخصائص العامة لأسلوبها:

لقد تأثرت المناظرات في كتاب الحيوان بالنزعة الكلامية بشكل خاص فأهل الكلام يعنون بهذا الفن ويقدمونه على الفنون الأخرى مما أكسبها جمالا في الأسلوب وقوة في التأثير فاجتمعت لها ملامح أسلوبية،[١] أهمها:

١- الاستدلال وحشد الأدلة:

فبما أن المناظرات فن إقناعي فمن الطبيعي أن يقوم كل متناظر بحشد الأدلة والبراهين المتنوعة ليعزز رأيه، ويهدم رأي غيره، وقد أغرقت المناظرات في حشد الأدلة لدرجة أنها تفوق الأفكار في بعضها.[٢]

٢- الاهتمام باللغة وما يتصل بها من مسائل:

فقد جعلت المناظرات اللغة من أهم وسائلها الاستدلالية، فكانت في مقدمة ما يطرح المتناظرون، فعلى سبيل المثال: كان الاشتقاق من الأسماء وسيلة للافتخار، فقد افتخر صاحب الضأن على صاحب الماعز، بأن الناس يشتقون من اسم الكبش أسماء لهم فتسمى المرأة كبشة وكبيشة، ويكنى الرجل بأبي كبشة.[٣]

وافتخر كذلك صاحب الكلب على صاحب الديك، بكثرة ما اشتق من أسماء الكلب للناس وللأشياء.[٤] فافتخر عليه بكثرة ما اشتق للأشياء من البيض.[٥]

وعنيت المناظرات بالألفاظ عناية خاصة فقد تعرضت لمعانيها الدقيقة، وجعلت من بعضها محل نزاع ونقاش بين المتناظرين، فقولهم: أسمح من لافظة أثار في معناه نقاشا وحوارا بين صاحب الكلب وصاحب الديك.[٦]

وقال صاحب الديك: "وليس في الأرض طائر أملح ملح من فروج، وليس ذلك الاسم إلا

---

(١) لقد أتى على بعضها، فكتور شلحت، في **النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ**، مرجع سابق، ص ١١٦-١٣٣.
(٢) أنظر مناظرة في الكلب والديك ومناظرة في الغراب، الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق.
(٣) المصدر السابق،ج٥ ، ص٤٦٣.
(٤) المصدر السابق، ج٢ ، ص١٨٤-١٨٦.
(٥) المصدر نفسه، ص ٣٣٦.
(٦) المصدر السابق، ص١٤٨.

لولد الديك، وإلا فكل شيء يخرج من البيض فإنما هو فرخ.[١]

ومن مظاهر العناية باللغة في المناظرات، تأويل نماذج من القرآن والسنة وشرحها كتأويل الآيات التي تحكي قصة أهل الكهف وكلبهم.[٢]

وتأويل صاحب الديك لعدد من الآيات التي افتخر بها صاحب الغراب به كمؤدب وواعظ للبشرية.[٣]

ومن الأحاديث المؤولة في المناظرات حديث أكلك كلب الله.[٤] وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد الخير.[٥]

٣- تقوم مناظرات "الحيوان" على حوارات طويلة في الغالب فلا يشعر المتلقي بحرارتها، فهي تتسم بالعرض الطويل ولا تقوم على الأخذ والرد مما يفقدها الإثارة، وعنصر التشويق في بعض الأحيان.

٤- أكثرت المناظرات من الاعتماد على موروث الآخرين وخاصة التراث العربي وقد بدا ذلك من المصادر المتنوعة التي استقاها الجاحظ في بناء مادة المناظرة.

٥- الاستطراد:

لقد شاع الاستطراد في المناظرات بشكل واضح، وتسبب بخلخلة بنيتها وتشتيت معناها، فالمناظرة في العادة تقوم على فكرة عامة يختلف حولها المتناظرون. (لكن الجاحظ لا يتحرج من ذكر كل شاردة وواردة تطرأ على ذهنه حول تلك الفكرة، وسرعان ما يوظفها لخدمة المناظرة والمتناظرين).[٦]

ونبه الجاحظ إلى وجود بعض الاستطرادات في بعضها كما هو الحال في مناظرة الحمام يقول: "ثم رجع بنا القول في الحمام بعد أن استغنى ولده عنه"،[٧] "ثم رجع بنا القول إلى ذكر

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٢، ص ٢٤٢. وانظر كذلك شرحا للفظ الدجاج نفسه، ص ٢٥٠.
(٢)المصدر نفسه، ص١٨٨-١٩٢.
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص٤١١-٤١٤.
(٤) المصدر السابق، ج٢، ص١٨١.
(٥) المصدر نفسه، ص٢٠٤-٢٠٥.
(٦) فيكتور شلحت، **النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ**، مرجع سابق، ص١١٤.
(٧) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٣، ص١٥٧.

الحمام من غير أن يشاب بذكر غيره".[١]

وظهر الاستطراد في المناظرات بصور عدة:

فمنه ما جاء استطرادا لغويا بدا فيها من حين لآخر.[٢]

ومنه ما كان شروح وتفاسير لبعض الأفكار الجزئية في المناظرات وفي العادة تكون تلك الموضوعات على علاقة واهية مع تلك الأفكار.

ففي مناظرة الكلب والديك جاء بباب كامل تحت عنوان (ما يعتري الإنسان بعد الخصاء وكيف كان قبل الخصاء)،[٣] ثم ذكر ما جاء في خصاء الدواب،[٤] لمجرد ورود تشبيه الكلب بالخصي، والخنثى في سياقها.[٥]

وحين تناول نتن جلود الكلاب ورائحتها الكريهة استرسل في الحديث عن الحيوانات التي أضيفت إلى نتن الرائحة.[٦]

وبعد أن ذكر قول لزرادشت حول خلق الفار والسنور،[٧] تحدث عن علة رواج أفكار ذلك الملك بين بني قومه.[٨]

ومن صور الاستطراد أيضا الاسترسال في الأدلة والشواهد.[٩]

٦- القول في الشيء وضده:

لقد تجلى ذلك في المناظرات من خلال حديثها عن الحيوانات إيجابا وسلبا، مدحا وقدحا، بأسلوب متساو، فنا وفكرا.

تلكم أهم الملامح الأسلوبية للمناظرات في كتاب الحيوان

---

(١)الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٣، ص١٨٦. وانظر كذلك: نفسه، ص٢٥١.
(٢) أنظر مناظرة في السنور: المصدر السابق، ج٥، ص٢٧٦، ومناظرة في الكلب والديك: ج٢، ص٢٣٥،٢٣٨، ٢١١، مناظرة في الحمام، ج٣، ص٢٤٣، ٢٤٦.
(٣) المصدر السابق، ج١، ص١٠٦-١٧٧.
(٤) المصدر نفسه، ص١٧٧-١٩٠.
(٥) المصدر نفسه، ص١٠٥.
(٦) المصدر نفسه، ص٢٢٦-٢٥٣.
(٧) المصدر السابق، ج٥، ص٣١٩-٣٢٥، مناظرة في الحمام.
(٨) المصدر نفسه، ص٣٢٥-٣٢٨.
(٩) أنظر مناظرة في الكلب والديك، ومناظرة في الغراب، المصدر ذاته.

الخاتمة

بعد التطواف في كتاب الحيوان يمكن القول:-

١- لقد تميز هذا الكتاب عن مؤلفات الجاحظ الأخرى في الشكل والمضمون. فأما شكله فكان مفككاً بانسجام نسبي تشد خيوطه غايته، وأما مضمونه فهو جامع وملخص للثقافة الجاحظية الموسوعية، فقد أودعه خالص أفكاره وخبراته، وجل ملعوماته، فكان دائرة من المعارف المتنوعة، مما جعله كتاباً تعليمياً وتربوياً في الدرجة الأولى.

٢- يعد كتاب الحيوان نقلة نوعية وجديدة في أدبيات الجاحظ، فقد جسر خلاله العلاقة بينه وبين عموم القراء، إذ صاغه بأسلوب سهل وسلس مغاير لأساليب مؤلفاته الأخرى.

٣- يمكن القول إن الجاحظ في كتاب الحيوان كان راوية أكثر منه كتاباً فلو اجرينا إحصائية تصنف الأشكال التعبيرية والمتون المعرفية التي من منقول الجاحظ عن التي من إنشائه الخالص لفاقت الأولى على الثانية بفارق كبير جداً.

٤- أن الهدف الأساسي من تأليف الحيوان ، هو فكري ديني محض، وهو الاستدلال بالخلق على الخالق، وجاءت الأشكال التعبيرية فيه بالتعاون مع المتن المعرفي كوسائل عمد إليها الجاحظ، لتحقيق غايته تلك.

٥- بعد المسح الشامل للأشكال التعبيرية في كتاب الحيوان تبين أن الأمثال احتلت مركز الصدارة بينها فقد وصل عددها إلى ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين مثلا، ثم تليها الحكايات التي لم ترب على مائة وعشرين حكاية، أما المناظرات فهي ست.

٦- لقد تباين تأثير الجاحظ على الأشكال التعبيرية في كتاب الحيوان، فالمناظرات الفن الوحيد الذي أعمل فيه فكره ومزاجه الفني بشكل كامل كونه من نتاجه الخاص. أما الحكايات فقد تدخل في معالجتها شكلاً ومضموناً ، لكن هذا التدخل كان محدوداً جداً ومحصوراً في بعضها. وأما الأمثال فلم يجر عليها أي تعديل بطبيعة الحال، غير أنه أبدع في توظيفها.

٧- تكاد تتلاقى أنماط التعبير النثري في كتاب الحيوان في الوظائف وتتشابه في الموضوعات والمصادر.

٨- تميزت المناظرات عن الفنون الأخرى في كتاب الحيوان، إذ تمحورت كلها حول موضوع واحد وانتظمت جميعها في نوع معين، وأدت مجتمعة وظائف موحدة بخلاف الأنماط الأخرى حيث تباين كل نمط منها في الموضوع والنوع والوظيفة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

ثبت المصادر والمراجع

أولا: المصادر

١- **القرآن الكريم**

٢- أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني، (ت:٥١٨هـ/١١٢٤م)، **مجمع الأمثال**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار النصر، دمشق (د.ت.).

٣- أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، (ت:١٠٩٤هـ/١٦٨٣م) **الكليات**، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢.

٤- بدر الدين محمد بن عبدالله الزمخشري، (ت: ٧٩٤هـ/١٤٩٢م)، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٢.

٥- جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، (ت: ٩١١هـ/١٥٠٥م)، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، ١٩٨٦.

٦- جمال الدين أبو محمد عبدالملك بن هشام الحميري، (ت: ٢١٣هـ/٨٢٩م) **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ شلبي، ط١، دار الخير، بيروت ١٩٩٠.

٧- جمال الدين محمد بن منظور، (ت:٧١١هـ/١٣١١م)، **لسان العرب**، ط٢، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٩٣.

٨- حسان بن ثابت الأنصاري، (ت: ٥٤ هـ/٦٧٤م)، **ديوانه**، دار صادر، بيروت، ١٩٦١.

٩- أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري (ت: ٣٩٥هـ/١٠٠٥) **جمهرة الأمثال**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبدالمجيد قطامش، ط ٢، دار الجيل، بيروت.

١٠- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، (ت: ٤٥٦هـ/١٠٦٤م) **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٦٤.

١١- زياد بن معاوية المعروف بالنابغة الذبياني، (ت: ١٨ ق هـ)، **ديوانه** شرح وجمع محمد عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، والشركة الوطنية، ١٩٧٦.

١٢- السيد أحمد الهاشمي، **جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب**، أشرف على تحقيقه مجموعة من المؤلفين الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت.

١٣- أبو بكر عبد القاهر بن العبد الرحمن الجرجاني، (ت: ٤٧١هـ/١٠٧٨م)، **أسرار البلاغة**، تحقيق محمد رشيد رضا، ط٦، مكتبة القاهرة، مصر، ١٩٥٩.

١٤- أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف هشام بن الأنصاري المصري، (ت: ٧٦١هـ/١٣٦٤م)، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، تحقيق، محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧.

١٥- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، (ت: ٢٥٥هـ/٨٦٩م)، **الحيوان**، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، د. ت.

١٦- .....، **البيان والتبيين**، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، د. ت.

١٧- .....، **مجموعة رسائل الجاحظ**، حققه نصوصه وقدم لها، محمد طه الحاجري، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣.

١٨- أبو الحسن علي بن موسى المرتضى (ت: ٢٠٣هـ/٨١٩م)، **أمثال وحكم**، تحقيق محمد الفروي، دار الزهراء، بيروت، ١٩٩٠.

١٩- علي بن محمد الشريف الجرجاني(ت: ٨١٦هـ، ١٤١٣م)، **التعريفات**، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥.

٢٠- أبو عبيد القاسم بن سلام (ت: ٢٢٤هـ/٨٣٩م)، **كتاب الأمثال**، تحقيق عبدالمجيد قطامش، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ١٩٨٠.

٢١- أبو عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري، (ت: ٢٥٦هـ/٨٧٠م)، **الجامع الصحيح**، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢.

٢٢- محمد علي بن علي التهانوي، (ت: ١١٥٨هـ/١٧٤٥م) **موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية، المعروف بكشاف اصطلاحات الفنون**، شركة الخياط للنشر، بيروت، لبنان، د.ت.

ثانياً: المراجع

١- إبراهيم أنيس وعبدالحليم منتصر وعطية الصوالحي ومحمد خلف الله أحمد، **المعجم الوسيط**، ط٢، د. ت.

٢- أحمد أمين مصطفى، **المناظرات في الأدب العربي إلى نهاية القرن الرابع**، دار النصر، القاهرة، ١٩٨٤.

٣- أحمد عبد الرحيم، "مقال الأمثال العربية"، **مجلة العربي**،، عدد١٩١، الكويت، أكتوبر، ١٩٧٤م.

٤- توفيق عبدالكريم أبو الرب، **الحكاية في أدب الجاحظ**، رسالة جامعية غير منشورة، كلية الآداب، جامعة اليرموك، ١٩٨٤.

٥- جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧١.

٦- حنا الفاخوري، **الحكم والأمثال**، ط٤، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

٧- خولة حسين خليل شخاترة، **بنية النص الحكائي في كتاب الحيوان للجاحظ**، رسالة جامعية كلية الآداب، جامعة اليرموك، منشورة عن دار الينابيع، ١٩٩٦.

٨- داود سلوم، **النقد المنهجي عند الجاحظ**، ط٢، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٨.

٩- رودلف زلهايم، **الأمثال العربية القديمة**، مع اعتناء خاص بكتاب الأمثال لأبي عبيد، ترجمة رمضان عبد التواب، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢.

١٠- شوقي ضيف، **العصر العباسي الثاني**، ط٢، دار المعارف بمصر، د. ت.

١١- طه الحاجري، **الجاحظ حياته وآثاره**، ط٣، دار المعارف بمصر، د. ت.

١٢- عبد الحكيم بلبلع، **أدب المعتزلة، إلى نهاية القرن الرابع الهجري**، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٩.

١٣- عبد الحميد يونس، **الحكاية الشعبية**، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٨.

١٤- عبد الله أحمد باقازي، **القصة في أدب الجاحظ**، تهامة، المملكة العربية السعودية، د. ت.

١٥- عبدالعزيز شرف، **الأدب الفكاهي**، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٢.

١٦- فيكتور شلحت، **النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ**، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤.

١٧- م.ت. هوتسما وآخرون، **موجز دائرة المعارف الإسلامية**، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الإمارات، ١٩٩٥.

١٨- مجدي وهبة، **معجم مصطلحات الأدب**، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٤.

١٩- محمد سعيد القزاز،**الفكر التربوي في كتابات الجاحظ**، ط١، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٩٥.

٢٠- محمد عويس، **الحكمة في الشعر العربي**، مكتبة الطليعة، أسيوط، مصر، د. ت.

٢١- نبيلة إبراهيم، **أشكال التعبير في الأدب الشعبي**، دار النهضة، مصر، د. ت.

٢٢- يوسف الشاروني، مقال "النادرة العربية"، **مجلة آفاق عربية**، العدد العاشر، بغداد، السنة الثانية، ١٩٧٧.

Abstract

This distinguished thesis has come under the title (The forms of prose expression in Al- Jahiz book: "Al- Haiwan"), to deal with the prose expressions forms found in that book, which represents a distinct phenomenon from AL-Jahiz other works. It is an encyclopedic book, with various expression forms which estimates the main question in my mind and that is considered the main subject under discussion in this thesis, that is, what are the types of prose expression forms, their specifications and features in "Al-haiwan"?

Many questions stemmed from this main question, such as: why did Al- Jahiz in his book diversified the expressive forms?

- What are the subjects dealt with by these forms?
- What are their kinds?
- What are their resources?
- How did Al- Jahiz deal with these resources?
- What is the ideological and artistic role-played by each one of these forms?
- What are the features of the artistic structure of each one?
- And what are the deployment methods and the styles, in which they where implemented?

This research is aspired to answer the previous question, by trying to explain his resort to this form of expression or that.

This research aims to observe the most important expression form included in "Al-Haiwan" and recognizing them through critical reading.

It also aims to recognizing its contents and studying every thing related to them, and touching the important general and specialize features of these expression forms, the research is trying to explain the role of each from the ideological and artistical aspect.

The researcher hopes to add a new thing, and to touch something neglected by other scholars in this subject, through deep, detailed and comprehensive study of the style of these expression forms and their artistical structure in this book according to the descriptive and analytical curriculum which depends on the core of the enumeration and modern stylistic studies.

This imposed dividing the research into an introduction, two chapters, and an epilogue.

The introduction draws general picture of "Al-Haiwan" book.

The first chapter concentrates on the subjective study on the most important expressive forms in the book taking the story, the proverb and the debate showing it's contents and all resources, kinds and functions related to it.

The second chapter studies the construction of these forms and their styles taking utterance, structures and the pillars of artistic construction to every form showing a wide inspection in form and construction.

The research was followed by an epilogue all results found by the researcher through this thesis where consolidated and crystallized.

The most prominent of these results are as follows: -

1- "Al-Haiwan" book is distinguished from Al- Jahiz other literature in content and style.
2- "Al-Haiwan" book is considered an instructional book of the first class where Al-Jahiz put in it all his experience and thoughts.
3- The aim of writing this book is merely intellectual and ideological, that is to know The Creator (Allah) by his creatures, Al- Jahiz relayed to the expressive form and informative context to achieve this goal.
4- The effect of Al- Jahiz on varied widely where the debates were the only art in which he has his thoughts and artistic moodfully for they were of his own production. Concerning the stories, he indulged in dealing with them in form and in context, but this interference was very limited and restricted in some of them. Concerning proverbs he has not made any change in them eventually, but he was very clover in deploying them.